إلى القارئ

هذا العدد الذى نستهل به السنة الحادية عشرة من حياة مجلة « الفكر » أردناه شاهدا على غزارة ما نشر فى السنوات العشر السابقة ، وعلى أصالة ما أنتجته الأقلام التونسية منذ فجر الاستقلال فى دنيا الثقافة والأدب ، وبالتابع دليلا على المجهود المتواصل الذى لم تنفك تبذله ، فى ايمان وصبر وعزيمة ، من أجل المساهمة فى النهوض بالفكر والسمو بالانسان وخدمة القيم البشرية العليا .

انتخبنا نماذج من الابحاث والقصص والشعر وحاولنا ادراج عينة مما ساهم به الأدباء فى العقد الأول من حياة المجلة ، تذكيرا ووفاء... وحثا على مواصلة العمل واطراد الانتاج الصالح ؛ ونحن نعلم ان الذى ادرجناه فى هذا العدد لا يدل الا دلالة نسبية جدا على مدى وعمق مساهمة اصدقائنا فى تغذية «الفكر» وخدمة الثقافة ، ولكننا لا نملك ان ننشر أكثر مما نشرنا بحكم مقتضيات حجم المجلة وامكانياتها المادية، هذه الامكانيات التى تعذر لنا معها ذكر كل من نشرنا له طيلة السنوات العشر السابقة مما نلتمس له حسن التفهم ونرجو المعذرة.

والشباب ! اننا نقدم لهم خيرة ما أنتجه اخوانهم الكبار ونذكرهم بجهاد من تقدمهم ، على سبيل غرس الثقة بالوطن فى انفسهم الغضة ، وحفز هممهم الفتية على حمل المشعل والسير فى الدرب الصعب الموصل ـ وحده ـ الى سمو الخلق والابداع . وكلنا ثقة فى ان المجلد الذى سوف نستهل به السنة الواحدة والعشرين ـ ان شاء الله وشاء رجال الأدب والثقافة فى هذه الديار ـ يكون زاخرا بانتاج الجيل الصاعد من الأدباء ودليلا على استكمال نهضتنا الفكرية .

وحسبنا ان نزيل ـ بابراز تجربة « الفكر » وطول نفسها وانتصارها على مختلف المشاكل ـ أسباب الشك والقنوط والعجز ، ونقيم الدليل على أن التربة التونسية ثرية، خصبة، وأن الانسان التونسى، اذا ما آمن بنفسه وانتصر على أسباب الوهن والخذلان والتهافت فى نفسه ، قادر على أن يؤسس المشاريع الأدبية وأن يكتب لها طول العمر واطراد الفوز ، وقادر بالخصوص على ان ينتج انتاجا أدبيا أصيلا يمكن ان يساهم به فى اثراء الأدب العربى ويمكن أن يفتح بفضله حوارا ايجابيا مع غيره من البشر حول القضايا الوجودية الكبرى التى لم تزل طوال العصور مصدر عنائه وعظمته فى آن واحد .

بهذا العدد ـ حينئذ ـ نتوج عهدا ونفتح عهدا ثانيا من حياة الفكر ، من حياة الثقافة بتونس والمغرب الكبير ، وندعو ذوى العزائم الصادقة الى لم الشمل وتساند الجهود حتى نبقى ـ نحن حملة القلم ورجال « الفكر » ـ فى مقدمة القافلة ، فى الصفوف الأمامية من المعركة الكبرى التى تخوضها أمتنا الماجدة فى سبيل العزة والكرامة .

ثم نحن نقول للعاملين ، وحتى لبعض المتفرجين ! ما أعذب العذاب والعناء والجهاد اذا ظفر الانسان بلذة الخلق ونشوة العمل الصالح الذى قد يزول معه جسمك وتبقى بعده خالدا .

الفكر

ثقافتنا بين الشرق والغرب

بقلم : علي البلهوان

الثقافة (*) كالنهر الجاري، ينبوعها الحياة، ومروضها العقل ومغذيها المجتمع، تكون احيانا صافية نقية عند بزوغ فجرها واول نشاتها، لم تاخذ من غيرها الا القدر اليسير الذي لا يعكر صفوها ولا يدخل عليها خلطا، وكذلك كانت الثقافة العربية في الجاهلية وصدر الاسلام، وهي ثقافة – وان كانت ضيقة الآفاق فقيرة التجارب البشرية الكبرى، معلوماتها نزيرة لارقة فيها ولا تمحيص – ما زالت بعيدة عن التشعب الغزير والابحاث الواسعة العميقة؛ ثقافة كاملة رغم ذلك مرآة لجيلها العربي، تغلب عليها البداوة، نفسها قصير قوي، سليمة حية، اصولها ثابتة واضحة، وميزاتها بينة جلية؛ الطبع قوامها وعمادها واعظم خصلة فيها فقد نبذت الكلفة نبذا وابتعدت عن التصنع والزخرف.



واوجدت الثقافة العربية منذ البداية اداة عجيبة كاملة صالحة للتعبير عن مظاهرها وخفاياها، ثرية غنية بكثرة الالفاظ وتنوع القوالب، مرنة دقيقة وقوية متينة في آن واحد. فكانت اللغة العربية لفرط حيويتها ومقدرتها على هضم الالفاظ الاعجمية وتعريبها، من اللغات القليلة التي يمر بها الدهر وتتوالى عليها القرون وهي في زهرتها الاولى رشاقة وخفة، وشبابا وحيوية.

تدفقت الثقافة العربية من عين ثرة ماؤها صاف غزير وسرعان ما اتسع النهر المتولد عنها اثر الفتوحات الاسلامية، واخذت الجداول

(*) انظر الفكر السنة 1 العدد 9 – ص 4 .

والانهار الكبيرة تصب فيه صبا حاملة معها تراث الشعوب ومدنيات الامم الغابرة والثقافات السابقة. والاعجب ان النهر العربي اقتبل تلك الثروات الطائلة من غير ان يغير مجراه او يبدل جوهره وطبعه بل لونها بلونه ووهبها من روحه فامتزجت به وامتزج بها، فخرجت الثقافة الكاملة : الثقافة العربية الاسلامية التي نعرّف بها عند ذكر بعض اسماء رجالها المثاليين كبشار وابن المقفع. وكالجاحظ وابي حيان التوحيدي، وبديع الزمان وابن سينا والغزالي في مشرق الشمس وكابن رشد وابن حزم وابن خفاجة وابن زيدون وابن خلدون في مغربها.

ونجد من بين اعظم هؤلاء الرجال العربي والفارسي والتركي والروسي والبربري والاسباني وغيرهم وانهم لم يعبروا عن شخصيتهم الفردية فقط بل عبروا ايضا عن امزجة شعوبهم وخصائصها وسلوكها عن قصد احيانا وعن غير شعور احيانا اخرى، ولكنهم اتخذوا العربية ـ والعربية وحدها ـ كاداة تعبير؛ وقد هاجم الكثير منهم العرب والثقافة العربية وسعوا في الحط منهم ومنها؛ وشتموا العرب بلغة العرب بعد ان اتقنوها وحفظوها وعرفوا خفاياها ودقتها وجمالها فكانوا احسن مثال لمن تعرب لسانه وروحه وتشرب الثقافة العربية الخالصة حتى اختلطت بنفوسهم اختلاط الماء بالماء. وتصدى الجاحظ منذ اكثر من الف عام للرد عليهم في « البيان والتبيين » فابرز ميزات العرب وثقافتهم.

واخذت الثقافات تدخل العربية على طريق الترجمة وعلى طريق الجماعة والشعوب التي اسلمت وعلى طريق التبادل التجاري ايضا. فكان اتصال العرب وثيقا بالصين والهند والترك والفرس والروم والفرنج اتصال حرب او اتصال سلم، فربطوا هكذا بين اجزاء البشرية شرقيها وغربيها، ونقلوا فلسفة يونان وعلومها وحكمة الهند وتفكيرها وفتن فارس وتزويقها وصناعات الصين واتقانها، فتراكمت لديهم المعلومات وتشعبت المعارف والفنون وتعددت طرق البحث والتنقيب، وكان السبل اختلطت في اول الامر وتعكر ماء النهر وصعب هضم ذلك الغذاء لتنوعه وكثرته. ولكن النفس العربية لا تعيش الا في الوضوح ولا تزدهر الا مع البيان، تغلبت على الغموض فخلصت الاصول من الفروع المشتبكة، واخذ كل علم استقلاله في موضوعه وطرق البحث الصالحة به، وتجلى شيئا فشيئا ما بين العلوم من ارتباط؛ وفتحت آفاق جديدة واحدثت علوم لم تكن، كالجبر وعلم المجتمع مثلا.

واصبح من العسير على رجل واحـــد ان يتقن العلوم كلهـا؛ واختص العلماء كل في علمه او فنه.

وكانت الثقافة العربية احسن مثال للثقافة البشرية الكاملة. والمثقف ليس من يتقن علما من العلوم حتى يصير مرجعا فيه بل العلوم هنا تصبح وسيلة لاغاية؛ اذ غاية الغايات هي الانسان نفسه؛ الانسان بعقله وعواطفه، وذوقه وارادته. فكل ما يعين على تربيته وتهذيب غرائزه واكمال ذاتيته وابراز شخصيته من علوم وآداب وفنون محبب مرغوب فيه، وقد كتب ابن المقفع في « الادب الكبير » صفحة خالدة شرح فيها معنى ما نسميه اليوم ثقافة وسماه العرب ادبا، فالثقافة عنده انماء الغريزة وتقويتها وتاديبها وتقويمها من غير اخراجها عن طبعها وجبلتها. والثقافة هي اولا وقبل كل شيء تثقيف العقل : والعقل كالغريزة من الغرائز؛ وهو علم بالضروريات العقلية وادراك لنفسه ولما تاتي به الحـــواس.

فالثقافة الحق تزيد العقل صقلا ونصوعـــا وتصيره حادا في تمييزه عميقا في ادراكه. ولكن الثقافة لا تقتصر على العقل بل تشمل الانسان كله فتفعل في عواطفه وشهواته وذوقه فعلها في عقله، فالثقافة لا توجد في الانسان ما ليس فيه، بل مهمتها ان تهذبه وتقويه وتنميه؛ فلنستمع الى الغزالي يحدثنا عن الذوق : « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس، وهو نوع ادراك، ويحرم منه بعضهم حتى لا تتميز عندهم الالحان الموزونة من الرجفة. وانظر كيف عظمت قوة الذوق في آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والاغاني وصنوف الدستانات التي منها المحزن ومنها المطرب، ومنها المنوم، ومنها المبكي، ومنها المجنن، ومنها القاتل، ومنها الموجب للغشي، وانما تقوى هذه الآثار فيمن له اصل الذوق . واما العـــاطل عن خاصية الذوق ، فانه يشارك في سماع الصوت، وتضعف فيه هذه الآثـــار، وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشي ».

وكل ما يفسد الذوق ويدخل على العقل الغموض والاعوجاج ويخرج بالانسان عن طبعه وجبلته لا يمكن ان يسمى ثقافة وتثقيفا بل عماية وتضليـــلا.

وهنا ايضا يمكن ان ناخذ من الثقافة العربية الاسلامية مثـــالا،

فبعد ان اتسعت وتعمقت والتصقت بالطبع البشري التصاق الظل بصاحبه. وانغرست عروقها في الحياة فازدهرت واينعت وكثرت فروعها وانبسقت واتت بالثمرات الطيبات، وبعد عصر الابتكار والتجدد، اخذت تقطع ما بينها وبين الحياة من صلة وثيقة وتبتعد عن الطبع، وعوضت المعلومات المجموعة العلوم المتدفقة والاشكال والقوالب الطبيعية والغريزة، فشملها الذبول شيئا فشيئا، وتسرب اليها الجمود رويدا، واكتنفها التكلف والصنعة؛ وباتت الثقافة زخرفا.

تحدثت دائما عن الثقافة العربية الاسلامية اذ لا يمكن ان نفرق بين اللفظين، نعم اعتنق الاسلام شعوب من غير العرب واتخذوه دينا واستمدوا منه تقاليد وعادات واخلاقا، ولكن الثقافة الاسلامية عربية متاصلة في العروبة ممتزجة بها امتزاجا كليا؛ القرآن عربي وتفاسير القرآن عربية وكتب الاحاديث عربية، وكتب الفقه عربية؛ وفقه السنة وفقه الشيعة سيان في ذلك. فمن العبث محاولة التفريق والتجزئة والتقسيم، والجسم واحد والروح واحدة. نعم دخل الاسلام الفرس والترك والهنود وغيرهم وبقيت الثقافة الاسلامية عربية؛ ففكر وكتب الفارابي التركي، وابن سينا والغزالي الفارسيان، وابن الرومي وابن خلدون المغربي وابن رشد الاندلسي، باللغة العربية الاسلامية.

وان تلك الثقافة المثالية في انسانيتها يشملها ضرب من الوحدة وان اتسعت رقعتها حتى شملت القسم الاكبر من المعمورة من حدود الصين الى قلب اروبا؛ ولم يكن تنوعها وتشعبها وغزارة موادها وكثرة ابتكاراتها في جميع الميادين وتناقض اجزائها احيانا من عوامل التفرقة بينها والتباين بين المثقفين في مختلف اقطارها بل زادها كل ذلك غنى وثروة وخلق فيها تيارات فكرية ودينية وفنية تربط بين الكل وتقرب بين الافراد رغم المسافات البعيدة، فابو علي القالي البغدادي صاحب « الامالي » يصبح استاذا في الاندلس؛ ويدخلها ايضا تلميذ ابي اسحاق الموصلي كالفاتح ليعلمها الغناء والاناقة البغدادية؛ ويخرج ابن عربي المغربي الاندلسي وبعده بقرون ابو الحسن الشاذلي من المغرب ليكونا اساتذة المشرق في التصوف، ولا يشعر واحد منهم انه غادر العالم العربي الاسلامي وانه حل بقوم غير قومه، ويرد الغزالي في « تهافت الفلاسفة » على الفارابي وابن سينا في شرق فياتي الاندلسي المغربي ابن رشد ليرد بدوره على الغزالي في « تهافت التهافت »، ويبتكر اهل

الأندلس الموشحات وينجب فيها المشارقة كما نبغ فيها المغاربة من قبلهم. وهذا كله لا يمنع الثقافة العربية الاسلامية من ميزات تمتاز بها في كل قطر كما تمتاز جهة الهمامة او صفاقس او سوسة او بنزرت بميزات تفردها عن غيرها وليس معنى ذلك ان الوحدة الجامعة بينها مفقودة .

ومن البدهي ان اعظم رابطة في الثقافة الاسلامية هي اللغة العربية ولكنها ليست الرابطة الوحيدة، فموقع العالم العربي جعله الرابطة الطبيعية بين الشرق والغرب، وهو الى الغرب اقرب. وان الثقافة العربية وان اتصلت بالشرق الاقصى من صين وهند الا انها من ثقافات البحر الابيض المتوسط ولذا نجد الروابط بينها وبين ما تولد على شواطىء ذلك البحر من مدنيات سابقة امتن مما يظن. وليست تلك الروابط ناشئة عن مجرد نقل عنها او ترجمة منها واتصال بها، بل هي ناتجة اولا وبالذات عن طبيعة هذا البحر وميزاته. واولها العقل ومن قال عقلا قال وضوحا وبيانا؛ فالابتعاد عن الغموض وعن الظلام بانواعه اصل من الاصول يولد النظام في الافكار والدقة في البحث، والبيان في التعبير.ولو سألنا قدماء العرب عن ابرز ميزة فيهموفي لغتهملقالوا البيان.

ومن ميزاتهم ايضا الاتزان — وهو لا يخلو من عظمة واجلال — والاتزان اقتصاد في الحركات وفي الالفاظ، وتناسق بين الاجزاء، وكان قول يونان : — الانسان ميزان الاشياء — يصدق عليهم وعلى ثقافتهم كما صدق من قبل على يونان. فالعظمة عندهم لا تتولد عن تضخم هائل في الاجرام والهياكل بل عن نظامها واتمام بعضها ببعض والتناسب بينها.

فالمقاييس في العالم الاسلامي القديم متشابهة موحدة، مقاييس العقل ومقاييس الاخلاق ومقاييس الفن والجمال.

والثقافة العربية في عصرنا الحديث تسعى جاهدة للتخلص مما الصقته بها القرون من ادراك وكبلتها به من اشكال وقوالب فارقتها الحياة منذ اجيال؛ وقد فارقت الجمود وانغمست من جديد في تيارات حية تتدافعها. مدت يدها الى تراثها البشري الكبير واخذت تزيح عنه النقاب وتنشر كنوزه متعجبة من ثرائه مكتشفة خفاياه مستغربة من التماثل — في عمق واتساع — بينه وبين المدنية الغربية الحاضرة؛ وما زالت في اول امرها وبدء عملها في هذا الميدان. ومدت اليد الاخرى الى الثقافة الغربية تكشف عن تشعبها وغناها وجمالها وتغترف من علمها الغزير ومحدثاتها المتجددة.

فمستقبل الثقافة في تونس لم ينتظر راي بعضنا لتظهر اتجاهاته وهو مرتبط ارتباطا كليا بمستقبل الثقافة في الشرق العربي، وهي اليوم تعيش عصر انتقال تكثر فيه التيارات المتناقضة وتعكره الاضطرابات وعدم الاستقرار.

هل في امكان النخبة المفكرة اختيار اتجاه معين، وادخال شيء من النظام على ما اعتراه من فوضى؟ وليست المعركة بين القديم والحديث كما ظن الكثير، او بين الجمود والحركة، لان الحياة عندما اخذت تدب في ثقافتنا العربية كفيلة بتكسير الاشكال البالية وقطع القيود وتحطيم السدود.

وعلى كل فالتعليم يلعب دورا هاما في توجيه الثقافة واعداد مستقبلها، بطرق التدريس ومحتويات برامجه. ويتفق عقلاء العالم العربي في ان الثقافة العربية ليست بعض القواعد النحوية والصرفية والبلاغية مشفعة بنصوص شعرية ونثرية يحفظها التلميذ عن ظهر قلب ويكررها في المناسبات وفي غير المناسبات احيانا. بل الثقافة العربية كل حي تشمل تاريخا يربط اجزاءها وتفكيرا ومذاهب فلسفية ودينية وعلوما تولدت عنها العلوم العصرية، وشعرا ونثرا عبرا عن الانسان في قوالب فنية تهذب الذوق وتؤدب العقل، فتدريس الثقافة العربية يتطلب من الاساتذة جهودا مستمرة لان البحث العصري والتمحيص العلمي لم يشملا الا القليل منها، فهي ما زالت كالبحر الواسع العميق الذي لم يعرف منه الا بعض سواحله فعلى الاساتذة ان يخوضوا غماره وان يصلوا قدر المستطاع الى اعماقه، ويبذل كثير من اخواننا في الشرق اعمارهم في ذلك حتى سموا بعضهم كالاستاذ احمد امين رحمه الله رهبان الثقافة العربية.

وان الثقافة الغربية ضرورية لنا، فستكون كاللقاح تجدد به الاشجار فتاتي باطيب الثمرات؛ وهي لقاح العقل والذوق، واكبر ميزة لهذه الثقافة تقدم العلوم الرياضية وتطبيقها. وعلى تلك العلوم وما انتجته من اختراعات تطبيقية اقيمت النهضة الاقتصادية والتقدم الاجتماعي، فعنايتنا بها ستحتل المكان الاول ان اردنا الالتحاق بقافلة الامم الراقية، وليس فيها ما ينافي ثقافتنا العربية بل ستعززها وتركزها على اسس ثابتة. ولكن للثقافة الغربية ميزات اخرى لا يمكن ان تغفل؛ فهي انسانية شاملة خاصة في عصرنا الحاضر وقد امتزجت المدنيات ببعضها واقتربت المسافات بينها، واصبحت الصين والهند واميركا تشارك فيها بعلمائها ومفكريها وشعرائها. فالثقافة تتجه نحو الوحدة في ثرائها وتنوعها وتشعبها؛ والعالم اصبح يسير نحو الوحدة الثقافية بخطى اسرع من سيره نحو الوحدة السياسية.

ويمكن لتونس ان تلعب دورها الثقافي في العالم العربي وفي العالم كله، وربما يكون اعظم من نطاق ترابها الضيق . **علي البلهوان**

حول الثقافة

بقلم : أحمد بن صالح

فى الثقافة :

الثقافة(*) نتاج العلم او العمل· تسمو سموا اذا كانت نتاج العلم والعمل· هى يقظة الفكر والحس والضمير ، يقظة الى كل شىء · وهى توازن قوى الانسان · وهى دائم الاتجاه الى الحياة تحمل الانسان ماهية ماضى مجتمعه



والانسانية وتحمله الحاضر وكل ما يزخر به من عمل وامكان · وتحمله التوق الى الغد · ولا ثقافة اذا لم تخلق التوق الى الغد · الى حياة اقوى واغرز واسعد ، ولا هى ثقافة اذا لم تخلق العمل فى تلك السبيل · الثقافة حياة الفكر والحس والضمير· وحياة الفكر والحس والضمير لا تكون فى الوحدة · الوحدة اكذوبة كبرى خلقها المرضى او أنصاف المتعلمين او الفاسقون بانفسهم · الثقافة حياة ولا حياة فى غير الاجتماع والاشتراك والمحبة · الثقافة سعى وقرب وانسجام مع البشرية جمعاء· وهى سمو مطلق متى لبست جسدا حيا هو آمال كل اصناف المعذبين فى الارض وهو توقهم الى حياة افضل والى نهش الدنيا وهو توقهم الى العدل المطلق المستحيل ·

هى تسمو عند ما تدفع البشرية الى التوق الى المستحيل ودعوتها الى المستحيل لا تخلق التحجر واليأس انما الاندفاع والعراك المستمر جيلا بعد جيل · وهكذا الثقافة عراك مستمر · عراك المجموعات البشرية جيلا بعد جيل لخلق السعادة وتعميمها وبلوغ هدف الانسان الاسمى : العدل المطلق ·

فى الثقافة والتعليم :

يمكن ان نقول فى ايجاز كامل بعد ان تحدثنا عن الثقافة ان التعليم احدى وسائل البلوغ الى مستوى الثقافة وهو وسيلة فى متناول الذين لا يقدرون

(*) انظر الفكر السنة 1 ـ العدد 9 ـ ص 24 ·
وجهت المجلة فى سنتها الأولى استفتاء الى ثلة من الأساتذة حول الثقافة وكان هذا جواب الأستاذ أحمد بن صالح ·

السير وحدهم فى الحياة العملية · وسيلة فى متناول الاطفال يوجهون فى خطاهم الاولى· ولا تتيسر لهم الثقافة اذا كان التوجيه ضغطا وقتلا لاشواقهم·

هذا التعليم بالنسبة للثقافة فى معناها الذى بيناه · والتعليم اليوم اما ان ينسجم فى نطاق عمل الامة فى سبيل ازدهارها وتسيير كل شؤونها والا فليس بالتعليم ، التعليم واجب ان يكون تكوينا مهنيا فى شتى ميادين الحياة بينما الثقافة وضع فكرى وحسى يشمل يقظة الانسان الى كل ميادين الحياة فى مجموعها ·

فى الثقافة الغربية والشرقية :

ليس عندى ثقافة غربية او شرقية ، الثقافة لا يمكن ان تكون جغرافية او « طقسية » او تاريخية ولا يغرننا ما اصابها مدة قرون من تدليس خلقه التفاوت فى التقدم الصناعى والاقتصادى وبالتالى التفاوت فى التوازن الاجتماعى والتوازن الثقافى ·

ولا يمكن الا ان تتفاوت القارات بتلك الصفة فتلك سنة لن تتغير الا اذا سوى التقدم الصناعى او الذرى اليوم بين كل الجماعات البشرية حتى يتوحد الاتجاه ويتوحد التوق الى الحياة ·

فالثقافة كفر بالعنصرية ولو اتسع مجالها ، وهى كفر بالتفاوت الفاحش الخالق للضيم · هى ايمان بمستحيل العدل والتوازن بين جميع عناصر الحياة والبشرية ·

فى الثقافة العربية :

الثقافة العربية ، الثقافة الاسلامية ، الثقافة الشرقية ، الثقافة الغربية · كل هذا خطأ ·

وانما يعتبر عربى اللسان المثقف باللسان العربى انه ينتسب الى الثقافة العربية وكذلك يعتبر نفسه المانى اللسان او روسى اللسان او هنديه · ولو اطلع احدنا على اكثر من لغتين لاكتشف ان ما يجده فى التفكير المدون بالعربية يجده مدونا بجميع اللغات · هذا بالطبع فيما يتعلق بالكتب او الاتجاهات الاساسية وليس حديثنا عن قشور الثقافة من كتب او قصص لتسلية مجموعات بشرية تسعى الى التسلية الرخيصة والسريعة بالخصوص ، والثقافة ليست وجها من وجوه التسلية بل هى كد مستمر للكشف المستمر ·

تعدد الثقافات ومستقبل الثقافة فى تونس :

لا اومن بتعدد الثقافات وقد اقتنعت بمفهــوم الثقــافة الذى بينت فى اول كلامى . كذلك لا اومن بوحدانية الثقافة فى اقليم ما او قارة ما وانما الثقافة هى كد ماهية البشرية فى سبيل ماهية اهداف البشرية ثم هى عمل مشترك بين المجموعات البشرية فى سبيـــل الانتصـــار بتلك الاهـــداف فى مستـــوى الانتصار اليومى على اعداء البشرية واعداء الحياة .

هناك فقط صور متعددة ولغات متعددة تبلغ بها الثقافة فكر الانسان وحسه وضميره وهناك صور متعددة ولغات تبلغ الثقافة بها البشرية سبيل الكــد الفكرى والحسى وتبلغها سبيل العمل المشترك لبلوغ اهدافها .

وعندنا اليوم فى البلاد ذات اللسان العربى صور غير موحـــدة للثقـــافة . وعندنا اليوم فى البلاد ذات النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى المريض المختل صور متعددة للثقافة .

وانما الاتجاهات العامة تجدها فى بلاد آسيا وبلاد افريقيا وبلاد اوروبا او اميركا الجنوبية . هى اتجاهات قسم كامل من المجموعة البشرية يسعى سعيا جديدا حـادا الى جعل التقدم الصناعى والذرى احيانا ينتشر سعادة وحـرية على جميع البشرية وعندما اقول سعيا جديدا حادا فذلك بالنسبة الى شيخوخة سعى الذين انهكهم التقدم لانهم اخطؤوا سبيل تسخيره فى صالح البشرية . فهو هو الذى سخرهم وهضمهم ووضع على قلوبهم غشاوة واوصد على افكارهم وحسهم ابواب السمو البشرى ، فضلوا واخذتهم سبل الطغيان .

واليوم الاتجاهات الثقافية نسميها قومية لأنها فى حالة دفاع لتخليص اقطارنا او قارتنا ولكننا واجب ان نسعى السعى الحاد حتى لا تقف عند الدفـــاع لان الثقافة ليست تحجرا بل هى غزو للمستقبل وفتح مستمـــر مبين للانســـان وفكره وحسه وضميره وهى فتح مستمر مبين فى وجه المجمـــوعة البشـــرية لتسمو فى نظامها وبتوازنها وتبلغ مصف المجموعات الزاحفة جيلا بعد جيل الى الحياة الكريمة السعيدة .

مستقبل الثقافة فى تونس . ولا نقول مستقبل الثقافة التونسية . هو فى الحقيقة مشكل مستقبل التعليم الذى هو وسيلة من وسائل الثقافة. يجب ان لا يدفعنا حبنا للتخلص من تأثير الاجنبى الى الانغـــلاق . واجب ان يسهـــل تعليمنا القومى العربى سبيل فهم الدنيا والحضارة الانسانية مهمـــا تعـــددت

صورها . يجب ان يحافظ على اللغة **ومميزات وطننا** ومميزات المجموعة الافريقية والمجموعة العربية التى ننتسب اليهما وكذلك مميزاتنا فى نطاق البحر الابيض المتوسط الماجد التاريخ . ولكن مع المحافظة على المميزات فتح الاذهان الى الدنيا والى التقدم وتمكين الجيل من الشعور بانسجامه مع العصر انسجاما فنيا وذلك **يكون على شرط ان ينسجم التعليم نفسه مع نظام البلاد الاقتصادى والاجتماعى الذى نريد** واجب ان نتقى خطر انفصال المدرسة عن الشارع وانفصال الفكر عن الحياة اليومية وان نعتبر جدران المدرسة شفافة قريبة الى تدفق الحياة العامة ومآسيها وافراحها .

يجب ان يكتشف الطفل نفسه بصورة مستمرة **فى الوقت الذى يكتشف فيه المجموعة** التى يعيش بينها كما يجب ان يبلغه ذلك الاكتشاف الى الشعور بانتسابه الى البشرية جمعاء .

نظام التعليم ونظام البلاد الاقتصادى هما اللذان يهيئان صورة قومية للثقافة .

هما دعامتا كل الثقافة ، ومستقبل الثقافة فى بلادنا اساسه رغبة الجيل الجديد فى حياة افضل بالكد المشترك وتوق الجماهير الشعبية الى تلك الحياة الافضل فى الكد المشترك لبلوغ العدل الكامل .

احمد بن صالح

حول شؤون الثقافة بتونس

بقلم : الشاذلي القليبي

1) ما هو مفهوم الثقافة في نظركم ؟ وهل لنا ثقافة قومية في تونس وبم تستطيعون ان تعرفوها وما هي الاتجاهات الكبرى التي تتنازعها ؟
2) ما تعتزمون القيام به لبعث الثقافة التونسية وتوفير اسباب ازدهارها ؟



يمكن (*) انظر الى الثقافة من اوجه مختلفة :

فباعتبار المحتوى ، الثقافة جملة الانتاج الذهني دون ميز بين ما يدون في الكتب وما يسجل بطرق اخرى كالرسم والنحت ... ولا بين ما يتصل بالعقل او بالوجدان كالموسيقى والرقص ... فبهذا الاعتبار ، يدخل في الثقافة كل انتاج يحمل وجها من القيم الانسانية العليا ، سواء اكانت عقلية أم روحية أم جمالية. الثقافة اذا تشمل جميع منتجات القريحة البشرية .

وهي ترتكز على معنى الشمول باعتبار آخر: وهو انها منبثقة عن الجماعة وانها تنزع دوما الى تجاوز تلك الجماعة والانتشار في رقعة دوما تتسع .

* * *

هذه أجوبة تفضل بالادلاء بها السيد الشاذلي القليبي كاتب الدولة للشؤون الثقافية عن جملة من الأسئلة توجهت بها اليه الفكر وقد تناولت شؤون الثقافة بتونس .

(*) انظر الفكر السنة 8 ـ ص 102 .

فمن هذه الناحية يمكن ان نقول : ان الثقافة خلق جماعي ، وانها بذلك تعبر عن الجماعة ·

ولما كانت هذه الجماعة مستمرة متقلبة كانت الثقافة نفسها متطورة مستقرة اى انها تشتمل على خصائص باقية وعناصر متغيرة حسب الازمان والظروف ·

واذ كانت الثقافة خلقاً فانها لا تبقى حية الا اذا تواصل هذا الخلق وتواصلت عملية انصهار العناصر الجديدة دون ان يحدث انفصام فى السيل الزمنى · وبذلك تتصف الثقافة بالدوام رغم الكسب المتجدد ويصح ان تنعت بالعريقة رغم انها مندفعة مع تيار الزمان ·

على اساس هذا الوصف الاجمالى السريع ، هل يحق لنا ان نؤكد وجود ثقافة قومية ؟ الواقع ان الشعوب العربية عاشت منذ البداية على ثقافة مشتركة · ولا نجد خلال التاريخ ثقافات اقليمية متميزة بل ثقافات كبرى مرتبطة بفترات من تاريخ الامة العربية : كالثقافة الاموية ، والثقافة العباسية ، والثقافة الاندلسية ···

فالى عهد الحماية كانت تونس تعيش فى نطاق الثقافة العربية الكبرى · ولما حصل الاصطدام بالاستعمار الفرنسى وتبلورت فكرة القومية التونسية — وللاستعمار فى غالب البلاد العربية اثر كبير فى ابراز الجنسيات على اساس الكفاح القومى — تبلور ايضا مفهوم الثقافة القومية ، ولكن باعتبارها هى الثقافة العربية المشتركة بعينها · ولم تتميز فى الاذهان فكرة ثقافة عربية قومية — اى تونسية — الا بعد قيام الدولة وبناء الامة وشعور الشعب التونسى بجميع ما يميزه عن بقية الشعوب العربية — طبعا ازاء ما يربطه بها من اواصر اللغة والحضارة والماضى المشترك — وتيقظ قادة الفكر — بالخصوص — الى دور الثقافة فى المجتمع ، والى انها لا تكون ذات حيوية وفعالية الا اذا كانت لسان جماعة بعينها وتعبيرا عن واقع بعينه ·

وبعث ثقافة قومية — والحق يقال — ليس بالامر الهين اليسير ، ولا يمكن بحال ان نقارن بين الذاتية الثقافية والذاتية السياسية · فالامم التى انجبت ثقافات متميزة عددها قليل جدا بالنسبة الى التى بقيت فى موقف المستهلك · لذا لا يصح ان تدعى كل امة من الامم المستقلة بناء صرح ثقافى متميز · ولا بد فى مثل هذا الامر من الارتكاز على دعائم روحية وحضارية عريقة ·

وقد اسلفنا ان الثقافة دأبها التجاوز ، تجاوز حدود الجماعة وتوسيع رقعة اشعاعها .

وفي ذلك سر حياتها ودليل حيويتها . الثقافة تنزع الى الشمول بطبيعة جوهرها والرسالة الانسانية التي تحملها تفرض هذا التجاوز وهذا الانتشار المتواصل . لذلك قلما نجد الثقافة الاصيلة العريقة منحصرة في حدود الامة الواحدة . بل هي تعم - غالبا - جماعة من الشعوب وطائفة من الامصار وجهة من جهات المعمورة على اساس مميزات مشتركة .

كذلك اذا نظرنا الى الثقافة العربية فانها تعم جميع البلاد المتكلمة بالعربية على اختلاف لهجاتها ، بقطع النظر عن المعتقد ، حتى انها ترامت من المشرق الى المغرب . فكأن لزاما ان تظهر داخلها خطوط فاصلة لمناطق ثقافية متميزة . من ذلك ما نسميه اليوم المغرب الكبير (او المغرب العربي) الذي يشمل اولا ما كان يسميه الرومان « افريقية » - اي تونس وجزءا كبيرا من الجزائر - ثانيا المملكة المغربية وجزءا من الجزائر ، ثالثا المملكة الليبية . فمعلوم ان هذه المنطقة كان لها في الماضي ثقافة قائمة الذات ارتبطت في وقت من الاوقات بالحضارة الاندلسية . وواضح ان ثقافة هذا المغرب ، وان اكتست بعد الفتح ثوبا عربيا ، فهي مزيج من مؤثرات حضارية متنوعة لا تجدها متجمعة في المشرق العربي .

فلئن كان من العسير بناء ثقافات ثلاث ، تختص احداها بالمغرب الادنى - ليبيا وتونس - والاخرى بالمغرب الاوسط - الجزائر - والثالثة بالمغرب الاقصى ، فانه من السهل ، بل من المتأكد ، ان نعمل على ابراز معالم الحضارة المغربية التي ازدهرت وفرضت ذاتيتها في نطاق حضارات متوالية .

ذلك ما يفرضه التاريخ والواقع . على انا لا نتصور هذه الثقافة المغربية الا ضمن الثقافة العربية الكبيرة تحتضنها وتغذيها وتتفاعل معها ، كما لا نتصورها الا متفتحة على ثقافات البحر الابيض المتوسط تتفاعل معها كذلك في حوار لا ينقطع .

كيف نمهد لهذه الثقافة المغربية .

في امكاننا ان نتظافر وان نتكاتف - معشر بلدان المغرب الكبير - لتهيئة الاسباب المعينة على قيام الثقافة المغربية ، وذلك :

- باحياء التراث المغربي الحق الذي يجب ان يكون الدعامة الاولى للبعث الثقافي ، وذلك بجمع المخطوطات التي لها طابع مغربي صرف والعناية بنشرها حتى يعود الحوار بين الاجيال الغابرة والجيل الصاعد ، ذلك الحوار الذي بدونه لا تكون الامة ولا الحضارة ولا الثقافة مطلقا . اذ الثقافة انما هي الذاكرة بالنسبة الى الامة ولا مستقبل لامة اذا لم تكن واعية للماضي .

هذا الاحياء لا بد من القيام به في نطاق كل من اقطار المغرب . ومن المفيد جدا ان تسند مهمة التنسيق الى لجنة ثقافية مشتركة منبثقة عن المجالس العليا للثقافة في كل من بلاد المغرب الكبير . وسنشرع بالنسبة الى تونس في

انشاء هذا المجلس وتركيز نشاطه على قواعد متينة .

ـ بحث نظم التعليم ومحاولة ابراز عناصر مشتركة وطرائق موحدة،اذ الغذاء الذى سيتلقاه الجيل الصاعد هو الذى سيكون فيه الشخصية الاصيلة ويوجه نزعاته العاطفية واتجاهاته الفكرية . فمن المتأكد ايجاد وسائل التوفيق ، وتقريب الشقة ان لم نقل التوحيد العاجل ، وذلك سهل ما دمنا فى هذه المرحلة الانتقالية التى لا تزال فيها آثار الفترة الاستعمارية قائمة . فمن النزاهة التاريخية ان نعترف ان للاستعمار ـ احيانا ـ نتائج تجعلنا نقول عنه ما قاله ابو الطيب عن الشدائد . وقد ترك الاستعمار الفرنسى فى البلدان الثلاثة اشياء قد تختلف فى الحكم عليها ولكن لا نختلف فى اعتبارها هى ايضا من عوامل التقريب .

ـ اتخاذ التدابير الكفيلة بمساندة حركة التاليف وتسهيل رواج الكتب بين الاقطار الاربعة .

هذه بعض الاجراءات والتدابير التى ينبغى اتخاذها لتهيئة البعث الثقافى . وهى لئن كانت واجبة فليست بكافية البتة ، اذ البعث الحقيقى متوقف على وعى الافراد وقدرتهم على الخلق الثقافى واداء الرسالة الروحية التى يحملونها ، وهو متوقف ايضا على مدى نضج الامة وقدرتها على فرض رسالتها الثقافية فنية كانت او فلسفية او اخلاقية .

3) ما هى مشاريعكم لتثقيف الشعب ورفع مستواه ؟

لا شك ان تثقيف الشعب من الوسائل التى تمهد للبعث الثقافى الذى كنا نتحدث عنه .

والثقافة فى الواقع تنطوى على تيارات متقابلة واتجاهات متناقضة . من ذلك انها تنزع فى آن نفسه الى السمو حيث لا يقدر على اللحاق بها الا قلة من الخاصة ، والى الانتشار والشمول حتى تعم العدد الاوفر من الجماعات والافراد.

نعتقد انه من المفيد الحفاظ على النزعتين مع الاحتياط من تغلب احداهما على الاخرى ، لان الثقافة التى لا تقوى على الصعود الى القمم وعلى التحليق فى اجواء الفكر والروح لمعالجة معضلات الانسان والوجود ، ليست جديرة بان تنتسب الى الانسان . كما ان الثقافة التى لا تحسن ان تنزل الى متناول الجمهور تبقى مقطوعة الاصل بالواقع مثلها مثل الشجرة غير الطيبة : فرعها فى السماء واصلها غير ثابت ، فلا تتفاعل فيها قوى النور وقوى التربة الصماء .

لذلك ننوى الاضطلاع باعباء التثقيف الشعبى واضافة جهودنا الى الجهود الكبيرة التى يبذلها الحزب والمنظمات القومية للرفع من مستوى الجماهير الكادحة . ولتمكين كل مواطن من ان يتثقف ويهذب من نفسه ويسمو بذاته درجات حسب طاقته وميوله .

ونجعل فى اول مرتبة من ذلك مقاومة الامية فى طبقات الكهول الذين

يخوضون الحياة الاجتماعية • لانا نعتقد ان القدرة على القراءة هي الاداة الاولى للتثقف واكتمال الذاتية ورفع المستوى الذهني • وذلك هو اساس ما نسميه بالكرامة الانسانية التي ننشدها من خلال ما نرومه من نهضة اجتماعية واقتصادية •

ونحن الآن بصدد درس تجربة ترمي الى القضاء على الجهالة قضاء مبرما ، ربما اقدمنا عليه في الاشهر المقبلة ، وهي تعبئة عامة لرفع الامية بتجنيد طائفة من الموظفين في كل مدينة وفي كل قرية للقيام بدروس منظمة في نوادي الشعب وسائر المنظمات القومية ، حتى ناتي على الامية بعد اجل لا يتجاوز العامين •

ثم انه لا يكفي ان نعلم المواطنين القراءة والكتابة ، بل يجب ان نعلمهم ايضا ـ وبالخصوص ـ استعمال هذه الآلة الجديدة التي اكتسبوها حتى لا تصدأ وحتى يتذوقوا متعة التعلم الذاتي فتبقى حية فيهم جذوة اليقظة • لذلك ستركز عملية التثقيف الشعبي في نطاق « دار الشعب » التي ستكون مركز الثقافة والوعي الاجتماعي والقومي في كل مدينة وفي كل قرية • فسوف تكون دور الشعب مقر المنظمات المحلية سياسية كانت او نقابية او ثقافية وفيها يتلقى المواطنون الدروس الاجتماعية ويحضرون الاجتماعات العامة العادية ويشاهدون الروايات السينمائية والمسرحية •

وفيها يجد الكهول قاعات للمطالعة وللرياضات المسلية ، كما يجد فيها الاطفال جناحا خاصا ببعض الالعاب التربوية او التثقيفية كالعناية باصناف من النبات والحيوان • •

لقد شاءت عناية فخامة الرئيس بالثقافة ان يحدث لجنة ثقافية في العاصمة منذ ما يزيد على الثلاث سنوات ، وذلك للخروج بالحياة الفكرية من الركود ولينفخ فيها من روحه • وقد تولى بنفسه الاشراف على اعمال هذه اللجنة واحاطها بكامل رعايته • وامام نجاح هذه البادرة راينا تعميمها الى سائر المدن والقرى الكبيرة حتى تكون اللجنة الجهوية ـ في مركز كل ولاية ـ ثم من تحتها اللجان المحلية ـ في كل معتمدية ـ اداة تنشيط وتنسيق للحياة الثقافية في نطاق دار الشعب • وتكون اللجنة المركزية بالعاصمة هي المشرفة على اللجان الداخلية ، تغذيها وتنسق المبادلات بين العاصمة وبقية الجمهورية من جهة وبين مختلف الولايات من جهة اخرى • ولا يخفى ما في ذلك ازاء تقوية الحياة الثقافية واحكام تنظيمها ـ من توثيق الصلة بين مختلف اجزاء الوطن وجعلها متماسكة متكاتفة •

وبذلك نكون قد حققنا غرضين ، يخيل انهما متباينان : تمكين الذاتية الثقافية الجهوية من البروز وفي الآن نفسه احكام الربط بين اجزاء الجمهورية على تباعدها •

4) ما هي الاجراءات التي اتخذتموها او تنوون اتخاذها لبعث حركة التاليف والنشر ؟

اهم وسيلة للتشجيع على التاليف والنشر هو ايجاد القراء اولا وقبل كل شيء ، وخلق السوق الملائمة • ونعتقد ان حركة التثقيف الشعبي التى اشرنا الى كبريات خطوطها سوف تكون الدعامة لذلك •

الى ذلك تنضاف جملة من التدابير ، بعضها تم ، وبعضها لا يزال في حيز الدرس • فقد تم انشاء شركة قومية للنشر والتوزيع تضطلع مباشرة بمهمة النشر ، وعنها تتفرع شركتان احداهما للتوزيع (وتضم عددا من اصحاب المكتبات) والاخرى للطباعة • وعندما يتم المشروع ـ ونامل ان يكون ذلك في بحر السنتين القادمتين ـ تزول العقبة الكأداء التى يواجهها المؤلف ، وهي وسائل النشر والطبع والتوزيع ، وهي التى كبلت ايدى النخبة في بلادنا منذ امد بعيد •

ولضمان حقوق التاليف سنصدر في القريب العاجل قانونا متعلقا بحقوق المؤلفين على اختلاف انواعهم • والى جانب ذلك ننوى احداث تشجيع مباشر للمؤلف ، وذلك باعطاء منحة قد تعادل حق التاليف لكل كتاب يوصى بتشجيعه المجلس الاعلى للثقافة • ونحن ـ الى جانب ذلك ـ بصدد درس الوسائل التى من شانها ان تسهل تصدير الكتاب التونسي •

5) ما هو دور المسرح في العمل الثقافي الذى انتم بصدد القيام به ؟ كيف ترون تنظيم المسرح ليقوم بهذه الرسالة ؟

اشرت في مستهل هذا الحديث الى مفهوم الثقافة الذى نميل اليه اليوم وحاولت ان اوضح تنوع ميادين الثقافة العصرية وانها لم تعد مقصورة على الالوان القديمة • من ذلك ان المسرح اصبح ركنا من اركان الثقافة عند الامم المتقدمة • ولقد تسرب الينا هذا النوع من الانتاج الفكرى ولقى استحسانا لما فيه من جمع بين الهزل والجد وبين ما يروق وما يفيد في الوقت نفسه •

وفي مجتمعاتنا العربية الاسلامية ، ينبغى ان نوجه العناية الفائقة الى المسرح لتلقيح النشاط الثقافي وتمكينه من الاضطلاع بالدور الاخلاقي الذى يقوم به في المجتمعات الكبيرة •

ذلك ان الثقافة المحترمة عندنا بقيت القرون الطوال محصورة في الجد والوقار ، مقصورة على معالجة المشاكل الانسانية بالوسائل الجدية اى : الفكرية ـ بالنسبة الى النثر ـ والعاطفية ـ بالنسبة الى الشعر •

فنتج عن ذلك بعد فاحش عن مجابهة مشاكل الانسان والوجود ، وحياء متناه من اماطة اللثام عن دخائل النفوس ، مما اورث كبتا نفسانيا وفنيا في مستوى الشعوب وانواعا من الارتباك النفساني والاجتماعي •

وليس كالمسرح لنشر خبايا النفوس واستعراض بواطن المعضلات الفردية او العائلية او الاجتماعية التى كثيرا ما نغض عنها الطرف حياء او تحاميا

أو نفــاقا ٠

فالمسرح يعد من انجع الوسائل لمعالجة هذه العقد واضاءة النفوس ومداواة الامراض الاجتماعية المنجرة عن عدم مواجهة الامر عند استفحاله والامساك حتى عن الكلام عنه ٠

والمسرح دخيل على ثقافتنا العربية ، ولـم يتم الى اليـوم توطينه بصورة مرضية وهو فى تونس لا يزال متعثرا لان الاركان الثلاثة التى يعتمد عليها ــ التاليف والاطارات والجمهور ــ تتصف بالقلة والضعف معا ٠

اما الاطارات فلا نعنى بها الممثلين فقط ، بل جميـع الاختصاصات الفنية التى تحتاج اليها المسرحية لتستقيم وتؤتى ريعها كالاخراج والتاثيث واختراع الملابس وتكييف الملامح واستعمال الاضواء الخ ٠٠ والمسرح التونسى يفتقر الى هذه الاختصاصات جميعـا لاسباب مختلفة نخص بالذكـر منهـا ضعف المستوى الذهنى والاعتماد على القريحة والارتجال والاعراض عن الكد والجهد سواء فى تعلم الادوار او اجراء التماريـن او فى سبـر اغـوار النفسيـات واستنباط ما تقتضيه على وجه الضبط والدقة ٠

نستطيع التغلب على هذه الآفات بطرق شتى منها :

أ ــ ارسال طلبـة لحـذق مختلف هذه الفنون المتصلة بالمســرح ٠ وذلك بشروط منها ان يكون هؤلاء الطلبة من ذوى الثقافتين حتى يحسنـوا فهم ما يتلقونه ــ ويحكموا من بعد استعماله وتطبيقه ــ خاصة فيما يتعلق بالتمثيل والاخراج ، اذ لا يعقل ان يتولى التمثيل ولا الاخـراج من لا يفهم من النص المسرحى الا العموميات السطحية ، ومنها ايضا ان لا يطول تغيبهم حتى لا تنفصم اللحمة التى تربط بينهم وبين البيئة والمجتمـع الذى انبتهم ، تلك اللحمة التى بدونها لا يتم الوفاء لرسالة المسرح ٠ ومن تلـك الشروط ومن اهمها ان يزاولالطلبة دروسا فى الآداب تمكنهم من الحصول على ثقافة عامة ٠

كيف يقع اختيار هؤلاء الطلبة ؟

اعتقد ان ازمة الاطارات راجعـة الى سبب اصلى هو كيفيـة انتداب هــذه الاطــارات ٠

لقد تركنا ذلك ــ الى حد يومنا هذا ــ لحكم الصدف او اجتهاد من اخفق فى ميادين أخرى فالتفت الى المسرح يطلب الرزق ٠

ولن نخرج من هذه الازمة الا اذا حولنا مجرى هذا التيار بان رددنا المسرح الى الهواية الصادقة والاعتماد على المواهب المتأصلة وجعلناه مواكبا للنشاط الثقافى متفرعا عنه ٠

وقد اسلفنا ان المسرح من افضل الوسائل لتثقيف الشعب والمحافظة على

التوازن الاخلاقى والاجتماعى بالاضافة الى انه من اجمل وسائل الترفيه بالنسبة الى الممثل والمشاهد على السواء ٠

لذلك ننوى تشجيع الهواة ومدهم بجميع المساعدات وجعل مسارح دور الشعب تحت طلبهم فى المدن والقرى ٠ وسوف تتولى اللجان الثقافية رعاية هذه المشاريع وتوجيهها والعمل على الرفع من نتائجها ٠

وبصورة اخص نعتزم بالاتفاق مع كتابة الدولة للتربية القومية ان نشجع الجمعيات المسرحية المدرسية والطالبية حتى تكون هى المخبر الذى تمتحن فيه المواهب وتنتقى ، وحتى تصبح الفنون المسرحية من الاختصاصات التى يقبل عليها الطلبة ، عند تخرجهم من المعاهد الثانوية ، بحكم الهواية والمقدرة لا بحكم الفشل فى اعتناق ما قد يعتبر افضل ٠

اما بالنسبة الى الاطارات التى تباشر الآن النشاط المسرحى فى نطاق مؤسسات او جمعيات ـ وريثما تؤتى الارساليات نتائجها ـ فيجب ان يرفع من مستواها بشتى الوسائل العملية الناجعة ٠

بقى دور ما كان يسمى بمدرسة التمثيل ولم يعد الآن الا شعبة من شعب معهد تعليم الموسيقى والرقص ٠ الحقيقة ان انشاء هذا المعهد كان فى ظروف اتسمت بالارتجال والبعد عن معالجة الامور من اساسها ، لذلك فان ازمة الاطارات المسرحية تنعكس فى هيكل هذه المدرسة ويتفاقم امرها لما يتوهم الكثيرون من خريجى المدرسة انهم اكتسبوا الموهبة والدرجة بفضل ما احرزوا عليه من شهادات ٠

ب ـ اما ازمة التاليف فهى طبيعية ايضا بالنسبة الى ثقافة قريبة العهد بالمسرح ولكنها تشعبت بعض الشىء بسبب ما وقعنا فيه من تقليد للمظاهر دون نفاذ الى اللب الذى هو ينبوع الحدث المسرحى وسر روعته واخذه بمجامع القلوب ٠ وعوض ان يكون المسرح عندنا اداة بحث وطلب واستكشاف للمغلقات البشرية والوجدانية تحجر عند بعض الاساليب المنقولة والطرائق المحفوظة وزاغ عن المهمة التى كان يتخذ من اجلها ٠

المشكل مرتبط فى الحقيقة بمسألة نضج الثقافة العربية عامة والمغربية بوجه اخص ، ومدى اقتدار الكتاب والمفكرين عندنا على ان يجعلوا من مشاكل الواقع مادة للفكر والخلق الفنى ٠

وقد يكون من المفيد ، للتعجيل بهذا النضج ، ان نعمد الى الترجمة والاحتذاء حتى نهيىء بعض الدعائم ويتخرج كتابنا على اساطين الفن ٠ لذلك سنتخذ جملة من التدابير لتشجيع حركة الترجمة والاقتباس ٠

ج ـ اما الجمهور فمتألف فى اغلبيته من الطبقات الشعبية ـ لاعراض النخبة عادة عن المسرح العربى ـ فالمسرحية لديه و « العوادة » سيان ، يطلب من

الاولى ما يطلبه من الثانية : ان تكون فرصة من فرص « الخروج » و « الالتقاء » و « الشيخة » بشيء غير قليل من الضجيج والضحك والعراك ٠

وانا لنجد انفسنا امام دائرة مفرغة : النخبة تعرض عن المسرح لتفاهته ، والمسرح تافه لضعف التأليف من جهة اى لعجز النخبة فى الواقع ، ومن جهة اخرى لان القائمين عليه يجارون الطبقات الشعبية ويقصدون الى الكسب الرخيص ٠ وما دامت الجماهير الشعبية على مستواها الحالى من الجهل وقلة التثقف لن نستطيع ان ننهض بالمسرح نهضة صحيحة ، كل هذه العناصر متماسكة ٠ ولذلك تصدت الحكومة لمقاومة الامية ونشر الوعى الثقافى وجعل التعليم الابتدائي جبريا ونشر التعليم من أقصى الجمهورية الى اقصاها ، كل ذلك معا وفى الوقت نفسه ٠ وفى ثمرة هذه الجهود حل المشكل الثقافى ، بل جميع المشاكل الثقافية ٠

6) ان حاجة المسرح للاطارات والمرشدين كثيرة ٠ فما هى التدابير التى اتخذتموها لتكوين هذه الاطارات ٠ ومن جهة اخرى هل فكرتم فى ايجاد قاعات كافية عددا ونوعا لنشر التمثيل فى عموم الجمهورية ؟

قد اجبت عن نواح من هذا السؤال لما اجبت عن السؤال السابق ٠ ولكنى أريد ان أعود الى موضوع هواة المسرح ٠

فلتمكينهم من القيام بهوايتهم على وجه مرضى سوف نرسل منشطين مسرحيين الى بعض الجهات كى يعملوا على توجيه الجمعيات المحلية ومساعدتها فى اطوارها الاولى وسنعقد دورات سنوية ندعو اليها عددا من رجال المسرح الهواة لدرس شؤون المسرح ومشاكله التطبيقية بمساعدة خبراء واساتذة ٠

ومن اسباب التنشيط والارشاد ان نقيم شبكة من المبادلات المسرحية فى نطاق الجمهورية قاطبة وان نمكن الحركات الجهوية من الاستفادة بما يجرى فى المدن الكبيرة ٠ لذلك سنتخذ التدابير اللازمة لتمكين اللجان الثقافية من اقامة هذه المبادلات ولتمكين كبريات الفرق من التنقل بانتظام ٠

7) يظهر ان السينما بالنسبة لكتابة الدولة للثقافة قاصرة الجهد على الاخبار والاشرطة القصيرة ، فهل تفكرون فى توسيع نطاقها باعداد اشرطة تساهم فى التثقيف بصورة مباشرة ؟

للسينما فى عصرنا دور عظيم فى جميع البلدان وبالاخص فى المجتمعات المتخلفة التى ترتفع فيها نسبة الامية ، لانها تمتاز بنجاعة خاصة فى التبليغ بفضل ما يجتمع فيها من لفظ وصور ٠

ونحن نعلق على السينما آمالا جساما بأعتبارها اداة اخبار وتثقيف معا ٠ وسوف نستعملها فى وجوه متعددة وفى مستويات مختلفة ٠

فهناك اولا الشريط الاخبارى الاسبوعى الذى نحاول ان يكون مرآة لجهود الامة خلال سبعة ايام • ونسعى جهدنا الى جعل هذا الشريط عاريا من اساليب الدعاية الجوفاء ، آخذا باساليب الاخبار الصحيحة التى ترمى الى ايقاظ الهمم وتنمية الوعى ـ سياسيا كان او اجتماعيا او ثقافيا على السواء ـ كذلك سنغتنم جميع الفرص لانتاج اشرطة تختص ببحث احد المواضيع او المشاكل التى تشغل الامة فى وقت ما (كالتعاضديات ووحدات الانتاج الفلاحى وتحوير التعليم والجهاز الصحى الخ ...)

وعلاوة على ذلك ، ستضطلع شركة الانتاج السنمائى بتنفيذ برنامج طويل المدى يهدف الى اعداد جملة من الاشرطة الاجتماعية والثقافية •

ونظرا الى ان امكانياتنا فى الانتاج بطبيعة الحال محدودة فانه لا بد من الاستعانة باشرطة غير تونسية ، سواء فى ذلك الآتية من بلاد العرب ـ ويمكن اقامة شبكة من المبادلات بين جميع البلدان العربية المهتمة بالتربية الاجتماعية ـ او الواردة من بلدان اجنبية ـ وقد شرعنا فى تعريب البعض منها•

الى جانب هذه الحركة الخاصة بتثقيف الجماهير ، نود ان تقدم السينما للاطفال والشبان غذاء فكريا وروحيا •

اما الاطفال فستخصص لهم حصص سينمائية صباح ايام الاحد يشاهدون فيها افلاما متنوعة يقع انتخابها بكامل العناية •

واما الشبان فسنمكنهم من مشاهدة روائع السينما القديمة والحديثة وذلك فى القاعات التابعة للجان الثقافة وباسعار منخفضة جدا •

بقى ان اشير الى ان كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار تعتزم بالاتفاق مع الدوائر التى يهمها الامر ، ان تحور القانون المتعلق بلجنة الاطلاع على الافلام • واهداف هذا التحوير رفع مستواها ، واشتراط كفاءات ثقافية فى اعضائها وتوسيعها الى غير الدوائر الرسمية من المعنيين بالسينما وبتأثيراتها الاجتماعية : جمعيات السينما ، نقاد سينمائيون ، المنظمات القومية ، وخاصة منظمات الشباب •

واعتقد ان مهمة هذه اللجنة لن تكون سلبية بالدفاع عن الاخلاق المتزمتة والطرق المعبدة ، وانها ستكون مجالا لتبادل الراى بكامل الحرية وكامل الجرأة حتى نتمكن نحن من ان نقدم الى الجمهور ـ الى كل صنف من اصناف الجمهور ـ الغذاء الصحيح والمتعة الصافية •

8) ان اهتمامكم بالفنون الشعبية أتى بنتيجته سريعا فهل لكم ان تبينوا لقراء « الفكر » الطريقة التى اتبعتموها لابراز ما لنا من تراث فى هذه الناحية ؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال مباشرة اود ان احلل مفهوم الفنون الشعبية ، والاسباب التى دعتنا الى العناية بها والحث على احيائها والاحتفال بها • فلقد اساء بعضهم فهم الغاية التى اليها نقصد، فعمدوا الى احياء ترهات ما أنزل الله بها من سلطان ، هى الى التهور والانحطاط اقرب منها الى الفنون الشعبية •

فنحن نعتقد ان الفنون الشعبية لون من الثقافة ، ولربما كانت اساس الثقافات القومية ، تسبغ عليها من الوانها وتنفخ فيها من روحها وتكسبها الطابع الذى به تمتاز ثقافة شعب من الشعوب عن سائر الثقافات • ذلك ان هذه الفنون الشعبية مرآة لنزعات الشعب واتواقه ، تعبر عن طباعه واخلاقه ، وتحكى تقاليده واعياده •

وهى تنتسب الى الثقافة ، ولا تختلف عنها فى الجوهر ان هى اختلفت احيانا فى الاسلوب والطرائق ودرجة التهذيب • فلئن كانت الثقافة عملا ياتيه الانسان حرا مختارا وبه يعبر عن كيفية اتصاله بغيره وبالعالم وبالغيب شتى التعابير ، فالفنون الشعبية ـ شعرا كانت او غناء او رقصا ـ تعبر بافصاح عن خلجات الانسان والنحو الجمالى أو الاخلاقى الذى عليه يعيش الانسان صلته بسواه •

ولكن ظروف العيش وعوامل التقهقر والتخلف الذهنى تضافرت لتطفىء من جذوة هذه الفنون وتحجرها ثم تبيدها وتجعلها نسيا منسيا ، فى كثير من الجهات ، حتى اصبح البشر ـ لفرط ما وصل اليه من بؤس وجهل ـ كالارض البلقع الصفصف وقد لفحتها الشموس وجردتها الرياح من كل خصب • فاذا الانسان عاجز حتى عن طلب المرح •

لذلك نعتقد ان احياء الفنون الشعبية ذود عن الروح ان يموت فتبقى هذه الجماهير عزلاء تجاه الحياة العصرية وانقلاباتها الشديدة ، فتطغى المادة على الانسان وتتقمص القيم التى بها شرفه وعزته وقوته اولا وآخرا •

ونعتقد أن هذا البعث يمهد للثقافة ، ويعد الطبقات الناشئة لتذوق الجمال ويهيىء النفوس للتفتح وقبول الصقل والتهذيب وهو فى الحقيقة ما يسمى بالتثقيف الذى نسعى اليه لتتوفر شروط الكرامة لدى المواطنين جميعا •

لكل هذه الاسباب عمدنا الى احياء الادب الشعبى والفلكلور بانواعه ، ونادينا بضرورة الجمع والتهذيب والاحياء • وألقينا مسؤولية ذلك على السلط المحلية وعلى اللجان الثقافية بوجه اخص • وطلبنا منهم ان ينشروا التقاليد الفلكلورية وان يدعوا الناس الى التبارى فيها ، ونحن نعلم ان هذا الاحياء لن ياتى بالنتيجة المرجوة ـ اى رفع المستوى الذهنى والروحى ـ الا اذا اقترن بسعى الى التهذيب والصقل • لذلك نرى ضرورة تدخل الخبراء

ـ في الموسيقى او الغناء او الرقص ـ للتوجيه والتنسيق • وقد شرعنا في ذلك بالنسبة الى بعض الجهات وفي عزمنا ان نكون بعض المرشدين لتكليفهم بمهمة التنشيط والتهذيب في الولايات •

9) وفي هذا الصدد ونظرا للنجاح الباهر الذي كلل به مهرجان المرجان هل لكم ان تعددوا لقرائنا « معاني » هذا المهرجان وما تنوون القيام به في السنة المقبلة في هذا الميدان ؟

من برنامجنا ان يشجع على عقد مباريات فولكلورية جهوية تختم كل سنة باصطفاء نخبة في المستوى القومي • ولتحريك الجماهير ودفعها بقوة في هذا الاتجاه اقامت كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار مهرجان الفنون الشعبية الذي انعقد بمدينة طبرقة في الصيف الماضي تحت شعار عيد المرجان •

ويجب ان اعترف ان هذا المهرجان كان لـه الفضل في لفت الانظار الى المشكل•اما بالنسبة الى المحتوى فيعتبر محاولة احصاء واستعراض لامكانياتنا الفولكلورية ، لا غير • والعمل الحقيقي يبدأ الآن لاعداد المهرجان القادم •

على انا اردنا من السنة الاولى فتح النافذة على العالم الخارجي لاعتقادنا ان تجارب اشقائنا واصدقائنا قد تفيدنا ، ولاعتقادنا ايضاً ان العمل الثقافي يجب ان يتسم بالشمول ويتجاوز حدود القوميات واللغات •

وقد لبت دعوتنا في هذه السنة الجمهوريتان السورية والسودانية ، وشاهدنا ما وصل اليه اخواننا في سوريا بعد تجربة لم تتجاوز السنتين ـ على ما نعلم ـ • وشاهدنا كذلك الوانا من الفولكلور السوداني ومدى تجاوب الجماهير الشعبية معه •

ولئن لم يلب اخوان كثيرون الدعوة التي وجهت اليهم ، لعدم انصراف الاهتمام عندهم الى هذا الميدان ـ غالبا ـ فاني اعتقد ان البادرة التونسية سوف تنشط جهودهم • ونرجو ان يتسع عدد المشاركين في السنة المقبلة حتى تتم عملية التلاقح والتئاخي التي هي عماد الصفاء والمحبة بين الشعوب •

أملنا وطيد في ان تكون تونس قادرة بعد مدة غير طويلة على المشاركة في مهرجانات دولية ، اذ نحن نعمل الآن على ايجاد فرقة للفنون الشعبية متالفة من عناصر فتية نظيفة يتولى خبراء من ذوي الكفاءة تعليمهم وتدريبهم •

10) واخيرا هل لكم سيدي كاتب الدولة ان تبدوا رايكم في منزلة الاديب في هذه الديار وفيما يمكن ان ينجز للاخذ بيده والتقدم بالادب التونسي خطوات الى الامام ؟

قد يخيل الى الناظر في اوضاعنا ان منزلة الاديب ـ المفكر المؤلف ـ قد

تضاءلت منذ أن حصلنا على استقلالنا واعلنا حرباً منظمةً على التخلف الاجتماعي والاقتصادي ٠

وصحيح ان دور الادب كان اكثر ظهورا وبروزا قبل الاستقلال ، اذ كان الخنق الاستعماري لا يترك لنا من سبيل للتعبير عن كياننا غير الطرق الادبية٠ وصحيح انا الآن اهتدينا الى طرق اخرى اكثر نجاعة في التعبير عن الذاتية كبناء المجتمع الجديد وتركيز العدالة على اسس اجتماعية واقتصادية ، والقضاء على الجهل واسباب الانحطاط ٠

ولكن ، هل معنى ذلك ان منزلة الاديب قد حقرت او فقدت من اهميتها ؟ وقد اشرنا في الجواب عن السؤال السابق الى ان النمو الاقتصادي والفني يحتم علينا ان نحتاط له حتى لا يتم على حساب الشخصية الفردية والذاتية الاجتماعية ٠

فالاشتراكية التونسية مبدؤها الاساسي تحقيق النمو الكامل لجميع القوى والقضاء على اختلال التوازن مهما يكن نوعه ٠

لذلك نعتقد ان رسالة الاديب لا تزال قائمة ، بل هي قد ازدادت اهمية اذ اصبحت صنو الرسالة التقدمية وفرعا من النهضة الشاملة التي نروم تحقيقها٠

ولن نبني الثقافة المغربية التي اشرت اليها في مستهل هذا الحديث الا اذا نشطت الهمم وتنفست الاريحية الحق٠

اما الاخذ بيد الاديب فلا اظن ـ بعد البيانات التي سلفت ـ ان هذا السؤال هو الذي يجب ان يطرح بل ينبغي التساؤل عما اذا كان الاديب في هذه الربوع قادرا على تحمل رسالته وعلى الصعود الى مستوى التاريخ ؟

الشاذلي القليبي



منزلة الكاتب

بقلم : محمد مزالي

ان قصة * « الدكتور جيفاغو » وما اكتنف ظروف نشرها من ملابسات لفتت أنظار الادباء وأصحاب القلم في بلدان كثيرة - وخاصة في البلدان غير الخاضعة لمنطقة النفوذ السوفيتية - الى شخصية مؤلفها بوريس بسترناك وحملتهم على الوقوف عند هذا الاثر الادبي الذي لم يتح له الظهور بروسيا ، وتبين ما قد يلقيه من أضواء على الادب الروسي المعاصر وتطوراته . لكن هذا الاهتمام وهذا التطلع تضاعفا بعد أن أسندت الاكادمية السويدية جائزة «نوبل» لهذه السنة الى صاحب القصة ، لا تقديرا لهذا التأليف بالذات بل اكبارا للاديب الروسي الفذ والشاعر الرقيق ، واعظاما لمجموع مؤلفاته التي لا يعرفها الا الواحد بعد الواحد من المثقفين في الغرب عامة. فلما وقفت السلطات الروسية وخاصة الاوساط الثقافية في موسكو من «بسترناك» موقفا عدائيا وضغطت عليه بحيث رفض الجائزة بعد أن ابرق يشكر الهيئة التي شرفته بمنحه اياها انتقل اهتمام جمهور الكتاب والمثقفين الى النظر في منزلة الكاتب بروسيا خاصة وبمنزلته على العموم حيثما كان ؛ وهذا ما نود ان نتعرض اليه بايجاز خدمة للادب وحرصا على توضيح السبيل الى الناشئين من الادباء في هذه البلاد.

ولعل ذلك لا يتأتى حتى نقدم للقراء - وخاصة الى ذوي اللسان الواحد الذين لم يتمكنوا من تتبع اطوار القضية في المجلات الاعجمية اللسان - شخصية مؤلف « الدكتور جيفاغو » ونذكرهم بماهية القضية وبأهم معطياتها ..

* * *

* انظر الفكر السنة 4 ص 202

ولد بوريس بسترناك بموسكو سنة 1890 من أب كان يحترف تدريس الرسم بمدرسة الفنون الجميلة ويبدع في رسم اللوحات الزيتية ، وأم تهوى الموسيقى وتحذقها علما وفنا ، فنشأ في هذا الوسط الذي اتاح له ان يرهف حسه ويصقل مواهبه ويثري تجربته ويوسع ثقافته ويتعرف الى كبار الفنانين والادباء ويتعاطف معهم ويستمد منهم ، ومن أشهرهم وأخلصهم لابيه الروائي الكبير « تلستوي » صاحب « الحرب والسلم ».

وما ان بلغ سن المراهقة حتى سافر الى برلين عاصمة المانيا صحبة عائلته ثم زاول تعلمه العالي بموسكو ثم ببرلين وبعد ذلك شرع في السفر الى أقطار أجنبية اخرى فزار فرنسا وايطاليا وتزوج من ايطالية وسرعان ما ظهرت ملكته الادبية وقد تأثر بالشاعر «بلوك» احد رفقائه في الشباب وكذلك بالشاعر الالماني « ريلك » فكانت اول محاولة ادبية قام بها ترجمة لقصيدة « غوتا » التي بعنوان « الاسرار الخفية » ثم سكنه شيطان الشعر فنظم منذ سنة 1913 وكانت اول مجموعة له بعنوان « توأم في السحب » وتواصل انتاجه الشعري ـ الغنائي خاصة ـ فيما بين سنتي 1919 و1925 فنشر « وراء الحواجز » و « أختي الحياة » و « مطالب وتغيرات » ونظم قصائد كثيرة تغنى فيها بثورة 1905.

فلفت بذلك الانظار وتبوأ مكانة مرموقة في دنيا الادب ببلاده واخذ الشباب الروسي يتغنى بشعره ولما نشر كتاب « ميلاد ثان » سنة 1932 اهتمت السلط بامره حتى اذا ما اخرج للناس سنة 1934 «قصة» صودر هذا التاليف وسحب من المكتبات فآثر بسترناك الصمت وانصرف عن الشعر والادب الانشائي عامة الى النقل فترجم الى الروسية أهم آثار « شكسبير » و « غوتا » و « ريلك » وقد تمكن بفضل الترجمة من كسب القوت والتمتع بمنزل في « قرية الكتاب » في أحواز موسكو ولايزال الى اليوم مقيما هناك صحبة زوجته وابنه .

وبعد موت « ستالين » خفت وطأة الضغط المسلط على حرية الفكر عامة وحرية الاديب خاصة ففاضت قريحة بسترناك وقد طال كبتها فنشر سنة 1954 في مجلة «العَلَم» الصادرة بمدينة لينينغراد عشر قصائد أثارت اعجاب القراء ورددها الشباب المتعلم

وفي سنة 1956 عرض قصة « الدكتور جيفاغو » على الرقابة التي لايمكن طبع اي سطر ولا نشر اي كتاب من دون موافقتها وفي انتظار « التأشيرة » سلم نسخة مخطوطة الى ناشر ايطالي الجنسية شيوعي المذهب يدعى « فيلترينلي » فظهرت القصة في ايطاليا باللغة الايطالية ثم فرنسا باللغة الفرنسية ثم نشرت بانقلتيرا فألمانيا . على هذا النحو عرف الادباء في كل مكان بسترناك وأقبلوا على قراءة قصته الطويلة محللين مستفسيرين معلقين ، ولم يتح لهذه القصة ان تنشر بموسكو الى اليوم

فلما منحت الاكادمية السويدية جائزة نوبل لبسترناك تلقت منه يوم 24 اكتوبر الماضي ردا ضمنه شكره واستعداده للقدوم الى « ستوكهلم » لتسلم الجائزة (1) ،وفي نفس اليوم بدأت «المجلة الادبية» (Literatournaia Gaseta) وهي لسان حال المنظمة الحكومية « جمعية الكتاب السوفياتيين » تهاجم صاحب « الدكتور جيفاغو » وتوالي اتهاماتها الى يوم 28 اكتوبر حيث قررت الجمعية المذكورة رفت بسترناك بتهمة « الخيانة » وفي يوم 29 أكتوبر صرح الكاتب العام للشبيبة الشيوعية السيد « سميتشاستني » بان « سلوك بسترناك اوسخ من سلوك الخنزير » وحينئذ اعلن المتهم انه يرفض جائزة نوبل فسجلت الاكادمية هذا الرفض يوم 30 اكتوبر . وتوالت الهجومات عنيفة لا ترحم ، وفي غرة نوفمبر وجه بسترناك رسالة الى خروتشوف رئس الحكومة يرجوه فيها ان يرحمه وان يمكنه من قضاء بقية حياته في ارضه قائلا : « ان طردي خارج حدود الوطن معناه ـ عندي ـ الموت ! ».

تلك هي حياة بسترناك وتلك اهم معطيات هذه القضية التي اثارتها قصة « الدكتور جيفاغو » وابرز خطوط تطوراتها رايت من الضروري تذكير القراء بها قبل التصدي الى علاج جوهر المشكلة اي منزلة الكاتب في هذا الوجود.

* * *

وقبل كل شيء اود ان ارفع التباسا قد يكون حصل في ذهن بعض القراء

(1)نشرت مجلة « الاكسبريس» الفرنسية في عدد 30 اكتوبر صورا شمسية تمثل بسترناك يقرأ البرقية التي تعلمه بانه فاز بجائزة نوبل والبشر يعلو محياه وتمثله ايضا في حفل عائلي اقيم بهذه المناسبة تلقى اثناءه تهاني اصدقائه.

فاني لا أريد من ذكر ما تقدم التشهير بالاضطهاد المسلط على المفكرين في البلدان الشيوعية وفضح استهتار القوم بحرمة الفكر وازدرائهم بحرية الرأي. لان ذلك ليس موضوع المقال اولا وثانيا لاني لا أريد تنزيه الغرب في هذا الصدد والمفاضلة بين جحيم الشيوعية وجنة الرأسمالية! فاذا كان المفكر مكبوتا في البلاد الشيوعية والتوجيه صارما قاسيا والادباء في منزلة الموظفين الرسميين تنفق عليهم الدولة مقابل افراز الادب وصناعة الفكر، فان زملاءهم في البلاد غير الشيوعية - سواء كانوا في امريكا او اروبا او افريقيا او آسيا - يتمتعون في اكثر الاحيان - بحرية لفظية كاذبة خادعة، ويصطدمون بعقبات نفسية اجتماعية واقتصادية كثيرا ما تزيغ بهم عن القصد وتفسد عليهم حياتهم وتحول دون تبليغ رسالتهم على الوجه الاكمل.

ومن السخرية المرة ان يبادر بعض كتاب الغرب بتوجيه برقيات التاييد والتضامن لبسترناك وبالاحتجاج على المعاملة القاسية التي تعامله بها السلط السوفياتية باسم الحرية والقيم العليا وحرمة الانسان الفرد بينما هم لا يحركون ساكنا اذا داست حكوماتهم هذه المبادىء المقدسة ويسكتون امام حروب الابادة كالتي تجري رحاها في الجزائر منذ اربعة سنين خلت حيث تضطهد لا حرية فرد فحسب بل ثقافة امة ويمسخ تراث قوم وتنتهك اعراض ملايين من البشر، ويكفيني برهانا على ما أشير اليه اذا ذكرت ان من بين الممضين في احدى تلك البرقيات عضوا «بارزا» في الاكادمية الفرنسية اعني «المرشال جوان» الذي كانت «البطة المغلولة» تطلق عليه أيام كان مقيما عاما لفرنسا في المغرب - اسم «المارشال مارس (!)».

والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها والاعلان عنها هي ان القوم - سواء كانوا في هذا المعسكر او في ذاك - ايديهم قذرة ملطخة وضمائرهم قلقة ومسؤولياتهم متجانسة.

فاذا كان ذلك كذلك وجب ان نجتنب الوقوع في ضرب من ضروب الحرب الباردة واغتنام قضية «الدكتور جيفاغو» للتشهير باساليب روسيا في معاملة الادباء - كما فعل كتاب ونقاد كثيرون في الغرب - وانما الذي يحسن ان نعالجه ونحلله هو منزلة الكاتب على العموم وموقف الجماعة ازاء الخلق الادبي والابداع الفني.

واول ما يجدر تقريره هوان الكاتب مسؤول (1) عما يكتبه وعما يسكت عنه لانه فرد من جماعة، في حدودها القومية الضيقة او في حدود الانسانية الشاسعة، ولانه بقدر ما يتأثر بهذه الجماعة ويتجاوب معها ويستمد منها ويستوحيها يؤثر فيها عاجلا ام آجلا، ما دام للكلمة مفعول ولومضة الفكر رسالة. ولايمكن ان يكون للمجانية معنى خصوصا في عصرنا هذا حيث يسرت العلاقة بين الكاتب و القراء اي بين أداة الارسال واداة التلقي ونقصت العقبات التي كانت تعترض سبيل النشر والتوزيع، وارتفع مستوى الثقافة العام وانتشر التعليم .. وان «اندري جيد» الذي تنسب اليه المجانية في الادب كان ملتزما خدمة البشرية في ابعد أبعادها ومضطلعا بهموم الحياة واعباء الوجود - ألم يقل في آخر حياته عن لسان «تيزي» «اني - عن طيب نفس - اقترب من الموت، متوحدا. ذلك اني تمتعت بخيرات الارض، وانه ليلذ لي ان اتصور أن الناس، بفضل جهودي، سيجدون نفوسهم اكبر سعادة وافضل حالا واكثر حرية. لخير الانسانية الآجلة قدمت اعمالي؛ لقد قضيت نحبي».

فاذا خرج الاديب من طور السفاهة الى طور الرشد وشعر بمسؤوليته وادرك جنس التضامن الذي يربطه ببيئته وعصره هل من واجبه بعد ذلك ان يتلقى التوجيه من المجتمع وينتظر التعليمات من معاصريه ويعرف قيوده فلا يحاول تجاوزها؟ هل نستند الى «تكليف» الكاتب لنضع حدودا عقائدية او فلسفية او اقتصادية سياسية لنشاطه العقلي وعمله الادبي؟

الحق ان «تسخير» الكاتب هو شر ما يهدد الادب الاصيل وينزل به الى مستوى الدعاية المحدودة الغرض المتصلة بالملابسات العارضة والظروف المتبدلة الزائلة.

الاثر الادبي فلذة يقتطعها الكاتب من نفسه وومضة من ومضات حدسه الوجودي وفيض من انسانيته الكاملة، هوخلق تتمخض عنه اعماق

(1) انظر ما كتبته في هذا الصدد حول مسؤولية الكاتب في مجلة «الندوة» (جانفي وفيفري 1954).

النفس المرتجة وتجود به التجربة الذاتية الحية بعد معاناة ومحنة ، يكسوه الفن بجلاله ويصبغ عليه من سحره ، فاذا هو الخلود واذا الاجيال تعود اليه وتستمد منه وتتجدد به. ولم تزل البشرية تخطو الى الامام بفضل ما انتجه شعراؤها ومفكروها وفنانوها على وجه الدهر.

ومن يستقرىء التاريخ منذ مأساة سقراط يلاحظ انه لا يكاد يمر عصر او قرن لا يتنكر فيه المجتمع لاحد عباقرته فيقاوم انتاجه باللامبالاة او بالضغط او حتى بالزجر ، فما يلبث ان يقبل الجيل الصاعد على ما نبذه الجيل السابق ويستحسن ويتذوق ما استهجنه ومجه الاولون . فكأن حجاب المعاصرة يحول دون سبر اغوار الاثر الادبيّ « الجديد » واستقصائه والتفطن الى ما قد ينطوي عليه من طرافة وما قد يمهد اليه من اسباب المستقبل ،او كأن كل جيل من الاجيال فطر على الكسل العقلي بحيث لا يستسيغ الجديد الذي قد يغير من النظرة المألوفة الى الحياة ويعوض القيم الموروثة ويقلقل الوجود العادي ، ويذهب بالطمأنينة واليقين. أليس في ذلك ما يدعو الى التواضع ازاء الخلق الادبي والى حد ادنى من الحياء نحو الكاتب الذي يستشرف مالا يخطر على بال معاصريه ، بفضل احساسه المرهف وبصيرته النافذة وقلبه الكبير (1) وتجربته العميقة ؟ قد يكون من الصلف او من ضيق النظر اذن ان نصدر حكمنا على هذا الاثر او ذاك بانه يخدم او لا يخدم هذه القضية او تلك ، بانه ينسجم مع هذه الفلسفة او تلك العقيدة ام هو لا ينسجم ومعنى ذلك ان الكاتب وان كان مسؤولا امام التاريخ فهو حر في عملية الخلق والابداع ولا تحتمل حريته اي حد او قيد ، فهي كاملةمطلقة او لا تكون.

* * *

فاذا رجعنا الى قضية « بسترناك » عرفنا الى اي حد يستهدف موقف السلط السوفياتية ، وخاصة رجال الفكر هناك ، النقد ويتعرض الى القدح . فهذا كاتب شاعر عاش ما يقرب من سبعين سنة في بلاده يستوحي عبقريتها

---

(1) اذكر في هذا الصدد بيت ابيّ القاسم الشابي :
يا قلب كم فيك من دنيا محجبّة　　كأنها حين يبدو فجرها إرَمُ

ويتعاطف مع طبيعتها ويتغنى بمجيد تراثها وزاهر مستقبلها ، عايش الثورة الكبرى وتفاعل بما حملته من مبادىء واشاعته من قيم . يكتب قصة طويلة يودعها الى جانب سحر الفن وروعة العبارة حاصل تجربته وزبدة تاملاته وهوفي خريف العمر ، كأنه يريد « ان يقول كلمته قبل ان يمشي » واذا بالمسؤولين عن الفكر والثقافة في بلاده يرفضون نشر هذه القصة ويحولون دون حكم المعاصرين والاجيال المقبلة عليها او لها : يقولون ان القصة لا تخدم الماركسية الاشتراكية وانها لا تخلو من حكم قاس على الثورة ونتائجها واذا سلمنا بان الكاتب كغيره من المواطنين في الدولةالشيوعية شغال آلته العقل وان للدولة عليه ان يكون انتاجه صالحا مرضيا فمن ذا الذي يدعي انه يملك المعيار الصحيح الذي يمكنه به تبين الصالح من الطالح والجوهري من العرضي ؟ واذا ميزنا العمل الفلاحي او الصناعي فما هي حجتنا في ما نصدره من احكام على ما لا يخضع للكم ولا يانس بالارقام ولا يبقى في حدود المكان والزمان ؟

وقد اكدماركس نفسه في اكثر من موضع ان الادب غايته ذاته وانه لا يمكن تسخيره ودعا الى حرية الخلق الفني قائلا سنة 1842 في Gazette Rhénanie مثلا : « الكاتب لا ينظر الى آثاره على أنها واسطة ، فهي غاية في حد ذاتها ولذلك يضحي هذا الكاتب ـ اذا لزم ـ بحياته في سبيل حياتها » .

اما « لينين » أب الثورة الشيوعية ، فكان يتحدث عن « الادب الحزبي » ويرى من اللازم مراقبة الادباء في المجتمع ولكنه كان يميز واضح التمييز بين الرقابة المسلطة على العمال والمزارعين وبين رقابة الادباء . فقد قال في احدى خطبه : « مما لا يقبل المناقشة ان الادب لا يخضع ـ اكثر من اي شيء سواه ـ الى مساواة عددية آلية ، الى سلطان الاغلبية على الاقلية . ومما لا يقبل المناقشة انه يجب ترك المجال واسعا امام التلقائية الفردية ، امام الميول الشخصية ، امام الفكر والخيال ، امام الصيغة والمحتوى » والدليل على ذلك ان لينين كان يعتبر الكاتب الروسي « غوركي » « اكبر كاتب للشغيلة » بالرغم عن انه انضم سنة 1907 الى صفوف اعدائه وانكر سنة 1917 على « البلشفيك » ان يمسكوا بزمام السلطة . لكن « ستالين » هو الذي ضيق على الفكر بعد موت

لينين » وضغط على حرية الادباء فأسس جمعية رسمية لهم وضع على رأسها عيونا له . فما كاد يموت ويستنشق الادباء والمفكرون - ومنهم بوريس يسترناك - نفسا من الحرية حتى شعر « أسنين » و « فاداييف » وهما من ابرز المكلفين بهذه الجمعية بفراغ مهول حولهما فما كان منهما الا ان انتحرا .

ومعنى ذلك ان تشديد المراقبة على اهل القلم ليس مبدأ حتميا من مبادىء الماركسية خصوصا وان «جدلها الباطني» ينتهي الى انها دوما حركة وتطور فاذا صح ذلك فمن احق من الادباء ورجال الفكر باستشراف المستقبل وحدس اتجاه التاريخ وتحريك السواكن وبعث الهمم وقلقلة صروح التقليد والعادات في كل مكان ؟ ان استقراء التاريخ منذ فجر البشرية الى اليوم يفيدنا ان الفكر لم يزل المعول الهدام للنظم البالية، والعصب المحرك لحركة البشرية الدائبة والسوط المسلط على رؤوس الطغاة واعداء المستقبل، والنور الهادي الى طريق السعادة اللامتناهية .

وليس هنا - طبعا - موضع تحليل القصة ومعرفة حظها من خدمة الشيوعية والانسانية ، فهذا بحث قائم بذاته ، واولى الناس به هم المفكرون الشيوعيون . ولكن الذي اردت التنبيه اليه هو ما يحسن ان نكون عليه من تواضع وموضوعية ازاء الأثر الادبي الاصيل مهما كان نوعه ومهما كان جنس كاتبه او لونه او عقيدته . ويكفي هذا الاثر قيمة وصلوحية انه يدعوني الى التفكير ويلح علي في السؤال وينبهني الى غامض النواحي ؛ وهبه لا يحرك ساكنا أفليس من حق الكاتب علينا ان ندع مؤلفه الى التاريخ ليحكم له او عليه حكمه النهائي وان نجتنب اهانة الكاتب والضغط عليه(1) ، هذا الصنمر !... كما يقول « كستلر » كما لو كنا على يقين من اننا نتكلم باسم « اللانهاية » ! ؟ .

* * *

ولو كان الامر لا يتعدى البلدان الشيوعية ولا يتجاوز حدود ما تعانيه منذ بعض سنوات ازمة مذهبية لا نزال نشاهد آثارها في الاستقالات التي يقدمها باطراد كبار المفكرين الشيوعيين في اوروبا وفي ما يؤلفه بعضهم من كتب يوضحون فيها موقفهم المناهض لاتجاه الثورة الشيوعية ولاساليبها مع ثباتهم على الشيوعية كمذهب فلسفي وغاية ومن ابرزهم في فرنسا(كلود روا

---

(1) نذكر القراء في هذا المقام بما قاله في هذا الصدد سنة 1942 بقرية جنان رئيس الحزب الشيوعي الصيني حينئذ ورئيس الجمهورية الصينية الشعبية اليوم السيد « ماو تسي تونغ » : « لتتفتح جميع الزهرات معا (في روضتنا)

و فركور ولي فيفر ...) ، قلت لو كان الامر كذلك لما عالجنا الموضوع بأكثر مما يستحق . ولكن الامر يتجاوز في الحقيقة هذا النطاق اذ قد تاثر كتاب كثيرون وادباء عديدون في الشرق العربي بهذا النحو من الالتزام الضيق فلم يميزوا بين الالتزام الطبيعي بخدمة البشرية ونشدان القيم وايجاد المحال هذا الالتزام الذي لا يكاد يشذ عنه كاتب اصيل منذ اقدم الحضارات الى اليوم ، وبين التسخير الكلي الذي يمسخ الاديب ويطمس فنه ويخمد جذوته.

هذا الالتباس لاحظت آثاره عندما تشرفت بالمشاركة في اعمال المؤتمر الثالث لادباء العرب الذي انعقد في السنة الفارطة بالقاهرة - فقد ارتفعت اصوات كثيرة تنادي الادباء بخدمة شعارات سياسية بعنوان القومية العربية وتطالبهم بتسخير اقلامهم لفائدة اغراض عاجلة تزول بزوال الملابسات التي اقتضتها وذهب بعضهم الى اتهام الاديب الذي لا يمتثل الى هذا « الواجب» بالخيانة(1) ! كأنه يكفي - مثلا - ان يتناول القصيد « بور سعيد » ليكون شعرا حقا وكأنه يجوز لنا اليوم أن نصدر حكمنا بالاعدام او ان نعتبر خائنا كل شاعر او كاتب ينحو منحى عمرالخيام في رباعياته او أبي العلاء في لزومياته او الجاحظ في بخلائه وحيوانه ! !

ان الاديب مسؤول ولا يكون اصيلا و لا تبقى آثاره على وجه الدهر الا اذا التزم خدمة الانسان. ولكن ليس لاحد ان يوجهه وجهة دون اخرى ويسخره لاجترار شعار دون آخر. لا يمكن ان يكون الاديب موسيقي ينشط العملة عند سماعها اثناء عملهم ويضاعفون انتاجهم ، ولا يمكن ان يكون الادب موضوع مشروع السنوات الخمس او العشر. ان الاديب كالرسام والنحات والموسيقار ملتزم ولكن لا يمكن ان يعرف احد الطريق الواجب سلوكه ، في هذا الميدان ليست العصمة لاحد لان حق الابتكار والتجديد للجميع. ان منزلة الكاتب شاقة حقا لانه قدر عليه - أو له ؟ ان يتمرد على الموجود ويصدم الواقع ويثير المعاصرين ويكشف ويخلق ويبدع ولكنها منزلة مشرفة مقدسة اذ لا يمكنه ان يكون تابعا او منفذا. ان الكاتب لايحتاج في حقيقة الامر الى الحرية لانه هو باعث الحرية ورائدها - انه في جوهره حرية وتحرير

محمد مزالي

(1) هذه التهمة لم يتحاش سعيد العريان لانه يخدم القومية العربية... باخلاص من غير شك ! ! فالصقها بالاستاذ محمود المسعدي تعليقا على محاضرته التي ألقاها في المؤتمر المذكور والتي يجدها القارىء في العدد 4 من السنة الثالثة من مجلة الفكر

في تحوير التعليم

بقلم : أحمد عبد السلام

كاتب هذه الاسطر(*)ممن طالب بتحوير التعليم منذ سنوات وتقدم الى ذوى الحل والعقد بدراسات فى ذلك بعضها قد نشرته المنظمات النقابية التونسية وبعضها بقى فى الملفات تقارير فنية لم يطلع عليها الا المسؤولون ٠ وقد اتيح له اخيرا المشاركة اليومية فى وضع البرامج وتخطيط المناهج ، واشرافه على جزء كبير من تلك الاعمال تتصل به مسؤولية فنية لم يفكر فى التفصى منها ، ومعنى ذلك ان رأيه فيما تم من تحوير قد وقع الادلاء به فى طور البحث والدرس والتحضير ، فلا داعى الى بسطه من جديد فى مقال يضيق عن البراهين الفنية وعن التفاصيل اللازمة فى ميدان لا يكتفى فيه بالاجمال (I) ، وهو مع ذلك لا يريد ان يتقدم باحتجاج لما تم او بضرب من الدفاع اذ يرى ان احسن الادلة على الاصابة فى هذا الميدان انما هو نجاح المناهج المسطرة وبلوغ النتائج المرجوة ، وتلك النتائج لن تظهر الا بعد سنوات عند ما يتم تخريج الاجيال التى تزاول الآن تعلمها فى المدارس الابتدائية ، هذا مع التنبيه الى ان التعليم يعتمد قبل البرامج على كفاءة المعلمين وقدرتهم على بعث المواهب والملكات الكامنة فى تلامذتهم ٠



لكن ان بدا اليوم من الصعب الحكم بصورة باتة فى التفاصيل الفنية فان للتحوير الاخير اصولا يبدو من المفيد ايضاحها لانها تحتجب احيانا عن الباحثين فى حاضر تعليمنا ٠

(*) انظر الفكر السنة 4 ــ ص 304 (1959) ٠

(I) ان الاعتبارات الفنية قد بسطت فى ما حررته من مقدمات لبرامج التعليم نشرت مع البرامج الجديدة ٠

واول ما ينبغي ادراكه في هذا الصدد ان مشاكل التعليم ليست فنية صرفة بل هي متصلة بالثقافة القومية اي بوضع الامة وباتجاهها او في عبارة اخرى يجب ان يتفق التعليم مع حاضر الامـة بما فيه من آثار الماضي ومن تكييف للمستقبـل .

ويبدو لنا ان الامة التونسية لها اليوم نظرة الى الماضي والحاضر والمستقبل وتوافق ما قلناه عند ما تعرضنا لدراسة التاريخ وملخص ذلك : « ان الحاضر انما هو صدى لماض زاخر بافراح الانسان واتراحه ومجهوداته وآلامه ، وان التاريخ يساعد الانسان على ان يعيش في حاضره مفكرا في المستقبل مشاركا في تكييف ذلك المستقبل ضامـا مجهوداته وافـراحه وآلامـه الى مجهـودات مواطنيه وافراحهم وآلامهم والى مجهودات بني الانسان جميعهم فيكون فهمـه لتحول الزمان ولتطور أمته وتطور الانسانية فهم الانسان العـامل النـاشط وينمو شعوره الوطني ووعيه المدني مسايرين لنمو شخصيته وبذلك يسلـم من التعصب والتطرف » .

وعندي ان هذه النظرة الى الماضي واحترامه والى الحاضر وواجباته يجب ان نحافظ عليها وان نؤيدها وندعمها حتى تزداد سعة وفاعلية وينبغي ان نربي الشباب على الاستفادة منها لانها وحدها الكفيلة ببعث النشاط والاقبال على العمل والرغبة في التقدم ، ولا يجوز لامة ما في اي طور من اطـوار حياتها ـ وخاصة في المرحلة التي تقتطعها اليوم أمتنا ـ ان تكتفي بفخر الآباء والاجداد وان تعرض عن مستقبلها فتبدو بين الامم مولية متقهقرة .

والطامة الكبرى والبلية العظمى ان تكـون الامـة « متخلفـة » اقتصاديـا واجتماعيا وان يثقلها مع ذلك عن السير الشيخوخة وذكريات الماضي .

ومن اوكد ما يمليه حاضر الامة الاهتمام البالغ بنشر التعليـم وتعميمـه لاتصال ذلك التعميم بوضع الدولة الديمقراطية ولانه شرط اساسي لبلوغ ما نصبو اليه من ازدهار اقتصادي واجتماعي ، فتأكد هذا التعميم هو قرين تاكد المشاريع الاقتصـادية اي ان جميع ذلك ينبغي انجـازه في اقـرب الآجـال بالامكانيـات المـالية التي لدينـا فـلا في الميـدان التعليمي ولا في الميـدان الاقتصادي يمكن التراخي او يجوز التبذير .

وان كان لا بد من اعتبار الظروف الاقتصادية والاجتماعية في بناء هيكل تعليمنا وفي الخطط التي نرسمها لتعليمه فالغايات التي نرمي اليها تمـلي ان يكون التعليم في هذا الوطن عصريا فعالا يعيننا على طي المـراحل طيـا حتى نحقق الازدهار ورفع المستوى الفكري والمادي في اقرب الآجال .

وذلك ما ادى الى الاهتمام بالعلوم العصرية وافساح المجال للفنون الحديثة والحرص على تمكين جميع المواهب من النمو على اختلافها وتباينها ، فاتجهت البرامج بفروعها الى موافقة تنوع الكفاءات والميول مع المحافظة التامة على وحدة الاتجاه ، وهى بذلك تضع اسس المجتمع الذى نرتضيه وهو لا يقع التفريق ولا التمييز بين افراده وان اختلفت المهن وميادين النشاط طبقا لاختلاف المواهب ولتنوع المصالح الاجتماعية ٠

والتعليم الصالح هو الذى يحافظ على كيان الامة ووحدتها ويهيء لها مع ذلك الكفاءات التى تحتاج اليها فى جميع الميادين ويقى الافراد من الشلل الناتج عن الجهل وعن عدم اتفاق المناهج مع المواهب ٠

وما البرامج الا خطط نحاول بها اضاءة السبل ، والتعليم قبل ذلك وبعده نشاط بشرى جماعى ، النجاح فيه مناط بمجهودات المربين وبرعاية الامة لتلك المجهودات ٠

أحمد عبد السلام

أثر ابن خلدون في النهضة الفكرية للتاريخ الحديث

بقلم : محمد الفاضل بن عاشور

كان ظهور ابن خلدون* في اواخر القرون الوسطى حدثا له اعتباره الخاص لانه كان من الشخصيات القلائل التي يؤثر ظهورها في مجرى التاريخ تاثيرا جوهريا ينقطع به ذلك الركود الذي يسيطر احيانا على منابع الحياة الفكرية دهرا طويلا فلا يرتفع الا بظهور عبقرية خارقة للعادة تفور بها المنابع الغائرة وينقلب سير المجاري الى تيارات لم تكن تندفع نحوها من قبل .



فقد امتاز ابن خلدون بنزعته الشخصية واسلوبه الذي لم ينسج على منوال سابق . فكان التراث الذي خلفه لنا من علمه وبحثه مشالا موجها للاساليب والنظريات التي استنارت بها عقلية العصور الحديثة

تكون ابن خلدون تكونه الثقافي في القرن الرابع عشر بجامعة تونس الاسلامية الكبرى الزيتونة على الطريقة التي تكون بها امثاله من اعلام الثقافة الاسلامية بالمغرب طريقة ابن رشد التي تقيم التربية العقلية على ثلاث قواعد متوازية - الدين الاسلامي ، والادب العربي ، والفلسفة التعليمية الجديدة ، التي شيدها الفلاسفة المسلمون على أصول فلسفة ارسطو اليونانية ثم ان ما تمكن لابن خلدون من المشاهدات التي يعز تكرر امثالها في التاريخ وما استفاد من تلك المشاهدات من العبر وما اكتشف من دخائل السياسة ومكائد القصور في نظم الحكم التي

(*) انظر الفكر السنة 3 ـ ص 702 .

مارسها بتونس والجزائر و المغرب الاقصى والاندلس قد بعث انتباهه الى ملاحظة الوضع السيء الذي كانت عليه الدول الحاكمة والوضع الاسوإ الذي عليه المجتمع المحكوم. وكلما انتقل من قطر الى قطر رجاء الظفر بالمثال الصالح تبين له بما يجابهه من الخيبة ان نظم الحكم في تلك الاقطار قد كانت من فساد الوضع بحيث لا يفضل بعضها بعضا. هنالك استقر حكمه على ان للدول والمجتمعات صورة مثالية صالحة ينبغي ان يبحث عنها في النطاق الخارج عن واقع عصره. فاتجه الى الصورة الاصلية للحكم الاسلامي الواضحة في ذهنه استمدها من عناصر ثقافية واتخذها بمقتضى يقينه في العقيدة الاسلامية، المثال الاكمل للدول والاضمن لصلاح المجتمعات المحكومة به.

ولما قارن تلك الصورة الواقعية تبين له البون الشاسع بينهما فهاله وكون في نفسه دوافع قوية لسبره وضبط مداه فدفع به ذلك الى اجراء طريقة من التحليل للوضع الاسلامي في ما يرجع الى الدولة والسلطة وحق الحكم ووسيلته وخطط تلك الطريقة التحليلية على مبادىء المنطق في ترتيب المقدمات واستخراج النتائج. ثم قارن بين الصورتين المبدئية والواقعية على قاعدة « القياس الاستثنائي فاتضح له مقدار الاختلاف بينهما مضبوطا محدد المواقع. ودفع به ذلك الى طلب الاسباب التي قضت بالاختلاف فاخذ يصنف مواقع الاختلاف بارجاع بعضها الى بعض واخراج الاوجه الجامعة بينها ويستنبط لكل صنف من اصناف الاختلاف علة كلية مستمدة من استقراء الجزئيات وتعميم الحكم عليها، يشرح بها ان الجزئيات المتكررة ماهي الا مظاهر لقاعدة ناشئة من الطبع الانساني باعتبار مظهره الفردي تارة وباعتبار مظهره الجماعي تارة اخرى حتى صارت تلك القواعد العامة في نظره قوانين طبيعية يسير عليها تطور المجتمعات البشرية من حيث علاقتها بنظام الحكم وتلك القوانين هي التي تتسبب بحسب ملابسات الظروف في اخراج صور التاريخ على نحو ما هي عليه.

وبهذا كانت « القوانين الطبيعية » التي قررها ابن خلدون في مقدمته متولدة عن تفكيره الخاص وبحثه الشخصي لانه لم يتح لاحد قبله ان يدرس المجتمع الانساني على الطريقة التي درسه هو بها من اعتبار صورة مثالية كاملة لا ريب فيها من جهة واعتبار مظاهر واقعية منحرفة عن تلك الصورة من جهة اخرى وتطلب القانون الطبيعي الذي قضى بذلك الانحراف. فجاءت « المقدمة » المتضمنة لتلك القوانين وضعا جديدا مبتكرا من اوضاع الدراسة التاريخية كما شعر هو نفسه بذلك وصرح به في تقديم مقدمته.

وعليه فان ابن خلدون بهذا الصنيع المبتكر يعتبر السابق الى فتح مناهج البحث في حقيقة الاجتماع الانساني وتقرير الاساليب لتعليل التطور التاريخي على طريق لم يطرق قبله. وبفضل ابن خلدون في فتح ذلك الطريق تأتى للعصر الحديث ان يسلك المناهج العلمية التي بدا فيها بروز علم الاجتماع وعلم الايتنوغرافيا وتقدمت عليها المباحث التاريخية والجغرافية. وفوق ذلك كله ازدهار «المنهج» العلمي الذي اختصت به النهضة الفكرية في أوروبا. منذ القرن الخامس عشر واشتد به ساعد الحكمة التجريبية في القرون اللاحقة

واذا كان للقرن التاسع عشر ان يفتخر بظهور علم الاجتماع وبما لامثال «اوغست كومت» و «هربرت سبنسر» من فضل في تقدمه فان فضل اولئك الاعلام مدين لابن خلدون بما وضع بين ايديهم من اصول علم الاجتماع الذي كان هو واضعه الحقيقي.

فليس في آثار الحكمة السابقة لظهور علم الاجتماع على يد اوغست كونت من اثر يتناول موضوع الاجتماع الانساني بطريقة فلسفية غير اربعة كتب - هي كتاب الجمهورية لافلاطون و كتاب السياسة لارسطو طاليس وكتاب آراء اهل المدينة الفاضلة للفارابي والمقدمة لابن خلدون. ولكننا اذا قارنا بين هذه الكتب تبين لنا ان ليس فيها ما يتناول الاجتماع بالبحث عن اصول تكونه وعوامل تطوره ونواميسه الطبيعية غير مقدمة ابن خلدون. فان افلاطون والفارابي قد عنيا بالجهة الاخلاقية المثالية بدون نظر الى الواقع الخارجي. فلم يصفا طبع المجتمع ولم يعللا لماذا كان كذلك ولم يكشفا عن القوانين المقتضية لاختلاف اشكاله واطواره وتفاوت نسبتها قربا وبعدا من المثل الصالح، وارسطوطاليس تناول السلطة الحكمية من مسالك الرشد واسباب النجاح وواجبات الصلاح في طور توجيه تربوي عملي. ولكن الوحيد من بين هؤلاء الذين تناول ماهية الاجتماع وعوامل التوحد الاجتماعي وعلل اختلاف اشكال المجتمعات وتطوراتها بصورة تتلاقى مع الغاية التي توخاها كونت في محاضراته انما هو ابن خلدون وحده حتى ان كلمة الطبيعة الاجتماعية Physique Sociale التي حدد بها اوغست كونت موضوعه، هي عين الكلمة التي اخترعها ابن خلدون ورددها وضبط بها غاية بحوثه «طبيعة العمران»

وان ملاحظة الظروف التي كانت تعيش فيها الحركة الفكرية باروبا في القرن الرابع عشر وما بعده لتدلنا على ان بحوث ابن خلدون الاجتماعية

لم تكن بعيدة عن الاتصال بمجاري التطورات العلمية والادبية ولم ثمر غير مشعور بها . فقد صدرت مقدمة ابن خلدون في العهد الذي كانت فيه المدارس العلمية باروبا شاعرة اتم الشعور بماهية الثقافة الاسلامية ومنبهرة انبهارا عجيبا بتقدم المسلمين في الرياضيات والطبيعيات وبخاصة في الكيميا وكان « رجي بيكن » Roger Bacon قد وجه مدرسة اكسفرد واروبا كلها الى اهمية مذهب ابن رشد في الحكمة التجريبية كما كانت المترجمات الهامة للكتب العربية في الطبيعة والكيمياء و الجبر والفلك قد انتشرت انتشارا وصل بين مسالك التفكير الاسلامي وبين اتجاهات اليقظة العقلية في اروبا زيادة على نشاط حركة الاستعراب وتكاثر عدد المستعربين الذين بداوا يرتادون البلاد الاسلامية وخاصة المغرب العربي للبحث عن شؤونها ، وعلى ما كان من اشتداد حركة النزاع بين الاسلام و النصرانية في اسبانيا وما نتج عن ذلك من تكرر المفاوضات و المهادنات وتبادل السفارات بين قصور الملوك المسلمين في غرناطة وفاس وقصر الملوك المسيحيين في قشتالة . وقد كان ابن خلدون بنفسه متوليا بعض تلك السفارات .

وكل هذا يظهر لنا ان مقدمة ابن خلدون بمجرد بروزها في بلاد الاسلام قد لقيت تيارا قويا من الجاذبية اخذ بها وبما فيها من النظريات نحو الغرب المسيحي فكان ذلك فتحا لابواب من المعرفة وطرقا لمناهج من البحث تاثرت بها النهضة الاوروبية في تطور الاساليب وانتاج القضايا العلمية والنظريات الحكمية بما بدت اثاره في تطور المنهج الجغرافي والمنهج التاريخي وتولد علم الاجتماع ثم تولد علمي طبقات الامم (ايثنوغرافيا) وطبائع الامم (انتروبولوجيا) .

وان ما اصبحت عليه مناهج الدراسات التاريخية الان من اختلاف تام عن مناهجها القديمة حتى في مدلول كلمة « التاريخ » لمرتبط كما كان لابتكارات ابن خلدون في اسلوب الدراسة التاريخية من التأثير في حركة التطور الفكري في القرن الخامس عشر . فقد كان التاريخ قبل ابن خلدون « حكاية وعرضا للاحداث فاصبح عند ابن خلدون نقدا وتمحيصا لدراسة الاخبار واعمالا لطرائق البحث الفلسفي لاستخراج صور الحياة الماضية بالقياس والاستنتاج واستنباط القوانين العامة من مقارنة صور الاحداث. وتلك هي الطريقة التاريخية الجديدة التي بدات تنتشر في اروبا اواخر

القرن الخامس عشر بظهور «ميكافيلي» في ميدان الادب الايطالي ثم ازدهرت واشرقت بعد ذلك بما تعاقب من التطور في القرن السادس عشر والسابع عشر في عامة الاداب الاروبوية حتى ظهر علم التاريخ في صورته الفلسفية الرائعة في القرن الثامن عشر بامثال مونتسكيو حيث اصبح علما ذا دراسة موضوعية وثيقة واتصل بالعلوم التي اصبحت مسائلها مقدمات له ، فصار من جملة «العلوم التجريبية» واتخذ لنفسه هالة من علوم عدة اصبحت «العلوم التابعة للتاريخ» ومن هذا الشكل الجديد الذي اصبح عليه علم التاريخ تولدت نظريات عامة اتخذت قوانين لتعليل الاحداث فاصبحت هي بذاتها مادة لدراسات تطبيقية امتدت بها تلك النظريات على صور الحياة الاجتماعية واطوارها فتولد منها علم الاجتماع في منتصف القرن التاسع عشر. بعد ان ترجمت مقدمة ابن خلدون بنصها الى اللغة الفرنسية وطبعت في باريس سنة 1934 . فان دراسات اوغست كونت التي تعتبر تاسيسا لعلم الاجتماع في صورته الايجابية لم تبرز الا بعد تسعة عشر عاما في سنة 1851 بكتاب «مذهب السياسة الايجابية» Système de Politique Positive

وان الذي يقرأ قول ابن خلدون في نقد مناهج المؤرخين القدماء انها : «حوادث لم تعرف اصولها... محافظين على نقلها وهما او صدقا» ثم عندما يصف طريقته الخاصة بقوله : «ابديت لاولية العمران عللا واسبابا... وسلكت مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا ... شرحت فيه احوال العمران والتمدن وما يعرض في المجتمع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكائنات واسبابها» يتبين له ان هذه الخطة هي التي سار عليها كونت بالضبط وكذلك الذي يرى ابن خلدون يمهد الى الكلام على المجتمع الانساني بتفصيل الجغرافيا ويعلل اختلاف الامم باختلاف طبائع الارض وطبائع الجو وبما بين الابدان والاخلاق من التفاعل يدرك ان ابن خلدون قد وجه علم التاريخ الى اعتناق علم الجغرافيا وشوق الناس الى معرفة الجغرافيا بما حرك فيهم من غريزة التطلع الى معرفة انفسهم. وبذلك صار لعلم الجغرافيا مظهر فلسفي انساني هو الذي ارتفع به الى المنزلة التي بلغها في عصر النهضة وظهر بها علم «الجغرافيا العامة» في المانيا في منتصف القرن السادس عشر.

اما نظريات ابن خلدون في مظاهر الحضارة الفكرية والصناعية وقوانينها وارتباطها بالطبائع الارضية والاحوال الاجتماعية والاوضاع

الاقتصادية وفي اطوار الانسانية الطبيعية من البداوة والحضارة وقانون تنقل الغلبة وما يرتبط بذلك من الاحوال الجغرافية فذلك هو الذي يدل على ان ابن خلدون قد بدأ يشير الى اندراج من البحث في الدراسات الانسانية لها من القيمة الاصلية والغرابة ما كان سامحا لها بالظهور في مظهرها الاستقلالي الذي بدت فيه بعلم الايتنوغرافيا .

فابن خلدون هو مصدر تيار قوي جديد من الروح التجريبية والايجابية والنظر العلمي الواسع الافق تهذبت به العلوم الانسانية وتوسعت وتفاعلت واكتسبت من المعلومات المخترعة والملاحظات الطريفة ما دخل بها في ادوار جديدة واظهر في دائرتها علوما مستقلة ناشئة .

وبذلك كانت له يد طولى على ابتداء العصر الحديث بما امتاز به من النهضة الفكرية والادبية وربما حتى حركة الاصلاح الديني بل ان تلك اليد امتدت آثارها حتى مست بتطور العلوم الانسانية في القرن التاسع عشر فكان ابن خلدون استاذا مباشرة لكونت في فلسفته الايجابية وآثاره في العلوم الانسانية واستاذا بواسطة لدوركايم في مذهب تاصيل القيم الاجتماعية . (1)

محمد الفاضل بن عاشور

---

(1) هذا نص المقدمة التي كتبها الاستاذ الفاضل بن عاشور للكتاب الذي اعدته كتابة الدولة للمعارف لمعرض «بروكسيل» للتعريف بابن خلدون .

وحدة المغرب العربي

بقلم : محمد العابد مزالي

وحدة المغرب العربي* عبارة تناولتها الصحف ورددها المذياع ولهجت بها الالسن وتغلغلت في النفوس.

وحدة المغرب العربي ليست في وحدته الجغرافية : فهي ليست في موقعه في شمال افريقيا يحده البحر من جهة والصحراء من جهة اخرى وليس هي في تسلسل جباله الممتدة من ناحية الى اخرى ولا في تشابه اصقاعه ولا في تضاعيف اوديته ولا في جريان سيوله ولا في هبوب رياحه ولا في منتوجات اراضيه وان كان كل ذلك من دواعي تقارب جهاته واقطاره. فكم من بلاد تناسبت اصقاعها وتشابهت نواحيها واتحدت مميزاتها ولم يكن منها وحدة تامة شاملة وكم من بلاد تباينت ارجاؤها واختلفت طبائعها وتنافرت امزجتها ولم يمنعها ذلك من ان تقوم على وحدة كاملة.



ووحدة المغرب العربي ليست مرسومة في تضاعيف الاحداث التاريخية التي مرت عليه من بدء الخليقة الى القرون الاخيرة على رغم ما انسل اليه في القرون القديمة الغابرة من قبائل شمالية نزلت فيما يظهر على طريق اوروبا الغربية حتى استقرت في شمال افريقيا على شواطىء البحر الابيض المتوسط فكان البربر مع تشابه امزجتهم وتقارب طبائعهم وتوالد لهجاتهم والسنتهم. فليست الوحدة في ذلك ولا في ما قدر للمغرب من احداث سياسية في العصور الغابرة زمن القرطاجنيين ولازمن الرومان ولا زمن الروم. وهي كذلك ليست في ما سجل من وقائع تاريخية في العهد الاسلامي وما نشا في البلاد المغربية من دول وحروب ولا في ما ظهر على سطحها من مدنية وما بقي عليها من آثار قائمة وان كان كل ذلك لمما يقرب مسافة البعيد ولمما يربط

(*) انظر الفكر السنة 3 ـ ص 244 (1957) .

النائي بالقريب ولمما يدعو الى شيء من الاحكام المتقاربة والى ضرب من الانظمة المتشابهة والى اسلوب في اتجاه التفكير بعيد عن التنافر والتقاطع. فالمغرب العربي في تاريخه القديم وفي تاريخه الاسلامي لم يشعر بوحدته او بالحاجة الماسة الى تكوين وحدة كشعوره بها في هذه الحقبة الحديثة الراهنة من تاريخه .

ووحدة المغرب العربي ليست كما كان يدعيه كثير من المدعين في ما قام به الفرنسيون من اعمال وما سلكوا به من سبل دفعتهم الى تخطيط طرق او احياء اراض او تشييد معامر او تجهيز مستشفيات او فتح مدارس اذ ظن الظانون ان هذا العمل وما كان من نوع هذا العمل انما من شانه ان يجعل من المغرب العربي قطرا واحدا اتحدت فيه مظاهر السياسة العامة وان اختلفت في جزئياتها ومقتضيات احوالها. فلقد وقع عليه سلطان واحد وسيق سوقا الى محتشد واحد يغتر له المغتر فيقع في الشرك واي شرك ! وانما هو تبرج قد يستهويه وانما هي زينة قد تروقه وانما هو استغواء قد لا يفلت من حباله وانما هو ضرب من معسول الكلام مع ما فيه من العجمة والهجنة قديجعله لا يريد الا سواه في توجيه نفسه ظاهرها وباطنها وحتى في قضاء حوائجه جليلها وحقيرها.

وحدة المغرب العربي ليست في ذلك كله فليست هي في وحدته الجغرافية ولا في ما مر عليه من احداث التاريخ ولا في ما انزل عليه من مظاهر المدنية الغربية الحديثة.

انما وحدة المغرب العربي في القدر المشترك الذي يشعر به كل مغربي من نفوره مما يكيله له الاجنبي كيلا وما يفرضه عليه فرضا ايهاما منه انه يقوم بذلك لمجرد اصلاح الغير وتوفير النعمة عليه وادخال الرفاهية على ذويه لا يريد بذلك بديلا ولا يطلب من ورائه جزاء ولا شكورا.

ذلك ما توهمه الاستعمار او ما اراد ان يتوهمه وان يوهمه الغير او ان يعمل على ان يوهمه جهلا وتجاهلا غير مكترث تماما بما عسى ان يحدث في انفس المواطنين المغربيين من اصطدام او تضارب او تنطع او ازدحام او انزعاج او ثورة كان الحياة في نظره انما انحصرت في امرين احدهما توفير السعادة لنفسه بشتى الطرق

وتمكين السلطان لذويه بمختلف الاساليب وثانيهما المن على المواطنين بما يكون قد قام به من تخطيط سبل او جلب مياه او احداث مستشفيات او اغراقهم في بحر من المنتوجات الغربية والنظم الغربية والاساليب الغربية والاعتقادات الغربية .

فاذا ما رجع اليهم رشدهم وانفلتوا من ذلك للمحتشد الذي سيقوا اليه او حاولوا ان ينفلتوا منه وثارت انفسهم لضيق ما اصبحوا فيه من معاني الحياة وابوا ان تكون الحياة تلك المعارض التي قدمت اليهم تستهويهم وان تقاس المدنية لديهم بمقياس السكك الحديدية وعدد الاطنان من البر وكمية البضاعات التي تشترى وجملة الاحذية التي تباع في اليوم الواحد ووفرة البنزين المستهلك في الساعة الواحدة ... فاذا ما ابوا ان تقدم لهم الحقيقة في شكل اقراص يبتلعونها كانها حوت الحق كل الحق فلا هي دونه ولا هو بفاضل عنها وادركوا من وراء تفكيرهم او شعورهم او اللاشعورهم ان الحياة اخصب من ان تضبط حواشيها ضبطا وان الحقائق افضل من ان تكال كيلا وتفرغ في عبارات محدودة محصورة ... فاذا ما ابوا ذلك وانزعجت انفسهم بما اصبحوا يشاهدونه من منكر المشاهد واستمعوا الى ما بقي في طيات انفسهم من موروث الطبيعة وقديم الاتزان وتغلغلت في اعماقهم دواعي الحياة بما فيها من خصب وثروة وعميق حقيقة وسامي ادراك ... صدوهم عن مبتغاهم صدا وقاوموهم مقاومة عنيفة وحرموهم لذة الاستمتاع ثم ازعجوهم وكبلوهم وارهقوهم كما كان يكبل الصديقون في العصور القديمة والمؤمنون المخلصون الذين لا تسيغ انفسهم الا ما بدا لهم من الحق الازلي تشهد به ابصارهم وتدق به قلوبهم وتتنفس به افئدتهم وتنثلج له صدورهم وتتحرك به السنتهم وترتفع به ايديهم كل ذلك في حركة واحدة واتزان واحد واندفاع واحد واندماج واحد في الحقيقة الكبرى التي لا يقف عليها الا العارفون .

وقديما قربت المظالم المظلومين من بعضهم من بعض ووحدت صفوفهم وعلمتهم كيف يصبرون ويصابرون وهدتهم السبل التي مكنتهم من الفوز بانفسهم غير مكترثين بما ينزل عليهم من صواعق العذاب لا يبغون الا السير على ضوء تلك الحقيقة الكبرى التي احتضنتهم فجعلت منهم مشاعل ينيرون حيث كانوا ويقلبون الاوضاع اين ذهبوا.

توحدت اساليب الضغط في المغرب العربي مع شيء من التمييز

حسب مقتضيات الاحوال فنالت الانسان في جسمه وجهازه ثم نالت من نفسه ونفسيته وعقليته وشعوره ولاشعوره ثم عمدت الى صلته بالحقيقة الكبرى ارادت ان تفصله عنها تماما من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر وادرك المغرب العربي هذا الضغط الموحد وهذا الخطر الذي يهدد هيكل الحياة بجملته فاذا به يرتعش المرة بعد الاخرى واذا بشعوره يلتئم واذا بصيحاته تتجاوب واذا بصفوفه تتقارب واذا وحدة المغرب العربي شيء اعز من ان ينحصر في وحدة المغرب الجغرافية ولا في ما طرأ عليه من الاحداث في التاريخ الاسلامي او في العصور الحديثة وانما هو في تدفق شعوره وفي يقظة لاشعوره وفي تجاوب صرخاته يرددها الافق مشيرا الى ان ساعة الخلاص قد دقت وان الظفر قريب وان سبل الحياة الكاملة قد فتحت لديه في وحدة كاملة شاملة تامة هي وحدة المغرب العربي.

وحدة المغرب العربي هي اذن في امرين : اولهما عدم الرضا بما كان يصب عليه صبا من مظاهر المدنية الغربية بما فيها من استغواء وبما تحمل من زينة وتجمل وبما اتصفت به من تصنيع للحقائق المجردة وتحويلها عن جادتها المستقيمة وصبغها باصباغ اصبح الغرب غني عنها على حين ان اخذ المغرب العربي بعد ان طرح عن نفسه ما كان اصابه من جرائها من دهشة وذهول ينفر منها ويزداد نفوره منها لا لشيء سوى انها كانت لا تتحد والهياكل التي يراها في اطار الحياة القائم الذات، يتبين جميع ذلك الفيلسوف ويدركه الشاعر ويصبو اليه المفكر ويتمناه المسالم ويجنح اليه سليم الفطرة لا يشذ عنهم الا من اشتبكت حباله وتشابكت ملكاته واندكت مقومات حياته الكبرى.

اما الامر الثاني فهو في تعويض ما قد نفروا عنه ونبذوه نبذا بما قد تمليه عليهم فطرتهم الخالصة او طبيعتهم السليمة او شعورهم بما للحياة من خصب وغنى او تفكيرهم على ضوء ما قد ورثوه عن ابائهم او درسوه من كتب الاقدمين او شاهدوه من حوادث العصر الجديدة، كل ذلك يتنبه اليه المفكر الجاد في تفكيره ويشعر به العامة شعورا غامضا مبهما هو اقرب للحدس منه للتفكير ويبقى مخا في اكمن قرارات انفسهم اخفى على اعينهم من دقات قلوبهم او تنفس صدورهم او جريان دمائهم في عروقهم بل هو اخفى من تفاعل المواد الغذائية

والكمياوية التي تنبعث في امعدتهم وسائر جوارحهم بل قل هو اخفى عليهم من مفعول ما يتقاطر من غددهم في كامل اجسامهم. ذلك لانه مرتبط اشد الارتباط باسرار الحياة الكاملة ولانه منوط بهيكل قائم الذات مستكمل الصفات تولدت عنه الحياة وظهر مفعولها في كامل الميادين المشاهدة وغير المشاهدة اذ لا شرط في الحق ان يكون ملموسا ولا شرط في الحياة ان تكون مشاهدة وانما الشرط في الحق ان يتجاوز حدود الملموس وانما الشرط في الحياة ان لا تنحصر في حدود المشاهدة.

فماذا يغني الانسان ان يصلح من زيه ما يصلح وان يظهر من جسمه ما يريد ان كان جهازه معتلا او تركيبه مختلا او قوائمه متداخلة وماذا يغني المريض ان يعمد الى دواء يسكن به آلام معدته ان كان في هذا الدواء ما يقوض به اركان جسمه ويهدم به اركان هيكله ويقرب به اجله ؟

ومتى كانت قيمة المذياع مثلا في نوع الخشب المصنوع منه او في شكل ازراره المنصوبة عليه او في دائرة البوق المتصل به او في طبيعة الاسلاك المتداخلة فيه او في شكل الدواليب الجاهزة به او حتى في علامة الانابيب المضيئة فيه ؟ فانك ان اعتبرت جزءا من هذه الاجزاء التي يتركب منها المذياع انما اعتبرت شيئا منفصلا عن غيره لا يقوم بشيء ويكاد لا يصلح لشيء وانما كان عليك ان تنظر الى الهيكل الجمعي وكان عليك بالخصوص ان تنظر في ما يتولد عنه ولم يكن ليتولد عن احد اجزائه. انما كان عليك ان تلتقط الاخبار بفضل هذا الهيكل الجمعي اذ هو يؤدي وظيفة كاملة يعجز تماما عن تاديتها كل واحد من اجزائه بل قل تعجز عن تاديتها جميع اجزائه اذا ما سقط احدها ايا كان.

كذلك الانسان لا يشعر بكامل الحياة ولا يؤدي كامل وظيفته ولا يتصل بالحق الاكبر الا اذا اتحدت جميع اجزائه لذلك واتفقت بتمامها على تادية تلك الوظيفة والا فقد اختفت الحقيقة وانتقض الواقع وانتفت المعرفة وحل محل جميعها اضراب واضراب من الخلط والغش والباطل والتمويه والهذيان.

خلق الانسان من تراب وليس في هذا حط من قيمته او تشهير بمنزلته وانما هو اعلان بواقع واصداع بحقيقة. فان نحن علمنا ان

التراب يحتوي من جملة ما يحتوي عليه على الحديد مثلا والكبريت والفحم والجير والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن وعلمنا بعد ذلك انه يحتوى على كميات من البنزين او الكحول او السكر وانه قد يحتوى ايضا على الراديوم ثم علمنا بعد هذا وذاك ان شذرات المعادن في استطاعتها ان تتغير وان تنقلب من مادة الى اخرى وان جملة تلك الشذرات التي كان يحسبها الناس هادئة هامدة ميتة قد ظهرت عند التجربة والامعان مشعة في الفضاء اشعاعا يندهش له البشر وينبعث منها انواع وانواع من المغنطيس يتداخل مفعول هذا في مفعول ذاك وتتصل خبايا هذا بمكنون ذاك من حيث تشعر المادة ومن حيث لا تشعر، وان نحن ادركنا ان تلك التي تسمى بالمادة كثيرا ما تنقلب الى روح وان ذلك الذي كان يسمى بالروح كثيرا ما يستحيل الى مادة في عالم لا تعرف له حدود ولا نهاية، كل شيء يسبح فيه باتصال مستمر مع بقية الاجزاء الاخرى من الحياة الكبرى ... فان نحن قبلنا كل ذلك علمنا شيئا يسيرا مما يحتوى عليه التراب من خصائص وما يشتمل عليه من فضائل وما يكنه من اسرار ومعان.

خلق الانسان من تراب معناه ان جميع تلك القوى الموجودة في التراب باجزائه انما هي على اقل تقدير موجودة بتمامها وكمالها على احسن تنظيم وانهى تنسيق مما يجعل الانسان قادرا بطبيعة امره وكيفية نشأته ووظيفة مركباته ان يتجاوز واي تجاوز حدود المنطقة الضيقة التي يتنقل فيها هيكله المادي ليتصل واي اتصال بما لا تناله حواسه ولا يدخل تحت بسيط ادراكه.

ففي الانسان خصائص الحديد والرصاص ومميزات الفضة والذهب وخاصيات المغنطيس والراديوم وما الى ذلك مما وصل اليه العلم الحديث وما لم يصل اليه العلم الحديث وانما يصل اليه العالم عندما يستخدم جميع القوى الطبيعية التي اجتمعت فيه ما هو ناشيء من طبيعة كل جزء من اجزائه وما هو ناتج عن التحام هذه الاجزاء بعضها ببعض ولم يكن لينفرد بها واحد من هذه الاجزاء.

تلك هي مقومات الحياة الكاملة التي تبدو من بعيد في اشكال مختلفة وكيفيات متباينة للمغرب العربي وتلوح له في صور تتمايز وضوحا ودقة يتمايز كل واحد حسب عوامله ومهيآته واستطلاعاته ودرجة رشده ومنتهى كماله. تلك هي مقومات الحياة الكبرى التي

يود المغرب العربي في شعوره وفي اللاشعوره ان يحياها لانها كاملة غير منقوصة مستوفاة غير مبتورة فهي العروة الوثقى التي تجمع بين افراد المغرب العربي وتلم شعث المغرب العربي فتتكون منها وحدة المغرب العربي.

فالقول في مكونات وحدة المغرب العربي كالقول في مكونات العقل الباطن فهي تفعل مفعولها في خفاء تام وتسير الناس حسبما يريدون وحسبما لا يريدون بل قل ان وظيفة هذه المكونات ان تقوم برسم الهيكل الجملي الذى تنطبع فيه الحياة وتترك للناس مسؤولية الزينة او التزويق في نطاق ذلك القالب العام لا يستطيعون ان ينفلتوا عنه ولا ان يتجاوزوا حدوده ولا ان يغيروا من شكله كالدور والصوامع والصروح تبقى مستقرة في كروية الارض لا تبدل من هيئتها ولا تحرف من هيكلها .

ذلك هو الاتجاه المذهبي للمغرب العربي في سبيل تكوين وحدته وذلكهو خط الاتجاهالذى لا يحيدعنه في تطوراتهوانقلاباته احب من احبوكره من كره ويبقى للناس في غضون هذا الاتجاه مجال هو ضيق جدا ان اردت بالاضافة الى ما مر من الاحداث في العصور الغابرة وما يمر منها في العصور الحاضرة او المستقبلة وهو في آن واحد عريض متسع بالاضافة الى الساعة التي تدق اذا اوقعت عليه مرآة مكبرة من ورائها تتضخم الاحداث وتتكاثر العوامل ويبدو الناس في هرج ومرج اشبه شيء بالذرات المتصافة المتراصة المتفاعلة المتصادمة المتزاحمة.

وكاني بالمغرب العربي وهو هو في البحر الابيض المتوسط لا يبغي شيئا الا ان يحيا هذه الحياة وان يشع بها اشعاعا على اطرافه وجوانبه من غير قهر ولا استبداد وانما في رضا ودعة واطمئنان ايمانا منه ان المرء لا يكمل بما يتحصل عليه من غنى وما يجلبه لنفسه من منافع وانما بما يفيض به على غيره من حب واخاء وايثار واعتقادا منه ايضا ان الفلسفة الانوية يجب ان يحل محلها فلسفة الاشعاع ترمى الى تحقيق وسائل الحياة الكبرى اذ هي حق من حقوق البشر فرض من فروضه المقدسة لولاها لانعدمت المعاني واصبحت مستهجنة وكاشد ما يكون عليه الشيء المستهجن.

وكاني بالمغرب العربي وقد رسم لنفسه هذه الخطه يلاقي في طريقه بعض الالتواء لكثرة ما طرا على نفوس الخلق من عوامل الفساد

فشحطت بهم شحطا عن ادراك معاني الحياة الكبرى وكاني بامم البحر الابيض المتوسط قد شعرت بما نالها من زيغ وما داخلها من اضطراب وما اصبحت فيه من حياة منقوصة فجعلت بدورها تلتمس ذلك الضرب من الحياة الذي اتجه اليه المغرب العربي وقد اخذ يعد في سبيل تحقيقه شتى المعدات ويقيم له مختلف الانظمة والتراتيب.

فالمغرب العربي سائر اذن نحو وحدته تلك لا يرده عنها راد ولا يمنعه عنها مانع لانه يستمد قوته لا من العوامل الوهمية ولا من الاحداث المصطنعة وانما لانه يستمدها من اعرق عناصر الحياة واخصبها واقربها من الواقع واوفاها بالحقيقة وابقاها على الدهر. فهو مسالم كل من سالمه محالف كل من حالفه مطمئن لكل من اطمأن اليه وان كان يروم شيئا فانما هو في ربط اواصر البر وفي توسيع نطاق الحوض الذي يشرب منه الناس جميعا وهو مندفع قدما نحو غايته مؤمن بعقيدته متبع مشعل انواره مجتنب في تؤدة ما عسى ان يعترضه من عوارض ساع في التغلب عليها بما يكتسبه من حين لآخر من صميم العقيدة وفضل الايمان وعزة الوحدة واثق من ان يخرج من نفسه امة تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .. !

وعند ذلك يستطيع العالم ان يشاهد بالعيان وحدة المغرب العربي.

محمد العابد مزالي

مكنـــى ام مكنيـــنى ؟

بقلم : حسن حسني عبد الوهاب

ما من أبناء القطر التونسي (*) الا من يعرف أو يسمع بمدينة (المكنين)، تلك البلدة الساحلية العامرة بمواطنين نشأوا على النشاط ، ودربـوا على العمل فى الصناعة اليدوية ، والاقبال على التجارة وفلح الارض بغـراسة الزيتـون واشجار الثمار ، وزراعة البقول والخضروات.



وقد تساءلت من زمان بعيد لماذا يقال لوليد هذه المدينة النشيطة (مكنى) بينمـا القيـاس يفـرض أن يقـال فيه (مكنيني) كما تقتضيـه قـواعد النحـو وأصـوله ، نظيـر من ينعت (بالبرجيني) لسكان قرية ساحلية أخرى وهي (البرجين) ثنية برج .

ووقفت أخيرا فى كتاب « المدارك » (I) على ترجمة أحد علماء القرن الرابع للهجرة وزهاده من مواليد البلدة المذكورة ، فجاء فى التعريف به انه : « ابراهيم بن يزيد المكنى » ، من مكنة احدى قرى السـاحل التـونسي ، وهذا فيما نعلم أقدم نص ذكر فيه اسم البلدة ، وهو صريح فى النسبة الى مكنة .

فاشتدت رغبتي الى معرفة السبب الحامل على عدم اتباع صيغة الانتساب المعقولة ، وبعد حين بان لى أن (مكنة) كانت ــ كما مـر بـك ــ من القـرى الساحلية المعروفة فى القرن الرابع للهجرة بهذه التسمية ، وفى خلال القرن الذى يليه أو بعده بقليل بنى بعض الاغنياء بمقربة من البلـدة قصـرا ــ أو برجـا ــ عرف باسم بانيه : (قصر هلال) كما انشأ حـذوه مسجـدا ما زال موجودا وينعت بجامع القصر ولا نعرف عن حيـاة هـلال هذا لا كثيـرا ولا قليلا ، ومن الواضح أن غيره من سكان الجهة اقتفى أثره فانشـؤوا البيـوت والدور الى أن صار مجموعها قرية آهلة يفصل بينهـا وبين (مكنة) مسـافة قليلة جدا لا تزيد عن رمية سهم ، وربما اتصل الآن عمرانهـا بعضه ببعض ،

(*) انظر الفكر السنة 9 ص II5 .

(I) كتاب « ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك » للقاضى عياض السبتي المتوفى سنة 544 هـ . ــ الجزء الثالث، خط بمكتبتي.

فجرى على ألسنة المواطنين أن اطلقوا على البلدتين اسم (المكنين) تثنية مكنة ، الا أن القرية الجديدة حافظت على اسم باني قصرها ، وهو هلال - أما (مكنة) فقد صارت تنعت من ذلك الحين (بمكنين) وتلاشى تعريفها الاول ،

والظن الغالب انه لولا هذا السبب العارض لاحتفظت (مكنة) باسمها القديم ٠

وبما ان أصحاب التواريخ والجغرافيين التونسيين لم ينصوا على وقت حدوث هذا التغيير فلنا أن نتساءل متى وقع هذا القلب فى التسمية ، مع الملاحظة بان مثل هذه الظاهرة كثيرا ما اعترت اعلام الاماكن وتعاريفها فى البلاد التونسية ، فلسبب ما يتخذ للبلدة أو القرية اسم جديد وتتناسى التسمية الاولى التى اشتهرت بها مدة طويلة ، والراجح - فيما يخص المكنين - ان ذلك تم بالفعل فى خلال القرنين الخامس أو السادس للهجرة ، يعنى عقب الزحفة الهلالية التى اضطرت غالب سكان داخل البلاد الى الالتجاء الى قرى الساحل لحصانة بنائها ومنعة قلاعها ووفرة مدافعيها ، فحمت المهاجرين اليها من هجمات الهلاليين ٠

والواقع أن جميع مدائن القطر التونسى وقراه فى حاجة - من الناحية التاريخية - الى التنقيب عن أصل وضعها وعن سبب تسمياتها ، سواء أكانت بربرية التأسيس أو قرطاجنية أو عربية ، ثم يبحث بعد ذلك عما طرأ عليها من التغيير والتحوير والانقلابات المتوالية من أقدم العصور الى الزمن الحاضر٠

ومما يجب التنبيه اليه ان معاجم اللغة العربية أوردت كلمة (مكنة) بمعنى « القدرة والاستطاعة » الا أنى أميل الى الاعتقاد بان هذه الكلمة بربرية الاصل لا عربية اذ لا معنى للقدرة والاستطاعة فى تعيين بلدة ما ، لا سيما وأن كثيرا من اسماء قرى الساحل يرجع أصلها الى اللغة البربرية مثل : سوسة ، وطبلبة ، وبقالطة ، وأكودة ، وبنبلة ، وطوزة ، وزرمدين ، وتماجر ، وغيرها كثير ٠ والراجح أن هذه القرى كانت موجودة بالساحل قبل العصر الرومانى وبالطبع قبل الفتح العربى ، وانها حافظت على تسمياتها منذ ذلك العهد المتقادم » (I) ٠

أما القرى والمداشر التى أحدثت بعد الاسلام فان نعوتها العربية واضحة ولا تقبل نزاعا ، كالقلعتين : الكبيرة والصغيرة ، والساحلين ، والوردانين ، والحمام ، وصيادة ، ومنازل : حرب ، وخير ، وكامل ، وقصور الساف ، والمهدية ، وبنى كلثوم ، وسواها ٠

(I) ومن المناسب أن يقارن اسم (مكنة) باسم قبيلة بربرية مخيمة بمعتمدية عين دراهم وتعرف من القديم (بماكنة) على بعد ما بينها من المسافة ٠

والتسميات التى ترجع الى اللغة الفينيقية ـ أى القرطاجنية الوضع ـ هى ايضا منتشرة فى الساحل مثل : حضرموت (سوسة قديما) وروشبينا (بمكان المنستير الآن) ولمطة (وصوابها: لبطة) وتبصة (وهى الديماس بالقرب من البقالطة) وسلقطة وسواها كثير ٠

واما الاعلام الرومانية فى الساحل ـ وفى سائر القطر التونسى على الاطلاق ـ فهى قليلة جدا ، ويمكن أن يذكر منها : هرقلة (Horrea Caelia) وقرية هيبون (واصلها : (Hippone) حذو المهدية ، غير ان الرومان فى مدة استيلائهم على البلاد حرفوا الاعلام الجغرافية القديمة وكسوها صبغة لاطينية حتى يخيل انها من أصل لغتهم ، وليس الامر كذلك ٠ ولو أردنا التوسع فى الموضوع لطال بنا المقال ، فلنكتف بما أشرنا اليه ٠

كتبت بهذه العجالة الى مجلتنا « الفكر » الزاهرة بأمل أن يفيدنا بعض مواطنينا المولعين بماضى قطرنا بما يؤيد الاحتمال الذى بسطناه فيما تقدم أو بما يفنده ، والله المهدى الى الصواب ٠

حسن حسنى عبد الوهاب

شخصيـــة المرأة التونسيـــة

بقلم : فتحية مزالى

قبل(*)ان اتحدث عن شخصية المرأة التونسية يجب ان اذكر المشاكل التى تعتبر ـ عادة ـ مشاكل المرأة والتى طالما بحثها الباحثون وفتشوا لها علاجا . فمنها : هل المرأة كالرجل فى القوة وحدة الذكاء ؟ هل لها ان تشتغل خارج منزلها وهل توجد مهن تليق بها دون غيرها ؟ واذن هل يكون تعليمها مماثلا للتعليم الذى يتلقاه الرجل ؟ وكم من مشاكل اخرى من هذا القبيل تتطلب كلها دراسة طويلة وهى قيمة وجديرة بالاعتبار . لكن الانسان الذى يعلق عمله على حل المشاكل النظرية لا بد ان تعترضه دائما مشاكل جديدة عويصة فيغرق فى بحر النظريات ولا يتيسر له العمل ابدا . ونلاحظ ان العاملين الناجحين هم الذين لا يفصلون بين التفكير والعمل . الا ان ذلك لا يعنى انه يجب الاعراض عن التفكير وانما المقصود منه ان المفكر الذى آمن بمبادىء عامة بعد روية وامعان يتعين عليه ان يبادر بالعمل .



وتلك الاعتبارات تكفى لاجتناب الخوض من دون فائدة فى المشاكل الخاصة الجزئية التى ذكرنا . وتدعونا لان ننظر الى شؤون المرأة من زاوية اخرى تكشف لنا عن وضعيتها . فلنتساءل هل المرأة شخص وهل لها شخصية ؟؟

* * *

كل امرأة مفكرة تحتقر وضعيتها فى بعض الاحيان وتتشاءم او ترضى عنها وتتفاءل فى بعض الاحيان الاخرى ـ فهى تحس احساسا مبهما بأن لها منـزلة خاصة فتتساءل : ان كنت ضعيفة العقل محدودة الذكاء فكيف أكون « مكلفة » ومسؤولة؟؟ ومجرد التساءل والبحث يدل على قيمتها ويبعث فيها الثقة بالنفس. فاذا احس الخادم بأنه جدير بالاحترام واذا شعر الولد بأنه يساوى اباه فى ميادين

(*) انظر الفكر عدد 1 ـ السنة 1 ـ (1955) .

شتى واذا آمن الشعب بأنه أهل للاستقلال فعبثا نحاول اقناعهم بعكس ذلك لان الادلة تضعف وتفقد قيمتها المنطقية فى أعينهم ٠

واذا تصفحنا كتب علم النفس نستنتج أن وجود طرق مختلفة فى التربية والتعليم وبذل جهود وافرة فى دراسة النفسية تدل اولا على ان المفكرين فى هذه الميادين يحاولون دائما اكتشاف حقيقة طبيعة الانسان التى هى طبيعة معقدة حساسة تتأثر بعوامل شتى لم يظفر بها البحث ٠ وتدل ثانيا على أن العلماء والمربيين لم يرضوا ــ قانعين ــ بالشذوذ والبلادة والجمود العقلى ولكنهم يراجعون دائما اساليب التربية حتى تزدهر مكنونات الفرد ٠ ففى الغالب لا يعتبر العجز فطريا بل نتيجة سوء تربية ٠ ورغم صعوبة تحديد النفسية او الفردية او الشخصية من الممكن أن نعتبر الشخص عامة كائنا حيا يرمى متجهزا ببعض الاجهزة فى وسط اوبيئة لها صيغتها الخاصة فيها ما يعينه على نموه وفيها ما يهدد كيانه ٠ فيها من يعينه على تقوية استعداداته ويشجعه على احترام نفسه وفيها من يثبط نشاطه ويضعف ارادته ويرغمه على احتقار نفسه واهمالها ٠

وهذا الوصف للانسان ينطبق على الرجل وعلى المرأة لانه عام وكلنا يعلم انه اذا حاول باحث أن يبرز الفوارق الكائنة بينهما نجح فى بحثه ومدنا ببعض الاختلافات ــ واذا سألناه ما هى اسبابها لا يجيب لانه لا يبحث عن الاسباب ٠ ويذهب بعض الباحثين الى حمد الخلاق على هذه الاختلافات كما يحمده على كل ما يلفت نظره بدون تعمق فى البحث وسرعان ما تبنى على اعتبارات سطحية حياة المرأة كلها ٠

* * *

فاريد هنا ان اتتبع حياة المرأة التونسية منذ صغرها مفتشة عن العوامل التى تصبغها وتؤثر فيها وعن الظروف التى تحيط بها ٠ والمقارنة بين الرجل والمرأة لازمة فى كل مرحلة من حياتهما للظفر باسباب الاختلاف ٠ وسأهتم خصوصا بالمتعلمين منهما فمنذ الصغر يظهر الفرق الكبير فى اختيار اللعب التى تشترى فى الاعياد ٠

فلعب الفتاة كلها تستدعى الرصانة وقلة الحركة مثل الدمية وادوات الطهو والشاى والقهوة أما لعب الطفل التى تتطلب الهدوء فهى قليلة وزيادة على هذا فثياب الفتاة نفسها تعطلها بسبب شكلها ونوعها ٠ فلا تدرك طيلة حياتها تمام قواها ــ ثم يطلب منها أن تكون أما من صغرها وزيادة على هذا لا يطلب من الفتى الا القيام بعمله المدرسى على احسن وجه ولا يمنع من صرف بقية اوقاته فى اللعب وبالعكس يطلب من الفتاة ان تقوم باعمال متعددة فى المنزل ويحكم عليها بالمكوث

فيه فى غالب الاوقات فتنجح فى حياتها المدرسية وتبرع فى التطريز والخياطة بينما يعجز الولد عنهما وعن كل عمل يدوى فنى. وقد انتبه المربون لهذا النقص فحاولوا ادخال الاعمال اليدوية فى المدارس . واذا تحدث العقلاء او الكبار فى شأن الاطفال فانهم يشكرون فى شخصية الطفلة جمالها ورصانتها وفى الطفل قوة الذكاء وما يسمى « بالتشيطن » . وبما أن الصغير يرغب فى أن يكون كما يريده الكبار فالقضاء على شخصية الفتاة يبدأ من صغرها لان المجتمع لا يحترم فيها الا العناصر الطبيعية الفانية كالجمال او العناصر المضرة بجسدها وصحته كقلة الحركة .

فالفتاة تتعلم ـ لكن لا يعتنى احد بتعليمها نجحت ام لم تنجح . فلها مهنة قارة فى الحياة وهى الزواج وربما حالت دون نجاحها لان انكسل يتغلب عليها فتعتاد تشتيت مجهوداتها فى اعمال مختلفة من دون ان تركز انتباهها . تترك عملا وتشرع فى غيره حسب الظروف المتغيرة . فهى تتشاءب حياتها . هى عجين قابل لان يعجن دائما وقابل لان يتشكل بكل الاشكال . والشخصية لا تتكون الا اذا كان لها طابعها الخاص فكيف يمكن للفتاة أن تكتسب هذا الطابع الخاص وحياتها تنقضى على هذه الصورة؟؟فكل عمل تقوم به يدل على تفاهة وقتها وقلة قيمته . وهو لا يستدعى ذكاء ولا مهارة فنية . بل يتكرر كما يتكرر الاكل والنوم . وهكذا لا تفتح امام المرأة ابواب التسامى والابتكار ولا يدخل تغير على اعمالها الا اذا اعتنى الرجل بذلك . وربما اعتنوا بصنع الآلات المنزلية لاغراض تجارية او حينما يشتغلون هم بهاته الاعمال ويتخذونها مهنة لهم . ويلاحظ ان مشاهير الخياطين والطباخين وغيرهم رجال لان الفرص اتاحت لهم ان يتفننوا فى اعمالهم وان يتقدموا فيها : فالسفر وعلاقاتهم مع افراد المجتمع ومعرفتهم له ولحاجياته كل ذلك مكنهم من ان يبلغوا ما بلغوه . ومن الغريب ان الرجل فى تونس لا يتعجب اذا استعمل فى ادارته آلة الكتابة او الحساب ولا ينتقد هذا الاستعمال ويصعب عليه أكل طعام مطبوخ فوق نار غير نار « الكانون » !

هذا كله يبين ان ابواب الرقى منغلقة فى وجوه النساء وستبقى منغلقة امامهن ما دام باب المنزل منغلقا وما دامت جدرانه هى الشاهد الوحيد على حياتهن . ولا يمكن ان تقوى شخصية المرأة الا اذا تشبعت بمعنى « الاختيار » . والاختيار ضد التقليد والتقاليد ـ وهو يقتضى خوض معركة الحياة وربط علاقات مع الغير واحتكاك الآراء والعادات .

لقد قصرت حديثى على الفتاة المتعلمة فاذا بى اتحدث عن الجاهلة . والحقيقة ان غالب الامهات فى تونس جاهلات وبما ان الابيترك تربية بناته فى عهدة امهاتهن فان البنت لا تنشأ على حب العلم وطلبه فى حد ذاته بل يكون غرضها التحصيل على عدد من الشهادات والمباهاة بها كما ترغب فى ذلك امها ـ اما ان

يكون التعليم مدعاة للتجدد الذاتى ومشجعا على الازدراء بالقيم الاجتماعية البالية التى يتشبث بها الجميع رجالا ونساء فذلك شىء يجب اجتنابه .

فللفتاة ان تقضى كامل يومها منكبة على كراريسها ولها ان تشترى الكتب والمجلات ولها ان تصور ... لها كل ذلك بشرط ان تقتصر عليه واذن فما هو الفرق بينها وبين امها ما دامت تكتفى بالمطالعة او بالتطريز وما دامت لا تتحرك الا للقيام بشؤون المنزل ... فهذه المتعلمة تسمى مثقفة لانها طالعت عدة كتب ويتغنى والدها بثقافتها كما يتغنى البخيل بكنزه الموارى فى جوف الارض .

ان جميع المفكرين ينكرون هذا التعريف للثقافة ويحذرون منه لانهم يعتبرون الثقافة ثمرة بحوث طويلة ومناقشات عديدة حتى ان بعضهم فى «أثينا» أبى ان يؤلف ويدون افكاره خشية ان تجمد وتموت . وكذلك العرب فقد راى بعضهم « ان من تفقه من بطون الكتب ضيع الاحكام » . وكانوا كثيرا ما يجتمعون فى الاسواق والقصور والجوامع ويتبادلون الآراء والاقوال وكان المدرس العربى فى القديم لا يعتبر نفسه علامة الا اذا اعجز مناقشيه وكأن العلماء وطالبو العلم يقومون باسفار متعبة لاجل العلم والثقافة . وقال البعض ان السفر هو المربى الاصيل للشباب ولا تتم الثقافة الا به .

هل عندنا اذن نساء مثقفات بتونس ؟ لا ادرى ولكنى الاحظ ان المرأة المحافظة المحترمة للتقاليد والتى تتعلم من دون ان تتأثر بعلمها وتؤثر على مجتمعها تعتبر عندنا ــ صالحة ــ لانها لم تخيب ظن مجتمعها فيها .

والذى لا بد منه هو ان تنجو المرأة من واقعها بفضل تعلمها ولا ارى وسيلة اخرى للخلاص لكن ما هو هذا التعليم وما مقدار صلاحيته ؟ نلاحظ ان اغلبية الفتيات التونسيات يتلقين تعليما يسمى فنيا تلبية ــ على ما يقال ــ لرغبة اوليائهن وهؤلاء الاولياء راغبون ايضا فى ان يكون التعليم عربيا لكن رغبتهم هذه لم ينظر اليها بعين الاعتبار الا منذ بعض سنين . بحيث نجد اكثرية فتياتنا متعلمات تعليما اجنبيا . وهكذا فانه من الصعب وجود نساء تونسيات مثقفات ثقافة قومية . ولذا نستطيع ان نقول ان المرأة التونسية بحكم الظروف والاحوال عديمة الشخصية ! .

فنظرة الفتاة الى الحياة غالطة فى بعض الاحيان لانها تعيش فى ظل امها التى تطالبها باتقان الطهو وباتقان التطريز من جهة وفى جو الكتب من جهة أخرى راضية عن نفسها مطمئنة الى مصيرها . لكن فاتها ان الحياة عمل متواصل وبناء مستمر وانها عدوة السلبية .

وهذه المقارنة بين الرجل والمرأة يمكن الاستمرار فيها ولكن المهم هو معرفة الظروف التى تكونت فيها شخصيتاهما ٠

* * *

بعد ان ذكرنا خصائص تربية الفتاة من الواجب أن ننتقدها ونصدر حكمنا عليها ٠ يقال ان التربية المحكمة هى التى تهىء الطفل للحياة الاجتماعية احسن تهيئة فاذا كانت غاية الوالدين أن يقضى ابناؤهما حياتهم كما قضيا ـ هما ـ حياتهما فطبيعى ان تربى الفتاة كما سبق٠فتقول الام: لا باس على ولا ينقصنى شىء وامنيتى ان تصبح ابنتى مثلى !!!

والام تعنى بالحياة الحياة الزوجية لانها كل شىء فى نظرها ولا يهمها ان يضيع شباب ابنتها ٠

وانا اتساءل : لماذا تعتبر الحياة الزوجية هى الحياة ولماذا ينفرد الزواج باسعاد المرأة واكساب حياتها معنى ؟

ولو سلمنا بذلك ـ ولن نسلم به ـ فنتساءل سؤالا آخر وهو هل فى مقدور الاباء ان يوقفوا سير التاريخ ويضعوا حدا للتقدم والتطور لكان الجواب واضحا ولاقتنعنا بأن الاحوال تتبدل والظروف تتغير وانها تؤثر فى الجيل الجديد بما فيه الذكور والاناث ٠

فاذا كان ذلك فلماذا تبقى المرأة سلبية يدفعها تيار التقدم كما يدفع تيار النهر الجارف الخشب ؟ ولماذا لا تسير نفسها بنفسها وتخط طريقها بمحض ارادتها وتشيد مستقبلها ومستقبل اولادها على ضوء المعرفة وعن جدارة ؟ ؟ والحقيقة ان جميع الناس يعترفون بوجوب تثقيف المرأة حتى تحسن القيام برسالتها التربوية لكن كيف يمكن للمرأة الجاهلة بعالم الرجال ان توجه ولدها وكيف يمكنها ان توجه ابنتها وهى جاهلة بكل ما يهم بلادها منشؤون سياسية واقتصادية وغيرها وجاهلة بحالة وطنها ومستقبله ؟ يتحتم اذن ان لا يوضع حد لثقافة المرأة ومن حقها ان تتثقف بقدر الامكان ٠

ومن الذى يقدر ان يقول ان امكانياتها محدودة ما دامت الامكانيات تقاس وتقدر بانتاجها لا بمجرد فكرة قبلية عنها ٠ اذن لا تكون المرأة صالحة لتربية اولادها الا اذ ثقفت نفسها ثقافة كاملة لا حد لها ٠

يقال ان التربية القومية هى التى تهىء للوطن مواطنين صالحين كما يقال :

والقولان مرتبطان : لا تكون التربية صالحة الا اذا احترمت امكانيات الشخص وصانت مواهبه وهيأت لها الظروف اللازمة لنموها وصقلها • فلماذا اذن يفسح المجال للذكور ويوضع حد للانثى ؟ ولماذا يعتبر تعلمها امرا كماليا وتسطر لها برامج محدودة فى المواد والزمان وتخص بوظائف دون اخرى كالتعليم والتمريض ويكفى ان يكون احد الخطباء مرضيا ليحال بينها وبين التعليم • اتساءل عن ذلك كله ولا اجد جوابا شافيا ولا ادرى متى تصبح المرأة فى تونس ذات شخصية تحترم وحرمة ترعى ؟

على ان الذى اعلمه هو ان الطريق امامها صعب شاق طويل والاعباء التى تنتظرها ثقيلة والوسائل غير يسيرة لكن يمكنها ان تتعظ بكفاح النساء فى العالم وتستفيد من تجاربهن التى قد تعينها على معالجة مشاكلها واجتناب بعض الاخطاء التى تقضى على الحركة النسائية •

يجب ان لا تطير فى الفضاء دفعة واحدة بدون اجنحة مقلدة للرجل • لان منزلتها فى المجتمع غير منزلته فيه وظروف عيشها غير ظروفه • ولان تحرر الفرد لا يحصل بالطفرة بل بالتغلب على الظروف الشخصية الخاصة وقهرها بعد دراسة الواقع •

يجب ان لا تغتر وتثق بمن يجاملها ويحاول ان يقنعها بأن لها قيمتها • فقيمتها الآن ما هى الا قيمة الطير المحبوس او الطفل الذى يسعد اذا كان والداه منصفين ويشقى اذا كانا ظالمين فلا قيمة للانسان العاجز على تقرير مصيره ولو فرضنا ان اولياءه قادرون على تقرير هذا المصير وصالحون لهذه المهمة فالولى لا يدوم وليس معصوما من الاخطاء الا الخلاق • ومع هذا فقد وجدت نساء يفخرن بسجنهن كما وجد عبيد لم يفكروا فى تغيير حالتهم •

بعض الحركات النسائية خابت لانها قطعت العلاقات مع الحركات القومية الاخرى • فغاية المرأة ليست فى ان تبنى عالما جميلا تعيش فيه وحدها بل غايتها اندماجها فى العالم الموجود ومحاولة التأثير فيه فيكون عالم واحد موحد لفائدة الجميع •

ويجب ان لا تظن المرأة التى تشعر بانها غير اجنبية فى عالم الرجال ان لها شخصية • فذلك لن يكون الا اذا تمكنت اغلبية النساء من بلوغ تلك المنزلة كما يجب على المرأة الواعية التى لا تداهمها مشاكل جنسها ان لا تنسى اختها الخادمة والبدوية والجاهلة بل يتحتم عليها ان تفكر فى مشاكلهن وتبحث لها عن حل

بالرغم من جهل تلك الاخت وعجزها • يجب ان لا تنسى ايضا ان سبب احتقار المرأة وحتى مجرد اللامبالاة بشؤونها هو ماضيها غير الحافل •

واذا راينا النساء يتمتعن اليوم بجانب صغير من التقدير فذلك لان بعض النساء قمن باعمال كبيرة فى مختلف انحاء الدنيا – الا ان الناس يرونهن شذوذا واستثناء للقاعدة • وذلك يذكرنا بقول الاجنبى للتونسى النابغ : انت لست منهم ! كذلك يقال عن المرأة النابغة انها رجل ! انها فقدت انوثتها ! فعلى المرأة العاملة اذن ان تربط مصيرها بمصير جميع اخواتها •

وهناك صنف من النساء المتحضرات يؤمن بمفعول الزمان ويوكلن اليه امر النهوض بالمرأة فلا يبقى الا ان ننتظر ذلك اليوم المحتوم الذى تتوحد فيه الآراء وتلتحق القافلة بها • وريثما يكون ذلك فلينتقد المنتقدون ولينقم الناقمون ! وهذا «حل الكسل» كما يقال•فلا بد من العمل اما لتحويل مجرى التيارات واما لتعجيل سيرها•والحقيقة ان حاجتها الى السرعة كحاجتها الى التحويل لان التيار الذى شعرت به المتحضرة فرض عليها من الخارج • ومن حقنا ان نمعن فيه النظر ونفهمه على حقيقته حتى نستطيع تسييره : فتعدد الموظفات مثلا لا يدل حتميا على تقدم يحمد • فيجب علينا فهم هذه الظاهرة ومعرفة اسبابها قبل الحكم عليها •

اما السرعة فهى ضرورية لان كل تيار جديد مهدد بتيارات اخرى معاكسة • وقوى الرجعية فى جميع الميادين بالمرصاد لقوى التقدم•

تلك هى اهم الملاحظات التى رايتها مفيدة وجديرة بالاعتبار ولا ارى للمرأة شخصية ما لم تتعظ بها وتعمل على هداها •

* * *

ان الشخصية لا تبرز الا فى ظروف ممتازة تتصف بالقلق والحيرة • والتاريخ يشهد بان الاعلام الكبار ظهروا فى مثل تلك الظروف فامتحنوا انفسهم فيها وكان نجاحهم عاملا على فرض شخصيتهم• وواقع تونس الآن سانح لان تبرز فيه شخصية المرأة •

فالاستعدادات موجودة والاسباب متوفرة ولا ينقص المرأة اليوم الا الثقة بنفسها والايمان بمستقبلها • وذلك الايمان لا تجده الا فى نفسها بنفسها • فلتعمل ولتكن مسؤولة على اعمالها •

فتحية مزالى

كتاب الحوادث والبدع

لابـــي بكـــر الطرطوشي

تحقيق ونشر : محمد الطالبى

متى ظهرت المصنفات فى البدع(*)؟يعسر ان نجيب على هذا السؤال فى مقدمة كتاب لكن لعله لا يخلو من فائدة ان نلاحظ بعض ملاحظات ٠

ان التطور السريع الذى غير تغييرا بليغا الوضع العربى الاسلامى ، بل قلبه احيانا راسا على عقب، فى ظرف جيل واحد،قد احدث امتعاضا شديدا فى قلوب اناس ألفوا أن يحيوا حياة ابائهم ، وآمنوا بان احسن سيرة فى الحياة هى احتذاء سيرة النبىء فى ادق جزئياتها٠ ان الاخبار جمة فى هذا الصدد ٠



فلا عجب اذا ما ابدى هؤلاء أنكارهم فى قسوة او مرارة كابى الدرداء بل لا عجب اذا ما سالت حقيقة دموعهم اسى وحسرة، كالحسن البصرى او ربيعة ، على ماض جميل تولى ٠٠٠ وحلت مكانه بدع ممقوتة ٠

ولقد سجل الحديث فيما سجل ، باسلوبه المعهود ، اقوال هؤلاء ٠ وهكذا تعكس لنا صفحة الحديث صورة لا يبعد ان تكون قريبة جدا من واقع القرنين الاول والثانى ان لم تكن الواقع نفسه ، ولا عبرة هنا بصحة نسبة القول لقائله اذ الانتحال يفيد فائدة الصحيح من نواح كثيرة ٠

وهكذا فقد الفى من الف فى البدع فيما بعد الطريق ممهدة ، والمادة موفورة والمنهج مرسوما، لكن الاوائل، ان لم يبخلوا بالتانيب والانكار، فقد ابدوا توقفا امام ولوج طريق التاليف فى الموضوع بل حذروا من فتح هذا الباب٠ فالامام مالك وقد كاتبه ابن فروخ من القيروان فى منتصف القرن الثانى يخبره ان البلد كثيرة البدع ويستشيره فى تاليف كلام لهم فى الرد عليهم ـ اجاب (1)

(*) انظر الفكر السنة 3 ص 879 (1958) ٠

(1) المالكى رياض النفوس تحقيق حسين مؤنس ص 144 ٠

« انك ان ظننت ذلك بنفسك خفت ان تزل او تهلك . لا يرد عليهم الا من كان ضابطا عارفا بما يقول لهم . ليس يقدرون ان يعرجوا عليه فان هذا لا باس به . واما غير هذا فانى اخاف ان يكلمهم فيخطىء فيمضوا على خطئه او يظفروا منه بشىء فيتعلقوا به ويزدادوا تماديا على ذلك . قال ابو عبد الله ـ اشفق مالك ، رضى الله تعالى عنه ، ان يكون ذلك سببا لاظهار طريقة الجدل بافريقية فيؤدى ذلك الى اسباب يخاف من غوائلها ولا يأمن شرها ، فاراد حسم الباب » .

لكن لم يحسم الباب ولم يمض طويل زمن حتى الف فى البدع بالغرب ، الف فى ذلك محمد بن وضاح القرطبى (197 ـ 286) وكتابه فى البدع والنهى عنها اقدم كتاب بلغنا فى هذا الغرض . والف فى ذلك محمد بن سحنون (202 ـ 256) كتاب الرد على اهل البدع (1) ولم يبلغنا هذا الكتاب كما لم يبلغنا غيره مما سبق كتاب الحوادث والبدع ككتاب ابى زكريا يحى بن عون (المتوفى سنة 298 فى الرد على اهل البدع (2) وهذا طبعا مما يعطى لمؤلف الطرطوشى قيمة خاصة .

وقد الف الطرطوشى كتابه بمصر بعد سنة 480 كما يتضح من خلال اشارات النص

رأى القدماء فى كتاب الطرطوشى

ولم تخف هذه القيمة عمن ترجم للمؤلف ولا عمن نقل عنه فابن فرحون (3) يذكر الحوادث والبدع بين تآليف الطرطوشى الحسان فى الرتبة الثانية وتعد تعليقته فى مسائل الخلاف .

ويقول فيه أبو شامة (4)

« وقد صنف الامام الشيخ ابوبكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ـ رحمه الله ـ كتابا ذكر فيه جملا من بدع الامور ومحدثاتها التى ليس لها اصل فى كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا غيره وهو كتاب حسن مشحون بالفوائد على صغره اخبرنا به شيخنا العلامة ابو الحسن على بن محمد الهمدانى قراءة منى عليه »

وكذلك فقد استمد منه ايضا ابن الحاج (5) بعض معلوماته وان كان لا يستعمله الا نادرا ولا ينقل عنه نقلا حرفيا .

---

(1) انظر عياض المدارك مخطوط تونس ج 2 ورقة 105 .
(2) انظر عياض المدارك مخطوط تونس ج 3 ورقة 24 .
(3) الديباج 276 .
(4) الباعث على انكار البدع والحوادث ص 10 .
(5) المدخل 4 ـ 276 .

محتويات الكتاب : يعرف الطرطوشى البدع فيقول :

« فان قيل لنا ٠٠ فما اصل البدعة ؟ قلنا ـ اصل هذه الكلمة من الاختراع ، وهو الشيء يحدث من غير اصل سبق ولا مثال احتذى ولا ألف مثله ٠٠٠ وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب وفيما تنطق به الالسنة ، وفيما تفعله الجوارح والدليل على هذا ما سنذكره فى اعيان الحوادث من تسمية الصحابة وكافة العلماء بدعا للاقوال والافعال » ٠

فكل ما احدث اذن « من غير اصل سبق ولا مثال احتذى » بدعة ؛ وكل بدعة منكرة فى نظر المؤلف الذى لا يشير ، ولو ادنى اشارة ، الى البدعة المستحسنة ٠ وحقل البدع شاسع جدا ، يعم جميع تصرفات الكائن البشرى من اقوال وافعال ، على ان كتاب الحوادث والبدع لا يتناول من هذا الحقل الا ركنا ضيقا جدا يهم مسائل قليلة كلها تدخل فى باب العبادات ٠

ان التقى الشعبى تمادى على اعتقادات وثنية لم تمح ، وابتدع عبارات لم تكن وعاج بعمل التقوى نحو اللهو تلك هى المنكرات التى سدد نحوها الطرطوشى سهامه ٠

اسلوب المؤلف فى النقل :

ان مصادر الطرطوشى كثيرة متنوعة غير ان الكاتب لا ينقل نقلا يفقد تآليفه كل طرافة ٠

فهو لا يذكر ـ وهذا يجب ان يلاحظ ـ مصنفات سابقيه فى فن البدع ، لا يذكر مثلا كتاب محمد بن وضاح ، الاندلسى ايضا ، ولا كتاب محمد بن سحنون ٠ فهل كان يجهل الكتابين ؟ ان كان ذلك فهو ، مهما يكن الامر ، لا يجهل المؤلفين اذ هو يورد بعض اقوالهما الفقهية ٠

ولا يجهل كتب الفقه عامة ، ، كالعتبية او المجموعة كما لا يجهل خاصة كتب الحديث التى تغذى بمادتها معظم الكتاب ٠ فلقد اكتال الطرطوشى من بحر الاثار العديدة الواردة فى أنكار الوان شتى من البدع كيلا وافيا ٠

لكن هل كان ذلك الاكتيال عفوا ، يخضع للصدف ، هل كان حبا فحسب فى احتذاء الاقدمين وانكار ما انكروا وان تغير الوضع ؟ كلا ان المشاهدة هى التى تشرح النقل وتكشف عن سر الاختيار ـ ينقل الطرطوشى من اقوال الايمة المحترمين ما فيه اعانة ء لى انكار ما يشاهد حوله ٠ ان فى تكرار الانكار دليلا على رسوخ العوائد المنكرة وثباتها وشيوعها فى زمن المؤلف وبعضها ما زال شائعا اليوم ٠

اذا ما اعتبرناً هذا اتضح لنا ان « الحوادث والبدع » لا يخلو من الواقعيات الحسية وانه لا يدخل تماما فى زمرة كتب الفقه النظرى ٠

الاسلـوب الجـدلى :

غير ان كتاب الحوادث والبدع ليس موجها الى العموم فحسب كى يقلعوا عما هم فيه من منكرات الامور٠ فهو موجه ايضاً الى الخصوم والمخالفين من اصحاب أبى حنيفة ، والشافعى ، ومالك ممن لا يطلع على اسرار المذهب واغوار الاصول ولم يتحقق بالكليات وانما نظر فى « الاطراف والجزئيات » فهو كتاب ارشاد من ناحية وكتاب جدل متحمس قاس احيانا على المعارضين من ناحية اخرى ، ألفه مولع بمسائل الاختلاف عارف بالاساليب المنطقية ، منـاقش لكل رأى ، ولو كان الرأى رأى مالك لا يدع فرصة تمر الا وابرز تناقض المخالف ودحض حجة بحجة مرددا ـ فان قال ٠٠٠ قلنا ـ حسب طريقة اهل الجدل المألوفة ٠

ولا يتورع الطرطوشى ، خلال نقاشه ونضـاله عن الاستنجـاد بالمعتـزلة كاصحاب اللطف منهم ليبين ما يوجد من حكمة الآهية فى تحريم القتـال فى الاشهر الحرم مثلا ٠

فالكتاب لا يخلو من بعض حرية فكر واجتهاد ٠ لكن يجب ان ننبه الى ان أقيسه الطرطوشى أقيسه فقهية كما يقول ابن رشد لا يؤتمن معهـا الزلـل ويغتفر فى شأنها الاضطراب وقلة الاحكام ٠

قيمـة الكتـاب :

لقد قصر الطرطوشى كتابه على تطهير العبادات مما دخلها من بـدع لكن هذا الكتاب يتعدى قيمة اليوم بالنسبة لنا هذا الهدف الذى رسمه له مؤلفه ٠ ان الشعائر لها محيط اجتماعى تقـام فيه ، ففى وصفهـا ووصف منكراتهـا خاصة ، وصف للبيئة واهلها ، وصف لا للتقاليد فحسب بل لعدد عديد ممن انكروها وممن انكر عنهم ، وصف لامزجة وعقليـات بسيطة شعبية كان لها اثرها البعيد فى توجيه الفقه الاسلامى واعطـائه تلك الصبغة الخـاصة التى جعلت منه سدى من اجوبة عن اسئلة ساذجة صادرة عن كل سليم صدر همه فى حكم دم البراغيث وشبهه ٠

ان كتاب الحوادث والبدع متين الصلة بالشعب ، اى انه شعبى فى تبويبه واستطراده فى لهجته ومشاكله التى يريد لها حلا ٠ عبثاً تبحث به عن عميق التأملات فهو يجهلها وعبثا تبحث به عن وضع الامور مواضعهـا من الخطـورة والتفاهة ، فهو يكاد يقسو عمن يشرب الماء غير مص او ياكل اللحم غير نهش قسوته عمن يحدث فى الدين زيغا والحادا : انه لا يعرف لسلم القيم كنها ٠

وهكذا تتجلى لك خلال الكتاب فلسفة خاصة تكشف عن بعض سر الماضي والحاضر ، فلسفة عمادها خلط الزمني بالروحي ووضع الامور كلها على بساط واحد سوى غير ذى عوج لا تبرز على سطحه فكرة تنير وتهدى ، ما سوى فكرة واحدة تشل فى الحقيقة اكثر مما تجذب • لقد آمن الطرطوشى ومن سبقه ومن لحقه من الفقهاء بأن العصر الذهبى وراء ظهورنا • فكل « تطور » يجب اذن ان يكون رجوعا وعوداً على بدء•وقد فهموا هذا الرجوع الى طهارة الحياة الاولى أسذج فهم• ارادوه رجوعاً لا الى القيم الروحية الخالدة التى تجعل كل أمة تحافظ على الامانة التى تكون روحها وميزتها بل الى طريقة لف العمامة حول الدماغ والاستيباك غير عرض • فنشأ عن هذا الاتجاه الفكرى حرص بليغ على وزن كل شىء فى الحياة بميزان الايمان والتقوى حتى الدقائق ، حرص أجف الدين وقصره على الشكليات ونزل به الى تتبع كل تافه من دون ان ينجح فى اقامة سد لا يدك ضد تيار الحياة وأن عاق وعطل المجرى واعان على الاستقرار والركود وعدم الايمان بالرقى من دون ان يمنع الفساد •

فهذا الكتاب يهم المشتغل بالتشريع الاسلامى كما يهم المؤرخ والباحث الاجتماعى • فهو كتاب أصلاح يستمد معينه من نظرية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ويدعو الى الرجوع الى السلف لا غنى لمن اراد ان يؤرخ يوما لحركة الاصلاح فى الاسلام عنه (*) •

محمد الطالبى

(*) هذا نص المقدمة التى كتبها الاستاذ محمد الطالبى لمخطوط الطرطوشى فى البدع الذى حققه والذى هو الآن تحت الطبع ، ننشره باذن المؤلف الكريم مع الشكر •

الثورة الكبرى

بقلم : الشاذلي بويحيى

لا شك ان الاسلام (*) احدث فى الامم العربية وغير العربية ثورة تعد من اروع ما عرفت البشرية من الانقلاب ٠

ولئن كان للفرس والروم والهند من الاخلاق والنظم والرقى الفكرى ما يميزها عن العرب قبل البعثة المحمدية « فالجاهلية » كانت تعم العالم باسره فلا حكمة الهند تعصمهم من اشتمال معنى الجاهلية عليهم ولا حضارة فارس ولا علوم الروم اذ «الجاهلية» غير الجهل ومفهومها غير ما يقابله العلم والمعرفة بل لا يقابله الا « الاسلام » فى معناه الاصح ٠



ذلك ان « الجاهلية » معنى للحياة ولون للمجتمع البشرى يتصف به من كان لا يدين الا بالقوة الغاشمة يخشاها عند ذويها ويسلطها على من استطاع تسليطها عليه والمثل الاعلى فى مجتمع هذا ديدنه يمثله بيت عمرو بن كلثوم احسن تمثيل اذ يقول ـ وكم ردد الاقوام قوله:

الا لا يجهلن احد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وتصفح تواريخ الامم واسال الصحف عن اخبار البشرية فى طويل آبادها عساك تجد أمة سنت لنفسها شرائع فى الحياة يكون الرمز لها والمثل الاعلى نقيض صهيل عمرو بن كلثوم فانك عبثا تبحث لان الانانية والعصبية والقهر ما فتىء البشر يخضعون اليها ويدينون بها وان سموها حمية او وطنية او حرمة وقد تدعو الديانات الى ما يصبو اليه العقل الحكيم لكن دعوتها وان زكيت فلم يكن للبشرية من نفعها نصيب يذكر ٠ فماذا اغنى بنى آدم ان دعت المسيحية الى التسامح وخفض الجناح والرحمة مكان القصاص ؟

لكن اعتبر الاسلام وتبين كنهه وحقيقة لفظه ومفهوم رمزه وقارن بينه وبين « الجاهلية » تر انه ما أتى به الا لمحو تلك الجاهلية بابطال مغزاها وابداله بالمغزى الذى هو مغزى الاسلام الحق ٠

(*) انظر الفكر السنة 5 ص 804 (عدد خاص : الثورة الكبرى) ٠

فالاسلام معناه المسالمة والسلام لا الاستسلام كما قالوا ولا يتم معناه الا بمقابلته بجهالة الجاهلية • وان رابك من ذلك ريب فابتغ له القول الفصل فى هذه الآية : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم **الجاهلون** قالوا **سلاما** » •

هم اولاء الجاهلون امثال عمرو بن كلثوم وامامهم عباد الرحمان يقولون لهم سلاما ولا يقابلون الجهل منهم بالجهل • فاعتبر •

وليس شأن الاسلام كاليهودية والمسيحية اذ هو لم يعن بالروح ومصيرها فى الآخرة فحسب بل كان همه الاول حياة الناس الدنيا ــ نقوله وان كره الكارهون : فلقد سن للناس شرائع دنياهم وجعل من قبائل العرب أمة واحدث فى قاحل ارضهم دولة لها نظمها وشعارها ونظر فى امرهم وفى ما بين امرهم وامر غيرهم من الامم واعلن الاخاء بين البشر ولم يعلن من قبله ولا من بعده فى ما علمنا وتلك هى الثورة الكبرى • فلقد جعل من تباين البشر سببا للتقارب والاخاء قائلا للناس :

« ••• انا خلقناكم شعوبا وقبائل **لتعارفوا** » • ولئن نزل الوحى فى أمة العرب فان نبيهم حذرهم الغرور فقال : « ايها الناس ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالاباء • ليس لعربى على عجمى فخر الا بالتقوى • كلكم لآدم وآدم من تراب » • وهكذا كون أمة من عدم اركانها الايمان والتقوى لا العصبية والمصالح فجاءت فى العمران البشرى مثلا اعلى حق لخالقها ان يقول لها : « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ••• » •

ان المفكر الحر المتجرد من التحيز الى القوم والتعصب للدين يقف من تاريخ العرب والاسلام وقفة المتسائل هل ان هذه الامة كانت كما وصفتها الآية أم لا • ويسأل التاريخ ويستنطق الواقع ثم يحكم ولا اخال مفكرا نزيها يقرر ان المسلمين أدوا الامانة فكانوا خير أمة ••• والتاريخ يشهد •

فنحن اذن بين امرين اثنين لا ثالث لهما • أما ان نقر بان المسلمين لم يؤدوا الامانة واما ان نحتار فى امر هذه الآية والواقع يخالفها فلا هم خير أمة ولا هم يأمرون بالمعروف ولا هم ينهون عن المنكر اذا ما فهمنا الامر والنهى باشتمالهما على الائتمار والانتهاء بادىء ذى بدء •

ثم هذه الثورة الكبرى وقد كانت ورأينا انها كانت فماذا فعلوا بها ؟ وماذا آل اليه عندهم امرها ؟ لقد اختصموا فى سقيفة بنى ساعدة والنبى لم يدفن بعد وكانت خصومتهم رجعة العصبية القبلية الجاهلية اذ الانصار يمنية والمهاجرون عدنانية والعداوة بين عدنان وقحطان قديمة ظن الاسلام انه محاها

بالدعوة الى الاخاء • ولقد احدثوا بعيد ذلك الحدث الاعظم بقتلهم عثمان فكان فاتحة « الفتنة الكبرى » التى لم يمح أثرها الدامى فى الاسـلام يوما • وقد يعللون فعلتهم تلك بالذب عن عدالة الاسلام ومساواته ومقاومة محاباة القرابة وهل علموا ــ سامحهم الله ــ أن صح مزعمهم ــ ان كان لعثمان راى فى تشييد دولة لا تقوم الا على « عصبية » فاختارها لها فاتخذ له ولدولته « عصبية » من بنى جلدته • فلعل عثمان اول خليفة فكر فى اقامة صرح دولة فى الاسلام وقد حقق ذلك بعده اهل عصبيته بنو أمية • ثم كانت سلسلة من الاحداث هددت كيان الاسلام بله روحه فقد كاد ينساه القوم بل لعلهم نسوه : ذلك انك تترك حروبهم وجدالهم وتنازعهم وتفرقة كلمتهم وانخذالهم وتنظر الى ما هو صميم الدين الى اعتقادهم وتفهمهم الدين والاسلام واذا بك ترى بعدا عن الاسـلام بعيدا • واذا ما قدرت هذا البعد بقيس معتقدهم ووهمهم وتهافتهم بما كنا بينا من روح الاسلام ومغزاه علمت ان الثورة لم تكن الثورة الكبـرى • وعندئـذ عليك ان تبحث عن السبب فى ذلك علك تهتدى الى الاستنارة فتعلم لمن الذنب هل هو ذنب الاسلام عجز عن هدف رامه ومثل ادعاه أم الذنب ذنب المسلمين • اما نحن فقد ادعينا عليهم عدم اداء الامانة فقلنا قولنا •

تلك هى قصة الاسلام والمسلمين والثورة الكبرى جاءهم بها فعطلوها •

فما سر اجرامهم وما سر الاخفاق وهل فى ذلك عبرة ؟

ان ميزة الاسلام النبوة • بل الاسلام هو النبوة • فالذى احدثه فى الناس من عارم الانقلاب الفكرى والاجتماعى لا يمكن ان يكون فى الفتـرة القصيرة التى كانت فترته الا على طريق « نبوة » تأمر وتنهى وتعلم وترشد فيأتمر القوم وينتهون ويعلمون ويرشدون وذلك هو تقبل النبوة ولن يتم امرها ولن تكون الثورة الكبرى الا اذا كان منهم الامتثال المستميت • ولقد علموا ذلك علم من كان يؤمن بنقصه • علموا انهم يصلون بقوتهم الضعيفة وبعقليتهم الصغيرة وبفكرهم الخطل الى ما فتح الوحى اعينهم عليه من شاسع الآفاق فى عالم الكون والانسان والاخلاق والمعانى • فرضوا بالامتثال فقالـوا او أمـروا فقالـوا : « سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » •

وبذلك كفتهم النبوة مؤونة كدح الفكر فى الزمن الطويل • فأنزل عليهم الوحى منا من السماء فتقبلوه شاكرين واقبلوا عليه يلتهمونه التهام اللقمـة الباردة السائغة فاغفلوا منها ما لم يكن ثمرا لذيذ الاجتناء •

ذلك ان المسلمين لم يفهموا امر النبوة أو هم فهمـوا منهـا ما أرادوا أن يفهموا وما زينته لهم منها انفسهم فرأوا فيها المن والسلوى ورأوا فيها النعمة من رب غفور رحيم لكنهم أبوا ان يروا فيها المسؤولية وحمل العبء الثقيل بل والعمل المخلص • رأوها مطية لعيش رغد فى الدنيا ومثال سعيد فى الآخـرة

فاستبشروا وتباشروا وتمتعوا في العاجلة وتواعدوا بالفوز في الآجلة وكانوا كما وصفهم شيخ المعرة متمثلا بقوله تعالى : « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » • حمدوه على غبطتهم • حمدوه على تيسير أمر دنياهم وآخرتهم بأن نالوا ووعدوا فيهما « اللذة القصوى » •

فهل منهم من فهم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر غير الامر والنهي فائتمر وانتهى قبل أن يأمر وينهى ؟ وهل منهم من ايقن ان «النفس المطمئنة» نفسه هي هي «النفس الامارة بالسوء» فحذرها دون ان يطمئن الى اطمئنانها ؟

ههنا في الاسلام مبدآن هما كنه النبوة اذ عليهما يقوم الصرح صرح المجتمع في اصلاح الانسان ما بنفسه واصلاح ما بغيره اعتمادا على صلاح نفسه فيكون لغيره المثال والقدوة • هذان مبدآن هما اسمى ما تتسم به شريعة فغيروهما وعبثوا بهما واستباحوا بعنوانهما ما لا يحصى من الاثم والجناية فكانت الفتن والحروب في قساوتها وفظاعتها • وكانت الانانية والانهماك في ارضاء الشهوات وجرهم ذلك الى انتهاك حرمة اسمى ما جاء به الاسلام من مبادىء وهو قوله تعالى « ولقد كرمنا بني آدم » وعبثهم بكرامة الانسان كانسان امر غريب الشأن عجيب •

بيد ان المسلمين اشد الناس حرصا مع ذلك على استقامة احوالهم وفزعا من انحطاط امتهم وغيرة على مبادىء دينهم السامية فلم تعرف أمة ما عرفه المسلمون من وعاظ ومحتسبين ونعاة على الجبابرة والفاسقين ورثاء لتقلص ظل مملكتهم ودوس الاعداء حرمتهم والنيل من كرامتهم وما انفكت يوما تثور حميتهم في غليان قد لا يوافق احيانا ركود القوم وضعفهم •

ذلك لان تلك الثورة كانت قد كانت فلم تمح من اذهانهم طيلة تاريخهم ولم يطمئنوا يوما الى انها قد خابت واخفقت فأملهم دوما حي وثقتهم في الفوز فوزا نهائيا قوية راسخة وهو من أعاجيب الاسلام والمسلمين على مدى تاريخهم • فاذا اقبلت على هذا الامل وهذه الثقة بالتحليل ـ وهما ما نجى الاسلام من الاندثار ـ رايت ان السر في ذلك هو النبوة ايضا او شيء كالنبوة • نقول هو شيء كالنبوة لعلم المسلمين ان محمدا آخر الانبياء فلا نبي بعده • فمن يا ترى على يده يكون الاحياء والبعث والثورة او رجعة الثورة ؟ هنا قد يشارك المسلمون غيرهم من امم كثيرة في انتظار المنقذ لهم مما هم فيه من سيء الحال • فلقد انتظر اليهود « مسيحا » وما زالوا ينتظرون • وهم ايضا قد هدهدتهم امنية طالما تحققت لديهم فارسل الى انقاذهم الانبياء تلو الانبياء اما المسلمون فقد اغلق عليهم باب النبوة بعد ان تذوقوا لذيذ طعمها فما كان ليضورهم ذلك اذ سرعان ما فشت في اوهامهم فكرة المهدي المنتظر يأتي وقد امتلأت الارض ظلما وجورا فيملأها عدلا وانصافا •

وكان ما كان من جراء هذا الحلم وهذا الانتظار · فكلما قام قائم وادعى الاصلاح تبعه من المسلمين من تبعه فاحدثوا الفتنة والتفرقة · ويكبو القائم وينهزم ويفتضح امره فيظهر ادعاؤه جليا لكن ذلك لا يمنعهم من استجابة داع يدعوهم بعده وآخر ثم آخر وما ذلك الا لانقيادهم الى من يرقبون منه صورة للنبوة وان كانت ضئيلة وقد يحجم عقلاؤهم عن هذا وينهونهم ويحذرونهم عاقبة الاغترار بدعوة الكاذبين المدعين لكن هؤلاء العقلاء انفسهم لم يشذوا عن القوم فى انتظارهم « نبوة » فى صورة مصلح يرسله الله على راس كل الف سنة لاصلاح ما بأمته اى لاعادة جنات النعيم عليهم لا «لتحريك السواكن» من بينهم واعتقد ذلك الامام الغزالى وغير الغزالى ولذا ترى المسلمين أسرع الناس الى تلبية دعوة الداعى الى الصلاح · ونجاح المصلحين فى الامة الاسلامية مدى تاريخها يدعو الى الاعتبار وان قصر اجل فوزهم غالباً فمات بموت القائم لاعراض القوم عن الامر اذا غاب صاحبه وقد تنبأ لهم القرآن بذلك عندما حذرهم قائلا : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ··· » ولعل سر هذا النجاح وسهولة انقياد المسلمين الى كل مصلح داع الى الرشاد ظاهرة من ظواهر امر وخم مؤسف بينما قد يظنه الغافل ظاهرة محمودة من ظواهر الصلاح : فلقد تكون ظاهرة صلاح لو كانوا فى تلبيتهم دعوة الداعى عازمين على العمل معه مثله لا على التوكل عليه والاقتصار على مؤازرته وان ابلوا فى تلك المؤازرة البلاء الحسن · فموقفهم من المهدى أو مدعى الامامة وموقفهم من المصلح الموعود به او المصلح القائم بين اظهرهم هو موقفهم من النبوة · موقف سلبى يرجو من « النبى » او القائم مقامه ان يعمل دون ان يروا وجوب « العمل » على كل فرد منهم عملا مخلصا لا يرجو صاحبه من ورائه جزاء ولا شكورا بل هو ليس العمل تلبية وامتثالا انما هو العمل اندفاعا ويقينا فى اخلاص لا يكون الا اذا كان بينك وبين نفسك · وهذا هو العمل الذى جاء فيه قوله تعالى : « وقل اعلموا فسيرى **الله** عملكم ورسوله والمؤمنون » وهذا العمل ليس مجرد الانتصار الى نبى او امام او مصلح او زعيم انما هو العمل اليومى الفردى والجماعى الذى يجعل من الثورة الثورة الكبرى ·

فأنت ترى انه قد كانت الثورة وكانت حقا الثورة الكبرى او قل انها كادت تكون الثورة الكبرى : فقد القيت اليهم النبوة فلم يحسنوا فهمها ولم يؤدوا الامانة فان كانوا مسلمين فهل هم مؤمنون ؟

والتاريخ يعيد نفسه احيانا لان البشر بشر على مر الدهور وقد يتاح للناس بين الحقبة والاخرى ثورة فيها فوزهم اذا ما عرفوا تقبلها فجعلوا منها الثورة الكبرى اى الثورة الحق ·

واعتبره حولك وما الحق منك ببعيد ·

الشاذلى بويحيى

تونس بين الشرق والغرب

بقلم : محجوب بن ميلاد

تعرض المحاضر (*) في بدء محاضرته الى الاستقلال الذى كلل كفاح « تونس الجديدة » والى مسؤوليات الاستقلال والى المشاكل المعقدة المتعددة التى ورثها العهد الجديد عن العهد القديم فبين انه يجب حل تلك المشاكل جميعها لا بالاستناد الى مبادىء افلاس عقلية الامس فى ظلمة اوهامها وجهالاتها بل على ضو اصول العقلية التونسية الجديدة التى آلت « ان تصلب قناتها الى ان تلين الحوادث والا تلين قناتها مهما صلبت الحوادث » ثم انتهى الى مشكلة اتصال تونس بالشرق والغرب فقال :



... قد تكون المشكلة التي تجمع بين كل المشاكل وتهيمن عليها فتخلط بين كل الحقائق وتحيط كل الامور بجو من اللبس القاتل مشكلة اتصال تونس بالشرق والغرب !

تونس بين الشرق والغرب • ؟

هذا هو المشكل الرئيسي ... الذي يجب علينا طرحه وتبيان بعض عناصره ومعطياته ...

هذا هو المشكل الذي يجب ان نعطف عليه بكل ما اوتينا من قوى التمييز والتبصر وبكل ما لدينا من نور الحدس كي لا تخفى علينا دقيقة من دقائقه او لطيفة من لطائفه وبكل ما لدينا من حماسة صادقة وحمية

---

* من محاضرة القيت في غضون هذا الشهر بقصر الجمعيات الفرنسية تحت اشراف « فوج المستقبل » احد افواج الجمعية التونسية لقوافل الشبان .

• أنظر الفكر السنة الاولى العدد 7 ص 11

بصيرة كي يمكن لنا ان نجد له حلا لا يكون حكيما الا اذا بني بآجر الاخلاص لجميع خصائصنا الجوهرية والبر بها ...

وليس يكفي ان نحشر انفسنا في زمرة الدراويش والمشعبذين وان ننفخ في بوق العروبة والاسلام وان نصم آذاننا دون ما ليس العروبة والاسلام لنوفق الى الحل المنجي !

فالمشكلة دقيقة ما امكنت الدقة، معقدة ما امكن التعقيد ... ولهي تتطلب جرأة في مقتحمها وبعد نظر وعلو همة وقدرة على الابتكار والكشف واخلاصا للذات مثلما تتطلب خبرة دقيقة في ميادين مختلفات لاشتمالها على جوانب متنوعة ناهيك انها تنطوي على معطيات تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية وفنية وثقافية وخلقية وروحية ! هي مشكلة جزئية في الظاهر ولكنها في الحقيقة صورة مختصرة من الحضارة الانسانية في شمولها .. ولذلك فانها تستحق تاليفا ضخما يكون تحليلا دقيقا مستفيضا يستوعب جوانبها كلها ! وقد يحتاج مؤلفه الى انوار علوم عديدة وفلسفات ليضيء كل تلك الجوانب !

فليس اذن بالاستناد الى مبادىء افلاس عقلية الامس ولا في ظلمة اوهامها وجهالاتها ولا على نغمة قضايا دجلها وتمويهها يمكن حل هذه المشكلة ولا غيرها من مشاكلنا الحيوية ...

* * *

ان لتونس موقعا ممتازا من الناحية الجغرافية، فهي تقف فيصلا بين الحوض الشرقي والحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط. ولهذا الموقع الجغرافي يرجع جزء غير قليل من العوامل التي جعلت من تونس أداة الوصل بين الاقطار الشرقية وغربي البحر الابيض المتوسط والمغرب العربي. لذلك كانت معبرا طبيعيا كثيرا ما عبر منه الغزاة الزاحفون شرقا او غربا. ولذلك كانت على اتصال دائم بما يجد من الحضارات على سواحل البحر الابيض المتوسط ... فانتقلت طورا بعد طور من اتصال بالفينيقيين في عهد قرطاجنة الى احتكاك عنيف بالرومان الى اتصال بالعرب وبالاسلام الى اتصال بالاسبان الى اتصال بفرنسا والفرنسيين في العهد الاخير .. فكان لكل هذا آثاره البليغة في نحت « ملامح الشخصية التونسية » نحتا خاصا وفي تلقيح القريحة التونسية تلقيحا متجددا مع العصور فاضحت قريحة خصبة، ثرية، ممتازة، تتقد

ذكـاء، وتضطرم عزما رغـم ما يبدو عليها من لين العريكـة ودماثـة الاخلاق وحرص على الآداب واللطف وحسن المعاشـرة ... ولست مغاليا في شيء عندما اقول ان القريحة التونسية ثرية ما امكن الثراء بكنوز ذهنية وكنوز ارادية وكنوز وجدانية قد تغبطها عليها غير ما امة من الامم التي تعد في زمرة اعرق الامم في الحضارة ... وليس فيما اقـول ما يخدش التواضع التونسي او ما يمكن ان يلصق بنا تهمة الادعـاء... فما اقوله هو الحق، بدليل من انجبتهم تونس من شخصيات عديدة تعد من افذاذ رجالات التاريخ في الماضي وفي الحاضر بالرغم من انها اجتازت ظروفا تاريخية عصيبة لم تكن دائما لتساعد على ظهور تلك الشخصيات الفذة. وانه ليمكن ان يؤلف تاليف رائع عن خصب « الحقيقة التونسية » وعن كنوزها الذهنية فيكون ذلك التاليف مشاركة في وصف الانسانية عامة بوصف نماذج من اروع نماذجها في اعلى قممها الفاتحة ! ...

ومما لا شك فيه ولا خـلاف ان الحادث التاريخي الحاسم الذي طبع الشخصية التونسية بطابع لا يبلى مع ممر الدهور هو الفتح الاسلامي فاضحت امة من الامم العربية لغة وادبا وفنا، الاسلامية احساسا ومعتقدا ومبادىء وقيما !

فتونس – من هذه الناحية – جزء لا يتجزأ – الا بضرب من العسف – من الانسانية العربية الاسلامية ... والاخلاص لذاتها يحتم عليها ان تخلص لماضيها ولما ورثته عن الماضي من لغة وآداب وقيم ... ولما بقي في قـرارة نفسها وحي احساسها من رواسبه الرائعة...

لاجدال في هذا ! فهو امر جوهري، وليس يمكن ان يتطرق الجدال اليه فيمس دون المساس بالذاتية التونسية وبمقوماتها الجوهرية...

وانما الجدال في طريقة الاخلاص للذاتية التونسية وفي معرفة مقومات الذاتية التونسية في حقيقتها الصافية لا فيما انطلت به من ضروب تصرف الدهور وفي تسطير دائرة اتساع ذلك الاخلاص للذاتية التونسية ولمقوماتها : اين تبتدىء واين تنتهي ؟

ولنسجل في هذا الصدد ان المشكلة لا تهم تونس فحسب بل تهم الاقطـار الاسلامية كافة ! ...

فالهيكل الاسلامي تراكمت عليه اكداس مكدسة من الاوهام والجهالات خلال عصور افلاسه فالتصقت بعناصره الجوهرية فاضحى البعض يظنها من الهيكل وليست منه ! ..

وانه ليمكن لك ان تقول ان « الهيكل الاسلامي » اصبح له لا وجه بيّن الملامح، واضح الخطوط، بل وجوه مطموسة لست تميز دائما الجوهري منها من العرضي ولا اللبوب من القشور.

وليس من شك في ان الادباء والمفكرين الاسلاميين الذين انتبهوا لذلك – دقيق الانتباه متبصره – انما هم الادباء والمفكرون الذين احتكوا بالغرب وبالغربيين واطلعوا على طرق تفكيرهم، ومناهج ابحاثهم، ومذاهب فلسفاتهم ووسائل صنائعهم، وكشفوا عن اسرار تفوقهم وهيمنتهم على شؤون الحياة وشؤون العالم !

ولست ممن يقولون بضرورة تقليد الغرب والغربيين في كل ما يذهبون اليه وكل ما يصطنعونه لانفسهم من العادات والتقاليد والازياء ... لايماني الراسخ بان « البعث الشرقي » ليس يقع عن طريق التقليد وسفه التقليد وانما يقع عن طريق يفاع الاجتهاد ورشد الابتكار واقتدار الخلق .

فلئن دعا بعض الادباء الاسلاميين من ادباء الجيلين الماضيين الى مثل ذلك التقليد فلهم عذرهم بل اعذارهم ... لانبهارهم بالحضارة الغربية ولعدم نفاذهم الى اغوارها ولعدم تيقظهم الى ما ينخر « الهيكل الغربي » من جراثيم هدامة جعلته يشكو – هو ايضا – ازمة معنوية لا مثيل لها فابدلت بوجوه مطموسة وجها كان نيرا في عنفوان شبابه ونخوته !

لذلك ارى – فيما يخصني – ان المشكل اليوم بالاضافة الى الاقطار الاسلامية عامة والى « تونس الجديدة » خاصة ليس ينحصر في تقليد الغرب او في عدم تقليده بل في تصفية « الحساب الغربي » وتصفية « الحساب الشرقي » حاسم التصفية للاهتداء الى « الحلول المنجية » في جميع الميادين !

واني لاومن بان « تونس الجديدة » تتمتع في هذا الصدد بمنزلة ممتازة من شانها ان تمكنها من قدرة استثنائية على المشاركة في تلك التصفية طريف المشاركة ! فهي تطل على الشرق مثلما تطل على الغرب!

ولهي تشعر شعور الدقة، وشعور التمييز، وشعور الوضوح، بما لهذا وذاك من صارخ المساوي ومن رائع المحاسن !

وان اهتداء « تونس الجديدة » الى « المعارج الناموسية » التي هي عندي نير معارج الشعور بالذات في استقلال انفاسها وقداسة اشواقها ليلقي على عاتقها مسؤولية شريفة هي مسؤولية الاخلاص لجوهري الامور وجوهري القيم مما هضمته رائع الهضم من هذا وذاك فاضحى لحمها، ودمها، وفيض احساسها، ونور فكرها، ونار عزمها !

وان نحن اردنا ان نجمل القول عن موقف « تونس الجديدة » من الشرق والغرب قلنا :

ان كان جوهر الشرق انما ينحصر فيما لأعلامه الاحياء من اخلاص لجوهري الامور من شؤون الحق والخير والجمال على نمط اخلاص الجاحظ، وابن المقفع، والامام الجويني، والامام الاشعري، وابي حيان التوحيدي، وابن سينا، وابي حامد الغزالي، وابن رشد وابن خلدون وزملائهم العديدين وفيما نمت عليه مؤلفاتهم وآثارهم من تفاعل حي بين موروث القيم الاسلامية والعوامل النفسية الفردية فنحن شرقيون تجول نفوسنا في « ابعاد فكرية » عربية اسلامية جولات الانفاس الحرة والانفاس المخلصة للذات، في سنن اجتهادها الخلاق الفاتح !

على ان هذا ليس معناه انا نوصد ابواب نفوسنا دون تفكير الاعلام من المفكرين الاجانب، مهما تكن جنسيتهم، مثلما انهم لم يوصدوا ابواب نفوسهم في عصورهم الخوالي دون اروع ثمار الفلسفة اليونانية والتفكير الفارسي، والحكمة الهندية ...

اما اذا كان الشرق ما ورثناه عن عصور انحطاطه من غباوة التقليد وضيق آفاقه، وقصر نظره، وجبنه العقلي امام الواقع، وتغافله عن سنن الواقع وفراره امام الاضطلاع بمسؤوليات الحياة الفكرية ورشد الحياة الفكرية فان « تونس الجديدة » ليست من الشرق ولا الشرق منها !...

فتونس الجديدة احرص ما تكون على ان تخلص لماضيها ولما بقي راسبا في قرار نفسها من رائع رواسب الماضي ولكن مع الاخلاص لواقعها الحاضر ولاخص خصائص العصر الحاضر اعني لحرصها الجوهري على ان توفر لنفسها في « العالم العصري » عوامل العزة والقوة واسباب الحياة الحرة السعيدة ! ...

وفي هذا ما يحدد بالضبط موقفها من الغرب :

فان كان الغرب بصرا بالواقع وكشفا عن نواميس الواقع وسنة عقلية صارمة تقصد الى معرفة اسرار الواقع والى معرفة وسائل الهيمنة على الواقع، ونظاما دقيقا يربط فوضى شؤون الواقع في عقد نضيد « فتونس الجديدة » من الغرب والى الغرب ترنو ! ...

اما اذا كان الغرب كفرا بالانسان وبقيمه العليا وصلفا يقصد الى استغلال الانسان والهيمنة على الانسان حتى عن طريق هضم الحقوق الانسانية ودوس الاخلاق في نطاق جشع الاطماع وضراوة الغرائز « فتونس الجديدة » ليست من الغرب ولا تريد ان تكون من الغرب لان عصور الانحطاط وجهالات الانحطاط لم تمح من ذاكرتها اذ مشعل الشرق حمله - على حد تعبير ميخائيل نعيمة الكبير - « نبي عزيمة الارض في رجليه وقوة السماء في ساعديه وبهاء الحق في ناظريه ووداعة المعرفة في لسانه وحلاوة المحبة في قلبه »

وصفوة القول فاني اومن بان « تونس الجديدة » في امكانها ان تكون في طليعة الامم الاسلامية من حيث انها تشعر - حاد الشعور - بضرورة تصفية « حسابها الفكري » وبضرورة رفع كل ما تراكم على « الهيكل الروحي » الاسلامي من الغبار ايام عصور الانحطاط كي تحرك منه ما سكن، وتمرن ما جمد، وتضرم ما خمد، وتقوي ما وهن، وتصلح ما فسد، وترمم ما انهدم، وتنظم ما انصرم على ضوء ما كرعته من علوم العصر وفنون العصر في الجامعات الغربية وعلى ضوء ما يسطع في اعماق احساسها من نجوم الحق والخير والجمال !

وانها اذ تشرع لنفسها هذا « الشرع الفكري » لموقنة بانها لا شرقية ولا غربية لانها تجمع - جمع الروعة - بين الشرق والغرب في ازكى معانيهما واسمى قيمهما وتستقل عن هذا وذاك اذ تخلص لاعمق مشاعرها وعرائس تفكيرها وصدفات بكر احساسها !

ولو كان لنا متسع من الوقت لبينت لكم انه ليس هنالك منافاة او تضاد بين قيم الغرب وقيم الشرق عندما نحسن تصفية حسابيهما ! وليس في الجمع بين قيم الغرب وقيم الشرق ما يمكن ان يلصق بنا تهمة الخلط الرخيص او التلفيق الشائن !

لو كان لنا متسع من الوقت لبينت لكم ان دراسة العلوم والفلسفات

العصرية في الجامعات الغربية هي التي مكنت « تونس الجديدة » من الغوص عن روائع التفكير الاسلامي والفلسفة الاسلامية .

لذلك كانت عناصر عقلية الامس اعجز الناس عن فهم التفكير الاسلامي والسنة الفكرية الاسلامية في اروع مظاهرها واعمق معانيها واوسع ابعادها — واعجز الناس، بالتبعية، عن الوقوف للدفاع عنها والانتصار لقيمها. فافلاسها الصارخ في هذا الميدان يحرمها حق الدفاع عن المبادىء الاسلامية لانها اضحت لا تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة الشريفة اضطلاع البر والتبصر ...

وذلك الافلاس يحتم عليها امرين اثنين : ان تلازم الصمت فتنتهي عن زرع بذور الفوضى والبلبلة في العقول والاوضاع وان تتلمذ، من جديد، لمحاولة ادراك ما هي غير قادرة على ادراكه الآن..

ولو كان لنا متسع من الوقت لاطنبت القول في شرح « الكفاح السياسي » التونسي العصري فهو يقف حجة دامغة على نضج « تونس الجديدة » بل على توفيقها الى سن شرع سياسي جديد للعالم باسره ...

فهو « نموذج رائع » مما تقتدر عليه « تونس الجديدة » في الجمع بين القيم الشرقية والقيم الغربية بل في صهرها في بوتقة واحدة هي بوتقة العقلية التونسية الجديدة المخلصة لماضيها وحاضرها معا نابض الاخلاص ...

ولذلك يمكن ان نقول انه « الكفاح السني » الذي يرضي الشرق ويرضي الغرب في حين واحد : فهو ينم عن حنكة سياسية نادرة تدل على الخبرة الدقيقة بنواميس الواقع وسنن الواقع وعلى المعرفة البصيرة بطرق « عض الواقع » والهيمنة على الواقع بالتغلب على عقباته وتذليل صعابه والسيطرة على حوادثة وشؤونه مثلما تدل — دلالة واضحة — على الغيرة المتقدة على الحق والعدالة والحرمة البشرية ... فلا اعوجاج في الطرق ولا غدر ولا تدليس ... هو الحق في صراحته وفي صرامته ... وهو الاخلاص في اضطرامه ... وهي « الطلعة المستقيمة » في تحديها الباطل، وغلابها البغي، وصراعها الشر ! ...

لئن كانت « تونس الجديدة » تتقمص في الميدان السياسي في شخص بطلها الحبيب بورقيبة فانه يمكن لنا ان نقول ان معجزة تونس الجديدة، معجزة الحبيب بورقيبة، ان احرز نصرا مبينا وليس

في يديه من العدة سوى « الهباء » ... على حد تعبيره !

من هباء من الافراد كون حزبا سياسيا عتيدا، فامة متحدة، شاعرة بذاتها وبغايات كفاحها ...

هذا في الداخل !

اما في الخارج فاني لم اكن معه اذ اختلف الى الشرق ولكنه يمكن لي الجزم – حدسا – بانه – ولا شك – اصطدم هنالك بعناصر عديدة من عناصر عقلية الافلاس الشرقي وبما فيها من رسوم الافلاس : الفوضى العقلية، وظلمة الاوهام والدجل والتمويه، ووهن الارادة، والدعوى العريضة ! ..

واني لاتصوره معالجا « هباء » تلك العناصر مثلما عالج « هباء » الافراد بتونس رجاء ان يكون منها السلاح الذي سيكون له مفعوله في ترجيح كفة الميزان يوم يجد الجد ! ..

واني لاتصوره – هيامي الطبع على حد اصطلاح علماء الطبع – لا ينفك يقلب الامور على جميع وجوهها ولا يفتا يبحث عن « الثغر » الذي سينفذ فيه سهام ارادته وسنان شوقه او عن المنطقة التي سيتخذها ميدانا للوثبة الجريئة والانطلاق الفاتح ! ..

والسر، كل السر، في اقتداره على تصريف الامور ينحصر في الخبرة الدقيقة بالمسائل، وفي تنسيق الوسائل والغايات، والشعور البصير بنواميس الواقع وسنن الواقع، وبالفيصل الذي يفصل – في ظرف من الظروف – بين الممكن » و« المستحيل » ... وانه لفيصل عجيب لا يقرله قرار ! هو كالظل يظنه الرائي ساكنا وليس بساكن ! اعنى بذلك ان ما يبدو مستحيلا اليوم قد يكون ممكنا غدا بتوفر ما لم يكن متوفرا من الاسباب.. فكان لابد لمن اراد تغيير مجرى الامور وتحوير الاوضاع ان تكون له « حاسة خاصة بها يكون متيقظا دائما لكل ما يجد من الامور في عالم الواقع وشؤونه !

والحبيب بورقيبة اوتي من هذه « الحاسة » الشيء الكثير .. بها امكن له ان يتجسس وراء الواقع وان يتحسس مفاصله ليعرف ما يجب اعداده من العدة لتحقيق ما تطمح اليه نفسه الكبيرة وليدرك « متى » يجب الاندفاع و « متى » تحق الوثبة الجريئة و « متى » يجب التريث والانتظار ... وبها امكن له ان يجمع بين الاضداد :

حذورا في ظـروف، جسورا في ظـروف .. وهو سر الاخطـاء التي كثيرا ما وقـع فيهـا الناس خـلال اطوار كفاحـه فرماه البعض حينا بالتهور ورمـاه البعض حينـا آخر بالغلـو في الاعتدال .. ولكنهم هم الذيـن لا يفقهـون لانهم لا يتمتعـون – بمـا يتمتع – من انـوار تلـك « الحاسـة » التي تفصل بين « الممكـن » « والمستحيـل » اثنـاء سيـر الحوادث ! ...

وهل تظن المتنبي وصف شخصـا آخر غير الحبيب بورقيبة او شيئا آخر غير تلك الحاسة اذ قـال :

« ذكي ، تظنيه طليعة عينـه : يـرى قلبـه في يومـه ما ترى غدا ؟ »

ولا ريب ان تلك الحاسة اذا ما توفرت لشخص وكـانت له ارادة حديـدية تقوى على قلب ما يجب قلبه وتصبر على ما يجب الصبـر عليه من المحن وتثابـر على العمل لاعـلاء كلمة ما تريـد اعلاء كلمته من المثل العليـا فان الواقع لابد خاضع -- طال الزمن ام قصـر – لما تريـده تلك الحاسة وتلك الارادة وذلك الصبـر وتلـك المثابـرة ويكـون ما لابد ان يكـون : ان تمتلـيء الاجـواء الانسانية بفوّاح عطـور البطولـة الحق وان يصهـر الواقـع بنار البطولـة الحق فتثب الانسانيـة وثبـة الحياة في ظل الحـق ويحس البشـر احساسا قويـا بان صفحـة من صفحـات الابـداع قـد تمت اضافتهـا الى قـديم صفحـات الابداع في الوجـود ! .. وتتالق نجمـة جديـدة في سمـاء تـونـس .

ومجد الحبيب بورقيبـة أن كان تلك النجمـة الجديـدة في سماء تونس.

ولست ادري هل يعرف الحبيب بـورقيبـة انه اكتشف من جديـد – عن طريق حي تجاربـه النفسية وعن طريـق كفاحـه السياسي الجـزيل زبـدة السنة الاسلاميـة في اخص خصائصهـا : من تيقظ للواقع وسنن الواقع ومن تجسس على « مفاصيل الوجود »للهيمنة عليه ومن حرص على الحق وسنن الحق ومن ايمان بان « الحق » هو العمـود الفقري بالاضافة الى «الطلعة المعنـوية » الانسانية في صدق اندفاعـاتهـا ونخـوة تحدياتهـا ومن ايمان!. بالايمـان الذي يقلقـل الجبـال ! ..

في هذا على كل حـال سر استشهـاده – دائمـا – بالاحاديث النبوية وباي القـرءان في خطبـه .. وان ظن البعض انـه يتملق بذلك احساس العـوام .. ولكنهم هم الواهمـون ! ..

وبعد فهل تظنونني حدثتكم عن الحبيب بورقيبة وعن كفاحه السياسي

وعن نصره المبيـــن ؟

الحقيقـة هي اني حدثتكم عن « نمـوذج حي » محسوس مما لوحت اليه في غضون المحاضـرة عن اقتدار « تونس الجديـدة » على ان تذيب في عقليتها الخصبـة المضطرمة الجديـدة خصائص الشرق وخصائص الغرب معا فتجمع بين هـذه وتلك جمع الروعـة وجمع الطرافـة ! ..

واني لاومن — فـواح الايمـان عميقـه — بان « تونس الجديـدة » لا يمكن لها ان تخلص لماضيهـا ولقيم ماضيهـا ولحاضرهـا ولاشواقه الحاضـرة الا اذا ما وفقت الى الاخـلاص لما في نفوس ابنائهـا الاحيـاء من كنوز ذهنيـة وكنـوز اراديـة وكنوز وجدانيـة هي « راس مالهـــا » الذي لا يبلى وعـربـــون مستقبلهـا الزاهـر ! ..

واني لاومـن — راسخ الايمـان — بان المشكلـة التي حاولـت استخلاص بعض عناصرهـا : مشكلة اتصـــال تونس بالشرق والغرب، هي مشكلة تربويـة في جوهـرهـــا .

لذلك ليس يمكن لي في خاتمـة هذا الحديث سوى التلـويح تلويحا خاطفـا كالبـرق الى المسؤوليـة المرهقـة الملقـاة على عاتق وزيـر التربيـة...

فاصلاح نظمنـا التربـوية اصـلاح الحكمـة واصـــلاح البصـر بدقائق التربيـة وبمهامهـــا هو الذي سيمكن « تونس الجديـدة » من العناصر الناتجة عناصر الاضطـلاع باعبـاء الاستقـــلال ورشـد الاستقـلال في نطـاق الاخـلاص لانسانيتنـا الطـريفـــة !

محجوب بن ميلاد

شبـــاب

بقلم : الصادق مازيغ

يا لها من لفظة (*) سحرية مشحونة رؤى مترعة احاسيس مترنحة احلاما تتحرك لها الخواطر وتتجاوب الاصداء فى قرارة الوجدان · الشباب ربيع الحياة ، والربيع شباب العام · انه المرحلة المزدهرة الخضيلة اليانعة من الكيان الانسانى الارضى ، تلك المرحلة العجيبة القشيبة التى فى المهد تتشوف اليها بسمات الطفل، ثم تنقطع عليها انفاس من افتقد الشباب· انه القمة من الحياة ، وهو موطن الفردوس من عيشنا المحدود بالزمان · وما اخطأ من قال



يا للشباب المرح التصابى
روائح الجنة فى الشباب

الشباب حقبة النشاط الانسانى فى مختلف ميادينه ، وشتى نواحيه ، فخلال فترة الشباب تبرز الامكانيات ، وتبطل او تتجسم التكهنات · وخلالها تتم صورة بناء هيكل الانسان جسدا وروحا · انا خلقنا الانسان فى احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين · فالى الشباب منتهى مناهج التنشئة الانسانية ، وهو قطب الدائرة ، والمحور الذى عليه دارت الدواليب الحية التى تقرر مصائر الافراد والمجتمعات ·

الشباب غاية وهدف فى حد ذاته · مطمح عليه تتوقف المطامح ، ومأرب به يناط كل مأرب فى هذه الديار ، وفى غيرها من الاوطان · للشباب خصائصه وفضائله وسماته العتيدة الوطيدة القوية السنية التى ان صادفت تربتها ، وبلغت منيتها ، أذرت طرق حياة الفرد ، وهو الغاية والقصد ، حتى آخر رمق ، وحتى طور الهرم وتداعى الجثمان ، والى ما بعد مصرع الزمان ·

الشباب هو قبل كل شيء صفة نفسانية ، وسمة روحية ، وسجية فكرية قبل ان يكون مرحلة حيوية ، وعنفوانا جثمانيا ماشيا الى الافول متدهورا الى الذبول ·

(*) انظر الفكر السنة 9 ـ ص 313 ·

اندفاع وحماس واتقاد وعى وحرارة اشواق وتدفق ايمان وصلابة مراس وتيقظ احساس وفساحة خيال ونقاوة احلام وسخاوة آمال . ذلك هو الشباب كما يجب ان يفهم فى حيز المعقول ، متصلا بالنفس لا باللحم ، وبالفكر المبدع الخلاق ، لا بالجسم المتحطم المنهار .

وتتمثل هنا لعين القلب كلمة أبى الطيب اذ يصف شباب النفس الحرة الابية الخلاقة التواقة بما يحويه من خصائص شريفة نبيلة ، او بالاحرى من فضائل ، ولا أقول من اخلاق، لان لفظة اخلاق فقدت شحنتها ولفظت مدلولها بما اصابها من التوعك والانحلال ، والتسكع والابتذال ، وبكثرة ما استعملت فيما ينافى مفهوم القوة والجرأة وبعد الهمة وشدة المراس . لا يسعنا الا ان نذكر كلمة مفلسف الشباب .

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ....

يغير منى الدهر ما شاء غيرها وابلغ اقصى العمر وهى كعاب

لها ظفران كل ظفر اعده وناب اذا لم يبق فى الفم ناب

علينا ان ننظر الى الشباب لا كمرحلة منتثرة واهية ذابلة من العمر ، او كجيل خاص من ابناء الوطن جدير بعناية خاصة ـ بل كمفهوم ازلى مطلق شامل لصفات وسمات وفضائل انسانية بل مواهب الاهية شاءت النواميس الجبرية ان تكون متوفرة فى تلك المرحلة الوجيزة من عمر الفانين الراحلين . لكن تأبى الحرية الانسانية وتأنف العزمة القوية العتيدة ، والفطرة الجبارة العنيدة الا ان يتصف بها المخلوق الانسانى المنفوخ فيه من روح ازلية من يوم ان يكتمل نضوجه العقلى والجثمانى الى ان تنطوى صحيفة وجوده بهذه البقاع ، ويقتبل مصيره فى عالم الخلود .

ما أظن الانسان خلق كانسان الا لكرامة الشباب ، ونقاوة ايامه العذاب ، ونضارة احلامه الطراب الهزجات المرحات ، وما حسبت المثل الاعلى للانسان الا متجسدا فى صورة شاب مكتمل الخلقة وسيم الطلعة معتدلا القوام متوثب القوى الفكرية منسجم الملامح طلق القسمات ، ذى ابتسامة تفيض بمعانى الحب والامل ، وتكاد تنضح بمعنى الخلد والبقاء فى عوالم من الرؤى الخفاقة بالحسن والقداسة والطهر والجلال . ولله در الشاعر اذ قال :

لو رأى الله ان فى الشيب خيرا جاورته الابرار فى الخلد شيبا

ليس من باب الصدفة ان تحدثنا الاخبار المأثورة عن سكان الفردوس من انهم فتيان مرد فى مقتبل العمر . وانما خلق الانسان كى يحاول معجزة الخلود ويغامر فى حلبة الوجود والعدم .

خلق الناس للبقاء فضلت   امة يحسبونهم للنفـاد

ما خلق آدم الا لتحقيق وتجسيد معجـزة الخلـود ٠ وانما الشباب مسرح احلام القوة والمجد والطموح ٠ فهو الصورة الارضية المحسوسة المرئية لمعنى الخلد والبقاء ، ثم لا بقاء دون سورة الطموح وارادة الحياة وعزيمة الصمود لعوامل الفناء والدثور ٠

لا ، لن تدخل الجنة عجوز ، كما جاء في الحديث الشريف « انـا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا لاصحاب اليمين » ٠ فالخلد لن يمنح سوى اكليل لشباب النفس المتغلب على عواصف الايـام وتجـارب الحدثان ٠ الخلـد لن يكون الا ترب القوة الروحية التى تجدد الحيـاة وتقاوم الفناء ٠٠ وكانما لسان حالها يقول :

ان المعـاول لا تهـد منـاكبي   والنار لا تسطـو على اعضائي

هنالك نفوس اكلها السوس ونخرها الهرم ونبذتها الآمال وصرعها الفناء وسكنها الخراب ، فهي عدم من الاعدام ، ونفاية من ايكة الحيـاة قد تساقطت هشيما وتبددت رميما ٠ وانها فى عين الساعة ، على انحلالها وسقمها ، وفقرها ويتمها ، وموتها الشنيع الفاضح ليطفح جثمانها حياة ، ويزدهـر هيكلها رواء وشبابا خادعا مزيفا ٠

تلك هى الارواح المقفرة المجدبة الخالية من قبس الايمان الباعث لخفقة الحياة ونقاوة الشعور وفساحة مدى الاحلام ٠ تلـك هى الارواح المتحجرة الهامـدة الجامدة الفاقدة موهبة التجدد والانعتاق من براثن كيانها المقيد الموبوء بسخيف الذكريات ومكرر الاوضاع والعادات ٠

وانما الشباب زهرة البقاء المتجدد بلا فتور ، وموهبة القداسة الخلاقة التى تفيض دونما توقف ولا تمهل ولا تـردد بصور الحياة الغضة النقيـة الفتيـة فى غير ما انتهاء ٠ انه الحياة متغلبة على الموت ، وانـه الروح فارضا سلطـانه على المادة الخرقاء ، وانه للنور فى ثورته على الظـلام ، وانه الايمـان القـاهر العتيد فى صرخته الداوية على جنود الكفر والجحود ٠

الشباب خارقة الحياة السرمدية ، والشباب معجـزة الفكـر المتسامى فى طموح لا ينى وشوق متواتر لا ينثنى الى مناهل الكيان المطلق ومصدر الوجود المشرق الخلاب ٠

الشباب عطر دافق وشعر خالص وروح منعش ومجد متنـزه عن الرذالـة وطهر لا تشوبه الاقذاء وجمال متموج على مدى الآزال والاناء ٠

انه سمى الشعر ، وفى الشعر قيلت هذه الابيات

ايا شعر يا خيط الضياء بظلمة الـ ـــوجود ونورا فى الشدائد والبلوى
أيا شعلة لا تنطفى أبد المدى ويا بلسم الفردوس مستودع السلوى
ويا نزعة للروح خالصة الشذى ويا منسيا اتراحه كل ذى شكوى

الا انك الحلم المجنح بالسنى تصول على العدوان والعسف والقهر
تحطم اصناف القيود بخفقة وتقضى على الاغلال فى نشوة الظفر
تحديت اوضاع الجمود وحررت أياديك ابكار العقول من الاسر

عبور الى آفاق كون محجب بأسرع من ومض البروق اللوامع
الى حيث لا امر يطاع لظالم ولا حسرة تندس بين الاضالع
وحكمت فى سير الزمان وصرفه وفى جوه وغيمه المتتابع

أيا شعر قلب الوضع انت وما حـ ـق القيود ومن نأوى اليه من الضنى
ومصرع احكام الطغاة اذا قضوا بجبر وتشريد عن الاهل والحمى
تخط اسمك الاسنى على سنديانة الـ ـجلالة اقلام الملائكة العلى

الصادق مازيغ



الشعر السياسي

في الادب التونسي المعاصر

بقلم : محمد الحليوي

...نريده ان نرجع اليوم الى ما قيل من الشعر السياسي قبل عهد الاستقلال. اي منذ انبثاق الحركة الوطنية عَقبَ الحرب العالمية الاولى لنرى ان شعراءنا رغم ما كان يُكبلهم من قيود وما كان يُوضع على اقلامهم من حَجْر – لم يكونوا ساكتين عما يُحيط بقومهم من هوان ومذلة. فكانوا يُندّدون بسياسة الحماية ويتذمّرون من الاوضاع الفاسدة ويُناقشون اصحاب السلطان. وكانوا كثيرا ما يُهيبون بالشعب يوقظون همته، ويبعثون وعيه ويدفعونه للمطالبة بالحريات وبالحقوق السلبية.

واول شاعر نراه يتجه بشعره اتجاها سياسيا واضحا هو المرحوم الشاذلي خزنه دار. فقد كان – رحمه الله – شاعرا وطنيا بحق – وكان يُغذّي النفوس بأناشيده القومية وقصائده الحماسية منذ حوادث 5 افريل 1922.

واني لاذكر كيف كانت المظاهرات في اول الحركة الوطنية تسير في شوارع العاصمة وهي تُنْشِدُ قولَ خزنه دار.

تونسي وحَسْبي انَّني تُونِسيّ
حزبُها الحرّ حِزْبِي حزبُهَا الوطني

(*) انظر مجلة الفكر السنة 9 – ص 33 .

وهو القائل في نشيد التجنيس

لستُ المبدّلَ جنسي ... كلا ولا أتردّدْ
ان كان يرضى الفرنسي ... فليس يرضى محمّدْ

وهو فيما أظن اول من اعلن غضب الشعب بعد ان عمدتْ الحكومةُ الحامية الى سجن وابعاد منظمي حركة الاعتصاب ضد شركة الترام الكهربائي والتي كان المرحوم علي باش حانبه أحد المبعدين فيها. فقال خزنه دار :

أبكي لفُرقتهم وهم احياءُ ... سبْعا بكتْهم تونس الخضراءُ
ما كان في كفّي الحُسامُ وانما ... من تحت فكري حيّة رقْطاءُ
سأهزّ منْ قومي الذين بلونُهم ... ما ترْتضيه الهمّةُ القعْساءُ

وفيها يقولُ :

دعْهمْ يُريقُوا، يرهقوا يسترقُوا ... ينتقُوا يُبيدُوا يفعلُوا ماشاءُوا
واسْترْسلوا في الامر دون تراجُع ... فالحبْلُ منْهُ انشقّت الصمّاءُ

ومن شعره المشهور قوله في قصيد « ذكرى الزعيمين »:

الحرّ من لا يستكين لمُرْهِق ... فعليك خصْمك مِمّ ويحك تتقي
واصْدعْ في الاباة ولا تُقلْ ... ان البلاءَ مُوكلٌ بالمنْطق
فالام تسْتخذي وحقُّك بيّنٌ ... شلتْ يد تمْتدّ للمُتصدّق
تبا لمنْ ألف الخنُوع لغاشم ... ما تلك الا شيمةُ المُتملّق
فيم احتمالك – والكوارثُ جمّة ... ممّنْ يراك بنظرة المُتفوّق
لا تشْكُهُمْ انّ الشكاة مذلّة ... والى مراقي العزّ وحْدك فارْتق
مُستضْعف منْ بات يرْقُبُ منة ... من اهله او منْ عدُوّ اخْرق

وممن اشتهر بنظم الشعر السياسي من شعرائنا الراحلين المرحوم سعيد ابو بكر. فقد نظمَ الى جانب قصائده وموشحاته في الاغراض الوطنية والدعــوة لليقظة والنهوض تلك المثنيات اللطيفة التي دان ينشرها في جريدة "النديم" بعنوان «زهرة بعد زهرة» والتي كان يضمنها مقاصد اجتماعية وسياسية ذات صدى مُحبَّب للنفوس لذلك لقيَتْ رواجا عند الادباء ورضى من كافة الاوساط. وهاك مثالا من هاته المثنيات قولهُ عن اضطهاد السلط الاستعمارية للمفكرين.

زعموا النَّفْيَ والتتبعَ والعَسفَ تُميتُ الشعورَ في الإنسان
غلطوا – انها هداية منْ مَدَّ يدَيْه لخدمة الاوْطَـــــان

وقولــه ساخــرا

ايَّـاكَ تكتُبُ ما تفكر اذْ بــذَا ... تَسْعى لحتْفك أيُّهَا الحُرّ الابي
قَدْ حَرَّمُوا عَنْكَ التبسمَ والبُكا ... لم يَبْق إلا أنْ تُصلي على النَّبيِ

وقولــه في اخــرى :

يجدُ الناس في ارتياحي الى الظلم وميْلي لنشره الغــازا
لسْتُ اهــوى الظلوم إلاكما اهوى لايقاظ تونس المهْمَازا

وقوله أيضا :

خلّ اليراع مُحطَّما وامسك بكفك ... ان أردتَ تشــاغلا مزمــــارا
واترك سياسة تونس وارْكَــنْ الى ... بَعْض الزّوَايا كرّر الاذْكَــارا
هذا دواءُ حكومة امست تــرى ... في القول نارا والكتابة نارا.

ومن الشعر السياسي الذي كان له دوي وصدى قصيدُ الشيخ الهادي المدني في حادثة المرسى. وهي حادثة تتلخص في انّ احد الاجانب كان يحترف الجزّارة فأراد ان يتلهى ذات يوم فعلق آلة ميزان في سلك كهربائي وطلب من احد حرفائه التونسيين ان يناوله تلك الآلة فتعلق المسكين بذلك السلك وذهب ضحية الرعونة والاستخفاف بارواح

الأهلين. ومما احفظ النفوس وحرك الاحقاد ان هذا الجاني الأثيم ظلّ طليقا لا تناله يد العدالة وقيل عن الضحية انه مات بسكتة القلب. وقد ذكر الشاعر هاته القصة مفصلة في شعره الذي استهله بهاته الابيات :

ألا يا ايها الوطنيّ شمّـــر ... فإنّ بلادكَ الخضرا تُعانـــي
كفَى ما قدْ مضى فانهضْ وكسرْ ... قيودَ الذلّ عنها والهـــوان
ألا خلّ البكاء فليس يُجدي ... بكاؤكَ فلتدَعْه الى الغواني
ودَعْ عنكَ التأسُّفَ في الزوايا ... فذاك لدَى احرى بالجبـــان
لقد اصبحتَ عبدا مُستذَلاّ ... تطأطيء للاجانب بامتهـــان
تذلّ وانتَ في بلد أتتْـــهُ ... جُدودُكَ قبْلُ بالسَّيْف اليماني
هلمّ فزَعْزعِ الدُنيا بصَوْت ... يخِرّ له جبَابرةُ الزمّان ...

على ان المجلي في ما اسميناه « بالشعر السياسي » هو بلا نزاع شاعرنا الكبير أبو القاسم الشابي. ولما كانت مُعظم اشعاره في هذا الباب معروفة مدروسة — وهي على كل لسان — وقد كنا تعرضنا الى بعضها في دراساتنا الماضية، فإننا لانورد منها شيئا في هذا المجال.

وللاستاذ الصادق مازيغ قصائد يمكن ان نسلكها في الشعر السياسي فهو في احداها يناقش زعم القائلين ان الشعب التونسي لم يتأهل بعد للاستقلال نظرا لعدم نضجه وعجزه عن ادارة شؤون بلاده بنفسه وهي نغمة طالما سمعناها من بعض الساسة المضللين. يقول الشاعر مازيغ متحدثا عن الشعب :

أوكلّما طلَبَ الدوَاءَ لدائه ... يبْغي انفكاكَ الغُلّ من جثمانه
امسى نذيرُ السُّوء يكبحُ صَوْتَهُ ... ويقولُ « طَبُّكَ سابق لاوانه »

ويقول عن حركة الشباب المطالب بالحريّات :

ان الشباب الى الحقيقة نـاظـــر ... لا ينْثنِي عَنْ قصْده ولُبَانه
يبْغِي الحياة، ولا حياة اذا انضوى ... معْنَى الكرامة مُشْعرا بهوانـه
ان الكرامة وحْدَهَا مَعْشُوقَة ... عنْدَ الاريب العدل في ميزانـه
للنشء قلب خَافق متدفـــق ... حبُا عميقا فاض من وجدانـه
للنشء روح دائب في خَطْــوِه ... مُتيقّظ للدّهْر في حَدَثانـه
مُسْتعْذب لمرارة مِنْ حظّه ... متفكّه بالحلو من ايمانـه ..

ولـه قصيدة اخرى يـرد فيهـا على من ادعى من المقيميـن الفرنسيين ان الـذي يُصلح الشعوب ليس هو الاستقـلال، وانمـا هو اقامة اقتصادياتهـا والعمـل على ازدهـار عمـرانهـا فيقول في الـردّ عليـه :

تَجَاهَلَ أنَّاتِ المكبَّـل وانبرى ... يُغالطُ بالافـْك المُنَسَّق والزّور
وقال اقتصاد واتحادُ وسائـــــل ... لتَشْييد بُنْيَـان وَسَقْـي وَتَعْمير
كأنّ صـراخَ الوَيْلَ مَادق سَمْعَهُ ... ولم يك بَغْي في البلاد بمذكور
ولم تأته الاخبار عن موْت أمَّـة ... تُداس وتُقْصي عن هَوَاء وعن نور
وعن ضجَّة في الكون تصرخُ حطموا ... قيودا فما جندالبُغاة بمنْصُـور ...

ثم يخاطب مـواطنيـه محـذرا اياهم من الاغتـرار بأباطيـل المضللين بل ربمـا لام من وقـَعَ في أحابيلهم وتغاضى عن بهتانـهم :

تعاميت عن شَخْص الحقيقـة مائـلا ... واغْضيتَ طرفا عن رَجَاحة تدبير
واغرتك من جنْس الذّئاب عصابة ... تَفَوَّهَ داعيهـا بحُمق وَتَغْريـر
ألا فاستَمعْ للختـل والزّور وارتقب ... ثمارا ستَجْنَى يوم فحْص وتقدير
ستكتبُ أقوال أذعْتَ الى المـــلا ... وتثبتُ في سفر على الدهر منشور
ستَهْدمُ أطوادُ الضلال مَعَاول ... وتبعثُ أموات ويُنْفخُ في الصّور
وتُطْوى من العهد اللعين صحائف ... مُشوّهة بالاثـم في شر تحبيـــر

وقد صدقت نبوءة الشاعر فبعث الامواتُ ونُفـخ في الصّور وطويت من العهـد اللعيـن صحائف مشوهـة بالاثـم والشنـار.

وللشاعـر مازيغ قصيـد ثالث بناه على هاته الفكـرة : تمـنّي دائمـا للمستعمـر أن يعصف ويجـور ويتنكبَ طـريقَ الحقّ والعـدل لانّ ذلك يُعجـِّلُ نهـايتَـــه.

فكلمـا ازداد الظـالم ظلمـا ازدادت كراهيـة الناس لـه وضاعف دَوَاعي الثـورة عليـه وفي ذلك الخيـر للمظلـــوم :

كم ذا تُقيم على السَّفاه مُصمِّمـا ... ماذا عليك إذا العدو تَحَطّمـــا
ماذا يَهمُّك أنْ يُضيعَ مَصَالحا ... ويَضلّ عن طرق الصّواب تغشما
إن اهْمَل النُّذُرَ التي ترى فمـا ... أحْراه أنْ يرْدى ويُسْقى علقمـا

أوْ ما تحوّل عن سُلوك جـائـــر   فلذاكَ أحْرى أنْ يجرّ المغْنَمَــا
أتُحِبّ ان يرْضَى الانامُ بعدلـــه   في حكمه فيقال مولى أنْعَمَـــا
أتريدُ أنْ تُرْضيكَ شيمةُ سَيِّـد   فتعُودَ تلثم كفَّهُ مُسْتَرْحِمَـــا
كفَّ عليْهَا منْ نجيعـك شارة   لا تمحي أو تلمس الارْض السَّما

ويتابع الشاعرُ هاته الفكرة فيقول :

ونراك تلهفُ آسفا من تَرْكـــه   أخْذا بحزْمٍ واحْتيَاط أبـرَمَا
إنْ كانَ خَصْمُكَ مُهْمِلا لشؤُونه   مُتَقاعسا عنْ أمره مُتَلعْثِمـا
مُتَردّدا في رأيه متحيّـــرا   فلذاكَ أحْرَى أن يُداسَ ويُكلما
يا حبذا الطوفان يجرفُ طاغيا   في حمْأة النّسيان والجهْل ارْتمى..

وهاته فكرة طريفة. ولكنّ الشاعر كساها حلة خشنة من الالفاظ الجافة والمنطق الصّارم.

ومن الشعر السياسي الشديد اللهجة قول منور صمادح :

قالوا التوحش زالا : فأجبتهم من قالا ؟
من ذا الذي بقر البطون وقطع الاوصالا ؟
من ذا الذي سَفَكَ الدماءَ وقتّلَ الاطفالا ؟
وسطا على أرواحنا فاستعجل الاجالا ؟
وانقض بالنيران يحْرقُ نسوة ورجالا ؟
من أنشبَ الاظفار في اكبادنا وانْهَالا ؟
وأتى فزُلزلت الحياة بأهلها زلزالا ؟

هذه امثلة خاطفة من الشعر السياسي الوطني الذي كان يستهدف ايقاظ الهمم وبعث الحماس في النفوس لمقاومة المحتلين. وهو فنّ بلغ القمة مع شعراء الشرق الذين أبلوا البلاء الحسن في مقارعة الاستعمار البريطاني أو الفرنسي. واذا استثنينا شعر الشابي فإنّ سائر الشعراء التونسيين لم يكونوا في مستوى شعراء الشرق في ذلك المجال امثال الرصافي والزهاوي في العراق وخليل مردم وخير الدين الزركلي في الشام وحافظ وشوقي في مصر ولعل تسامح السياسة البريطانية في ميدان الصحافة والنشر كان له أثر في انتشار وازدهار هذا الفنّ من الفنون الشعرية الحديثة.

محمد الحليوي

عقبات في طريق ازدهار القصة

بقلم : محمد المرزوقي

حضرت ندوة للقصة عقدتها الاذاعة التونسية منذ ثلاثة اشهر تقريبا ، اتذكر اني اجبت فيها عن سؤال طرحه احد الاخوان الحاضرين وهو : هل توجد قصة فى تونس(*)؟ بانها موجودة فعلا، ولكنها ما زالت كالطفل لم يتجاوز عامه الاول فهو يحاول ان ينطق فيخونه لسانه ويناضل لكى يقف على قدميه فتقعد به قواه ، ويترتب عن هذا الجواب سؤال ثان وهو : متى يتمكن هذا الطفل من النطق الصحيح ومن الوقوف على قدميه ؟ والجواب على هذا السؤال الثانى فيه نوع من الصعوبة اذ لا يمكن فى رأيى تحديد الزمن الذى يستغرقه نمو هذا الطفل ما دامت هناك عقبات كأداء تعترض طريق نموه الطبيعى هذه العقبات التى تقف اليوم فى طريق ازدهار القصة التونسية التى ولدت وتحركت وبدأت فى النمو ، على انه نمو بطىء مضطرب لم يتخذ سمتا ولم يكتسب بعد سمات خاصة .



واذا قلت هنا : القصة التونسية فانما اريد القصة العربية بصفة عامة فهى فى رأيى- وحسبما وصلنا لحد اليوم من نماذجها الواردة من الشرق العربى - ليست اقل ضعفا وفسولة من القصة التونسية المحلية الا بقدر الزمن الذى سبقنا به الشرق العربى لكتابة القصة .

ولا اريد هنا ان اتعرض لجميع العقبات التى تعترض طريق ازدهار كتابة القصة عندنا ولكن ساقتصر على الاهم منها باختصار .

1) **طفولة القصة :** اتذكر ان احد الاخوان فى ندوة الاذاعة التونسية قال : ان الشرق العربى - ما زال بالنسبة للادب - فى طوره الشعرى ، وهو يقصد بكلمته هذه ، ان حياة الشعوب الادبية اول ما تبدأ بالشعر الذى يعتمد فى الغالب على الخيال حتى اذا نمت فى هذه الشعوب الثقافة واستقرت حياتها السياسية والاقتصادية تطورت عقليتها وتخلصت من الطور الشعرى الى طور

(*) انظر الفكر السنة 4 - ص 694 .

البحث والتفكير والانتاج العقلي المتزن وفي هذا الطور تولد القصة وتنمو اذ ان القصة تعتمد في المقام الاول على تصوير الواقع ٠

وعليه فان حياتنا الادبية لما تزل في طورها الاول وليس من الطبيعي ان نسبق الزمن فتزدهر القصة عندنا ونحن في هذا الطور فلا بد لنا من الصبر حتى نصل الى الطور الذي تنمو فيه القصة نموها الطبيعي اعني انه لا بد لنا من زمن قد يطول وقد يقصر ـ حسب امكانياتنا ـ يترعرع فيه الطفل الوليد وتكتمل قواه ويستطيع ان يقف ثم يخطو ثم يسلك طريقه مع الناس ٠

فالقصة في تونس لم تولد الا منذ زمن يسير فلنعط لها الزمن الطبيعي للنمو ثم نحكم عليها بعد ذلك وهذا الزمن الطبيعي في الامكان ان نقرب حسابه بالزمن الذي استغرقته القصة الاميركية او الروسية مثلا بين ولادتها وازدهارها على ان قصتنا يجب ان تستغرق زمنا اكثر لان هناك عقبات سنشير اليها فيما يلي هي موجودة في مجتمعنا ومفقودة من المجتمعات الاجنبية ٠

2) **المرأة :** سيندهش البعض من ان تكون المرأة عقبة في طريق ازدهار القصة ولكني اطمئنهم باني لا اقصد ذات المرأة وانما اقصد ان وضعية المرأة عندنا هي العقبة ، فالمرأة عندنا كانت الى ما قبل عامين فقط سجينة خلف الجدران ووراء الحجب والاستار ، وكان الادباء يجهلون عنها كل شيء اي انهم لا يعرفون شيئا عن نصف مجتمعهم ، وما دامت القصة كما قلت سابقا تعتمد في الدرجة الاولى على تصوير الواقع فحجاب المرأة وابتعادها عن الرجل وعن الحياة العامة جعل الكاتب عاجزا عن تصوير هذا الواقع فهو اذا حاول الكتابة فانما يصور ما يتخيله لا ما يعرفه وما يعيش فيه واذا كانت المرأة قد تحررت الآن وشاركت في الحياة الاجتماعية فان هذه المشاركة لا تزال محتشمة تسيطر عليها خيالات الماضي ودهشة الانتقال من طور الى طور ٠

3) **غريزة موروثة :** اشتهر الشرقي بصفة عامة بانه قليل الصبر ضعيف الاحتمال وهي غريزة موروثة نشعر بها كلما اتجهنا الى عمل من الاعمال ، ولا ادعي ان هذه الصفة قد ركبها الله في جنسنا او زرعها في دمائنا ولكنني اشعر اننا ورثناها عن العصور المظلمة الطويلة التي عاشها الشرق ـ واكاد اجزم ان صفة الصبر تنبت في عهود الاستقرار والامن ٠ ولذلك تجلت اكثر في الشعوب الاكثر استقرارا وأمنا وعدالة ٠

واكرر دائما ان القصة تعتمد على تصوير الواقعيات وهذا يتطلب البحث والتنقيب والتجربة والمشاهدة وكلما كتب الكاتب عن حياة عاشها بنفسه وتقلب فيها واضطرب في مسالكها كلما كانت قصته اقرب الى النفس واشد تاثيرا ، فاذا كان صاحب (علبة السردين) قد قضى اعواما من حياته في

الوسط الذى كتب عنه قصته ، شاركه فى افراحه واتراحه ووسائل عيشه واضطرب معه فى اعماله واشغاله وفى نومه ويقظته فكانت قصته ابدع ما اخرجته المطابع الى الناس ، اذا كان هذا الكاتب قد احتمل ما احتمل وصبر فى عزم واصرار حتى اكتمل له هيكل قصته فانى اشك ان يعمد كاتب شرقى – فى هذا الزمن على الاقل – الى ما صنعه صاحب (علبة السردين) ويصبر صبره من اجل كتابة قصة يخرجها للناس ٠

4) **اللغـة** : نعم اللغة وهى اهم العقبات فى رأيى فنحن لسنا كالاوروبيين نكتب باللغة التى نتكلمها ونستطيع ان نصور واقع حياتنا بلغتنا وننطق اشخاص قصصنا باللغة التى يتحدثونها فى الواقع ، ولكننا حائرون اليوم بين لغتين وكلاهما لا تصور واقع اشخاص القصة كما هو ٠

فالعربية الفصحى اصبحت فى حكم الاجنبية عنا وقد بعد الزمان بيننا وبينها حتى اصبح من العسير ان يفهمها ناقص الثقافة فضلا عن الجاهل وان من المضحك حقا ان يعمد الكاتب الى تصوير مشهد حديث عادى بين (الام دوجة وابنتها) مثلا بلسان عربى فصيح مهما كان بسيطا ٠

والعربية الدارجة لم تصل الى درجة من التطور يستطيع الكاتب ان يعبر بها عن دقائق الاشياء وعن الخلجات النفسية لاشخاص القصة ٠

ويظهر آن بعض كتابنا قد احس بهذه العقبة فعمد الى الخلط بين اللغتين فهو يسرد الحوادث بالعربية الفصيحة حتى اذا وصل الى مشهد حى فيه حوار عمد الى اللهجة الدارجة وهى طريقة اكثر ما يقال فيها انها محاولة للتوصل الى تصوير الواقع فى المشاهد الحية ٠

واذا كانت العقبات الثلاث الاولى يمكن ان تزاح من طريق القصة بمرور الزمن وبتحقيق عهد من الاستقرار فان العقبة الاخيرة سوف لن نستطيع التغلب عليها الا بنشر الثقافة العربية فى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية فى المدرسة والادارة وفى المنزل والشارع مع تبسيط العربية الفصحى وتنقيتها من الحوشى والغريب وتهذيب الدارجة وتعويد صغارنا على النطق بها معربة (باسكان العين) حتى تتصل اللهجتان ببعضهما ويتحقق خلق لغة متحدة نتكلمها ونكتبها فى آن واحد ، اما كم يلزمنا من الزمن حتى نصل الى ايجاد هذه اللهجة الموحدة فهذا ما لا استطيع الجواب عنه ٠

محمد المرزوقى

حول القصة التونسية

بقلم : عثمان الكعاك

ما هو المقصود بالقصة ؟ (*)



فهذه الكلمة مصابة في راي فلسفة اللغة بداء ترادف المعاني Polysémie وهكذا نرى المصريين يذهبون فيها الى معنى Story الانكليزية اي التاريخ فيسمي احمد امين كتابه قصة الادب في العالم بمعنى تاريخ الادب العالمي، وتارة يذهبون الى معنى Tale الانكليزية اي الحكاية القصيرة او المتوسطة. فاذا كان المقصود من القصة هاهنا Le Conte فنقول انه اكثر شيء وجودا في الادب التونسي الكتابي والشفاهي والقديم والحديث والبربري والاجنبي والعربي.

ما هو المقصود من الأدب التونسي ؟

هل المقصود بالادب التونسي الادب المعاصر ام الادب التونسي في مختلف العصور بما في ذلك العصور البربرية القديمة والاجنبية والعربية ويغلب على ظننا. وهذا هو المتبادر الى الذهن على كل حال. ان المقصود هو الادب التونسي بوجه عام.

فنحن سنذهب في الاجابة الى الاصطلاحات الآتية .:

أ) المقصود بالادب انه الادب في مختلف العصور وبعامة لغات الانتاج الادبي التونسي التي هي ثلاث البربرية والاجنبية والعربية.

ب) نضع الاصطلاحات الآتية لنتبين البحث على نورها :

(*) انظر الفكر السنة 4 ــ ص 615 ٠

1 — الروايـة Le roman

2 — القصـة Le conte

3 — الاقصـوصة La nouvelle

4 — المسرحيـــة La pièce de théâtre

5 — الخزعبلـة او الحشـويـة La farce

6 — النـادرة Le conte drolatique

7 — المقطعـــات L'intermède

1 — الروايـة

... قديمـة عند التونسي، فالمسرح البربـري الناطق والـراقص والغنائي سابق للمسـر ح اليوناني نفســه.

Bibl. : A. Chottin : le théâtre berbère
A. Basset : la littérature des Berbères

وما نهض المسـر ح الـروماني الا بفضل تصانيف تيرنسيـوس القرطاجني. واعظم مسر ح روماني هو مسر ح الجم (تسدروس) الذي بنـاه الامبـراطـور التونسي غور ديانـوس وليد الجم.

Bibl. : p. Monceau : les Africains
« La littérature chrétienne D'Afrique
St-Augustin : Confessions
Terbelluriers : Apologetique

وكان للتونسيين في عصر الفاطميـين مسر ح يسمى التعزيـة قائم على قصص القـرآن الكـريـم.

وظهـر المسرح العصـــري :

اولا عند مهاجـرة الاندلـس سنة 1613

ثانيـا عند الايطاليـن العائشين في قصـور المـراديـن الحسينيـن.

ثالثـا سنة 1908 ظهر المسر ح العربي الجديـد جلبه القـرداحي وقـام باعبائـه الاستـاذ المرحـوم محمـد بورقيبـة.

رابعـا تاريخ المسر ح التونسي انظر مجلـة المباحث وتاريخ المسر ح

نقلا عن بروكلمان ومجلة الثريا وما تجده من مسرحيات تمثل على الركح التونسي هو انتاج شرقي مترجم اقبح ترجمة. او ترجمات تونسية او اقتباس تتفاوت قيمته صعودا وحدورا ونستثني من ذلك انتاج رجلين بارعين علي الدوعاجي وحسين الجزيري.

واذا كان عندنا رجلان بارعان de talent فلم يولد عندنا بعد المسرحي العبقري le génie وسبب ذلك اننا مازلنا نؤمن بانه لا مسرح الا المسرح الفرنسي فنحن نقلده اتباعا فالحماية المسرحية ما زالت قائمة الذات الى ان ينوب الله بمجاهد اكبر مسرحي.

2 ـ القصة

موجودة قديما وحديثا. وهي اكثر الاشياء وجودا. القصة التغريبية الملحمية conte épique كالجازية وخليفة الزناتي ، والقصة التندرية كجحا وبوك عكرك والقصة الخرافية وهي لا تدخل تحت حصر والقصة على السنة الحيوانات وهي موجودة من عهد قرطاجنة الى الآن. والقصة التهكمية الزنجية واليهودية والمالطية وغيرها.

وهذه القصة مكتوبة عند البربر بالبربرية وموجودة عند ابوليوس في عصر الرومان سواء في المزدهرات Florides او المسخيات Métamorphose وعند فلوروس ومانيليوس وغيرهم ؛ او عند ابن ظفر الصقلي في انباء نجباء الابناء وعند مصطفى آغا اخيرا.

والمشكلة ليست مشكلة فقر. وانما هي مشكلة معرفة، فنحن نجهل ادبنا : العارفون بالفرنسية لا يعرفون الا الادب الفرنسي ويقنعون بذلك، والعارفون بالعربية يتمتعون بالمعلقات والادب العربي المشرقي والاندلسي ويجهلون حتى وجود الادب التونسي فيجب ان نتونس ذهنيتنا الادبية وان ندرس الادب تونسيا ومتى يكون ذلك نكون قد تخلصنا من الاستعمار الثقافي المشرقي او الغربي وعثرنا على شخصيتنا التي نبحث عنها في غير الطريق المؤدية اليها او نقنع بالعيش بشخصيات اجنبية مستعارة والمثل التونسي يقول : النعجة تفاخر بالية الخروف، او « عرس عمه فرح هو قال الكل عمارة بيت ».

والمشكلة بعد هذا ليست مشكلة انتاج بل مشكلة نشر. فالاف الكتب التونسية تنتظر الصبح والآف المؤلفين يذهبون الى المقبرة فيدفنون انتاجهم معهم.

موجودة ايضا. اوجدها محمد بن شرف، وتوسع فيها حتى قارب الرواية الادبية النقدية وهو الاصل الفعلي لكوميدية دانتي الايطالي. فان ابن شرف عاش بصقلية. واذا كان هنالك اقتباس من رسالة الغفران للمعري فهو ابعد من الاقتباس عن رسالة النقد لابن شرف التي راجت بصقلية ايما رواج، ومعلوم ان الادب الايطالي في عصر دانتي نهض على اساس الدائرة الصقلية Le Cycle Sicilien

انظر : العالم الادبي : تاريخ الادب الايطالي بقلم العبد الفقير

وراجت الاقصوصة في العصر الاخير ومن اكبر كتابها عبد الرحمن الكعاك ومصطفى آغة والشاذلي خزنه دار والسعيد الخلصي، ومن اكبر مترجميها عبد العزيز الوسلاتي.

لكن هذا ليس معناه اننا ماضون في سبيل خلق الاقصوصة التونسية ذات الموضوع التونسي والشخصيات التونسية والارتجاعات التونسية، فمتى آمنا بتونس مائة بالمائة آمنا بالاقصوصة التونسية، ومع ذلك فهذا اوان خلقها : فنحن نعيش في بحران من الانقلابات الاجتماعية التي تمكننا من كتابة آلاف الاقاصيص في اليوم الواحد، ليس علينا الا ان ننظر الى فيلم الحياة يجرى امامنا ونسجله تسجيلا، حياة عراك بين القديم والحديث وخصومة طبقات وصراع بين النفسيات وازدحام في عامة مصارف الحياة فنحن الآن في اشد ازمة اجتماعية وذلك معناه بالاضافة الى الكاتب اننا في اقوى عصور حيويتنا، حيوية في النساء والرجال وفي العائلة والمدينة والبادية والادارة والشعبة والنقابة وعامة المؤسسات، فهنالك ملايين من الاقاصيص تولد وتموت على فراش مخاضها ولا يسجلها كاتب، لنا قلم وليس لنا عينان ولا اذنان وقلمنا منعكس الى الماضي او ينقل صورة شوهاء على مرآة صور الشرق او الغرب فلا يجد صدى في نفوس القراء. فلنقلب قلمنا الى : تونس العزيزة ولنر الاحداث التونسية ونسجلها، يومئذ يولد الكاتب الاقاصيصي التونسي باتم معاني الكلمة وبحروف ضخمة كبيرة.

عندنا « شانتي ادبي » ولم تظهر البناية بعد، لا تزال مغمورة بمواد

البناء المكدسة والغبار المتصاعد من المرمة ولا تزال محجوبة عن الاعين بهذا السياج اللازم لكل « شانتي » فلا نرى ملامحها الا من خلال الاخشاب المعترضة.

الجنين في البطن ولا شك، ووجعات المخاض تملا الجو بدويها، ونخشى ان يكون الوليد زنيما لكثرة ما غازلنا الاداب الفرنسية والشرقية والاندلسية وقد ارتكبنا خيانات زوجية كثيرة نحو ادابنا القومية فيجب ان يستقيم سلوكنا ونقنع بزوجة شرعية واحدة في الاداب ايضا ونعيش عيشة عائلية سليمة لا عيشة خباطين في شوارع اداب الامم الاجنبية. يجب ان نستقل ثقافيا كما استقللنا سياسيا، وان تكون صلاتنا مع اداب الامم كما هي صلاتنا مع الامم عن طريق سفراء الادب نقتبس ويقتبس عنا لا ننقل ونقلد في اتجاه واحد فتلك هي الحماية الادبية.

ويجب ان تطهر عقولنا من سوق العاصر الادبي الذى حل بها فعمرها بابريق بدون انبوب وفونوغراف بدون بوق وزجاجة مكسرة العنق وقبقاب بغير زمام واسطوانة مشققة تتعثر رناتها في ايقاع متماثل. ثم ان يعمر اذهاننا بعد ذلك بقرارة من ادبنا القومي نزينها بطبقات مماطاب وعذب من الآداب الاجنبية.

القضية قضية تطهير للحماية الثقافية وايمان برسالة الادب التونسي ورجوع الى المصادر التونسية الحية ونشر للتراث. وفوق كل ذي علم عليم.

عثمان الكعاك

من الاعمال الثقافية
التي لا يمكن القيام بها الا في تونس

بقلم : الدكتور الطاهر الخميري



كتب احمد امين عن صناعة الشاشية * في تونس فقال :

« وكان التونسيون يصنعون نوعا من النسيج اسمه « الشاشية » وكانت مصانعها كثيرة... فلما تقدمت الصناعة في اوروبا ، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج نتاجا كثيرا من الشاشية هذا رخص سعره ، واصيبت الصناعة في تونس بضربة قاضية » . (1)

وكتب ساطع الحصري عن اللهجة التونسية فقال :
ومن الالفاظ التي يختص بها اهالي تونس ويكررونها كثيرا لفظة « ذيال » بكسر الذال ، وهي تستعمل بمقام اداة اضافة واداة نسبة ، ولذلك تدخل بين كثير من الكلمات في كثير من المناسبات : حفلة ذيال فلان ، كتاب ذيال فلان (2)

ووصف J. Jourdan الكفتة التونسية بانها :
« Espèce de boulettes de pommes de terre » (3)
وسمع J. Clermont هذه الجملة : « قال له الخادم ياسيدي برحمة سيدي الكبير وبرأس سيدي الصغير سامحني » ، فترجم قوله « برحمة سيدي الكبير » هكذا : « Par la miséricorde de mon grand Maître (Dieu) » (4)

(*) انظر الفكر السنة الرابعة ص 11 (سنة 1958)
(1) زعماء الاصلاح في العصر الحديث لاحمد امين ص 149 ـ القاهرة 1949
(2) في اللغة والادب لساطع الحصري ص 178 ـ بيروت 1958
(3) Dialecte Tunisien. Par J. Jourdan. P. 62 - Tunis 1937
(4) Le Dialecte Tunisien. Par J. Clermont. p. 34 - Tunis 1938

احمد امين يعرف الشاشية التونسية باسم « طربوش مغربي » فلما قرأ انها من الصناعات التونسية ظنها نسيجا من الشاش، والشاش هو Mousseline

وساطع الحصري لابد ان يكون قد دون ملاحظاته عن كلمة « ذيال » وهو بالمغرب الاقصى ، واختلطت الملاحظات بما قيده عن اللهجة التونسية ، فظن انه سمعها في تونس .

و J. Jourdan عاش في تونس سنين طويلة وتخصص في اللهجة التونسية ، وبعض مؤلفاته فيها بلغ الطبعة السابعة ولكن يظهر انه لم يذق الكفتة التونسية وانما رآها تباع مقلية فحسبها كريرات من البطاطة .

و J. Clermont كان من اساتذة اللغة العربية في « ليسي » تونس وله مؤلفات في اللهجة التونسية ، فهل ينتظر منه ـ لذلك ـ ان يفهم دقائق لغة الخدم في بيوت تونس ؟

اننا نسلم بوجود فرق في لغة الحديث بين بلدان الشرق العربي وبلدان المغرب العربي ، ولكننا لا نعترف بوجود الفرق في لغة الكتابة ، وهوهم ذلك موجود . ففي المجلد الثاني من الطبعة الاخيرة (بيروت 1956) لتاريخ ابن خلدون فهرس للغة ابن خلدون في 16 صفحة كلها كلمات وعبارات غير مألوفة عند القارىء الشرقي . وقد اعترف ساطع الحصري في كتابه المذكور اعلاه ص 158 ـ 164 بانه وجد شيئا من الصعوبة في فهم لغة الجرائد التونسية ، واساء فهم بعض ما قراه فيها من الكلمات . والعبارات. اما اكبر دليل على وجود هذا الفرق فهو قاموس Dozy المتكون مما يقرب من الفي صفحة معظمها يبحث في لغة المتأخرين من كتاب الاندلس وشمال افريقيا ، وهو مع ذلك غير كاف . فقد يعرض لك استعمال غريب لبعض الكلمات في تاريخ ابن خلدون او ابن ابي الضياف، وتبحث عنه في قاموس Dozy فلا تجده، وتجده في بعض مؤلفات Stumme المستشرق الالماني الذي كتب عن الادب الشعبي التونسي في اواخر القرن الماضي وقد لا تجده هنا و لا هناك وتجده في طبعة 1958 من قاموس Beaussier العربي الفرنسي ! وهو قاموس خاص باللهجتين التونسية والجزائرية .

يعتمد الباحثون من الشرقيين والمستشرقين على تاريخ الاداب العربية لبروكلمان .ولا يعتمدون على الاقسام الخاصة بشمال افريقيا منه ، لانها

تعتبر اضعف الاقسام .

لماذا ؟

لاننا لا نكتب ما ينتظر منا ان نكتبه عن انفسنا ، فلا يجد الباحثون ما يكتبونه عـــنا...

للمصريين قواميس عامية وضعوها بانفسهم ، من اهمها « المعجم الكبير في الالفاظ العامية المصرية » لاحمد تيمور ، ولهم مراجع عن العادات والتقاليد المصرية ، من احدثها « قاموس العادات و التقاليد و التعابير المصرية » لاحمد امين ولهم مجموعات من الامثال العامية المصرية مشروحة او مترجمة، منها مجموعة احمد تيمور في اكثر من خمسمائة صفحة، ولهم ابحاث ودراسات في الادب الشعبي المصري ، واسماء يستشهد بها في الموضوع مثل احمد ضيف وشوقي ضيف وعبد الحميد يونس واحمد رشدي صالح وغيرهم.

وللسوريين كذلك قواميس عامية احدثها « معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانية » لانيس فريحة، ومجموعة من الامثال العامية يزيد عددها عن 4 000 لانيس فريحة ايضا ولهم دراسات في الشعر الملحون من اهمها كتاب « الزجل تاريخه ادبه اعلامه قديما وحديثا »لمنير وهيبة.

للمصريين و السوريين كل ذلك ، كتبوه بانفسهم عن انفسهم ، وليس لنا منه الاما كتبه عنا بعض الشرقيين والمستشرقين ، وهؤلاء -كما رايت- معرضون لضروب من الاخطاء قلما يمكن اجتنابها. لما انشيء قسم التاليف والترجمة والنشر بكتابة الدولة للتربية القومية بتونس منذ سنتين ، وجد نفسه يشتغل بدون ماعون : المراجع العامة لاتفي بالغرض ، والمراجع الخاصة مفقودة . جمع القسم المذكور مواد لوضع قاموس للعادات والتقاليد التونسية ، فاذا بتلك المواد في حاجة الى تعليقات خاصة للباحثين من الشرقيين ، وشروح خاصة للباحثين من المستشرقين وشرع القسم المذكور في تحقيق نصوص تاريخ ابن ابي الضياف ، فوجد ان حاجة هذا الكتاب الى قاموس خاص هي اشد من حاجة ابن خلدون ومن بعده المؤلفين التونسيين . وجمع مقدار لا باس به من الامثال العامية التونسية و الشعر الملحون ، وجد هو ايضا في حاجة الى قاموس خاص .

الاعمال التي تنتظر منا وكثيرا ما نسأل عنها هي :

1) معجم كبير للهجة العامية التونسية .

2) معاجم خاصة لمؤلفات ابن خلدون وابن ابي دينار وابن ابي الضياف وخير الدين وحسين خوجة وغيرهم من المؤلفين التونسيين المتأخرين.

3) قاموس للعادات التونسية به ملحق مصور.

4) مجموعة من الامثال التونسية مشروحة ومرتبة على الحرف الاول من المثل.

5) مجموعة من الامثال التونسية مرتبة حسب المواضيع.

6) نصوص مفسرة من الشعر الملحون.

كل هذه مواضيع يفسر بعضها البعض ويتمم بعضها البعض ولا يحسن القيام بها الا تونسيون وفي تونس، وذلك لاتصالها بعادات وتقاليد لا يزال العمل جاريا بها عند مختلف طبقات المجتمع التونسي.

الدكتور الطاهر الخميري

المسرحيات الشعبية

بقلم : حسن الزمرلي

ها نحن على قاب قوسين او ادنى من تاريخ افتتاح موسم تمثيلي جديد(*) ، موسم سنة 1962 ــ 1963 . فهل عدلت الفرق عن الطرق القديمة وأعدت لنا مسرحيات جديدة أحيت فيها صفحات لامعة من تاريخنا الحافل الجميل ، ومجدنا الاثيل ، او وصفت فيها بعضا من عاداتنا وتقاليدنا القديمة التى امتازت بها شخصيتنا ، او بسطت فيها آراء وافكارا من شأنها ان تساهم بها فى نهضتنا الحالية ، ومقاومتنا للتخلف ، وتعين على السير باكثر سرعة فى طريق التقدم والازدهار ، وعلى رغبتنا الملحة فى توحيد مغربنا الكبير ؟



أم هل قصر المؤلفون الجهد على اقتباس مسرحيات اجنبية قليلا ما تتصل بواقعنا فاكسبوها ظاهريا قالبا تونسيا فى اللهجة واسماء الاشخاص ليقدموها تحت عنوان مسرحيات شعبية .

فان فعلوا ذلك ، فانا نكون مضطرين الى التصريح بانهم لم يأتوا باى قسط فى بناء صرح تونسنا الجديدة . ذلك لان عملهم هذا لا يمت بصلة الى ما يجب ان نفهمه من عبارة « المسرح الشعبى » .

فليس المسرح الشعبى فى تأليف مسرحيات مضحكة باللهجة الدارجة او فى نقلها لتلك اللهجة عن المسرحيات الاجنبية وفى تقديمها أمام جمهور يشكو التخلف ، او فى بعض الاحيان غير شاعر بتخلفه ــ قصد ابتزاز ماله باضحاكه باى طريقة كانت .

فالمسرح الشعبى ينحدر من مبادىء اكثر رفعة وسموا وجدية ، ويتصل باسباب اكثر عمقا ، وله غايات اكثر اتساعا وطموحا .

المسرح الشعبى هو المسرح اليونانى ، الذى كان يتجمع فيه سكان مدينة كاملة ، كبيرهم وصغيرهم ، رفيعهم ووضيعهم ، فيثير أمامهم المشاكل الدائمة التى يتخبط فيها الانسان أمام مصيره ، وذلك بامثلة مستوحاة من تاريخ

(*) انظر الفكر السنة 2 ــ ص 8 (سنة 1962) .

اولئك السكان ، وعقائدهم وخرافاتهم الدينية ، او ليبسط امام هذه الجماهير المتجمعة ما تشكو منه من انظمتها السياسية والاجتماعية والاخلاقية • فهو المسرح الذى لا يخاطب درجة معينة من المجتمع ، بل يخاطب الشعب فى جميع طبقاته فيما تتفق عليه من احساس وشعور وعاطفة وعقيدة ، وهو الذى يرفعهم عن حالتهم العادية باللفظ والموضوع • فهو المسرح المطهر للارواح (كاتارزيس حسب عبارة ارسطو) وهو المسرح الذى يهذب اخلاق الناس وهم يضحكون حسب قول هوراس (Castigat ridendo Mores) (Horace)

والمسرح الشعبى هو المسرح الذى انشأه شيعة الامام على كرم الله وجهه بعد ما بالغ الامويون والعباسيون فى مطاردتهم وتقتيلهم فكتبوا مسرحيات على نمط مسرحيات اسخيلوس واخذوا يقدمونها اولا بانجاد ايران ثم بالبلاد التى امتدت اليها يدهم ليحيوا بها فى نفوس آل مذهبهم وليبشروا بها حيث اتاحت لهم الظروف بذلك وكانوا يسمونها بالتعزيات •

وهو مسرح « السير » و « الكرامات » الذى كان يطوف المدن والقرى والمداشر بالبلاد المسيحية لنشر دين عيسى فى مسرحيات يدوم عرضها أسابيع كاملة ويحضرها جميع السكان من اكابر النبلاء الى أقل السوقة •

وهو مسرح عهد الملكة ايليزابات الذى كان يصف بصدق وحتى بشىء من الجرأة أخلاق المجتمع الانكليزى فى ذلك العصر وعاداته واذواقه •

وهو بالاخارة المرآة التى تنعكس فيها حياة أمة بتاريخها ، وعقائدها • واخلاقها وعاداتها وتقاليدها •

اما ما نقدمه نحن ، تحت هذا العنوان المغرى فما هى فى غالب الاحيان الا نسخ مشوهة لمواضيع اقتبسناها من الجار او حتى من بعيد • فلا عمق فيها ولا جدية فهى مريحة لا غير وهى من نوع المسلاة الوضيعة •

فقيمة الضحك تعرف من تربية الانسان ، ودرجته الثقافية ، والبيئة التى يعيش فيها والعادات الاجتماعية • فبها تختلف سهولة الضحك وطبيعته وقيمته •

« فانك ترى قبائل وأمما كاملة تضحك بسهولة عجيبة وتعيد الضحك مرات متوالية لنفس السبب ، كما يضحك الاطفال ، بينما ترى غيرها من الجماعات تعير نفس السبب مجرد ابتسامة وكثيرا ما تعيرها قصد المجاملة لا غير » (فيليكس قاف ـ كتاب الضحك والمسرح الفرنسى) •

وهذا ما يفسر لنا نجاح بعض المسرحيات الحالية من كل معنى ومن كل ذوق جمالى واعادتها المرات العديدة أمام نفس الجمهور •

فليس هذا ما نريده من مسرح شعبى حرى بهذا الاسم لا سيما فى ظروف مثل الظروف التى تجتازها الآن جمهوريتنا الفتية • بل نرى من الواجب ومن المتحتم ان نضرب حداً لهذا النوع من التمثيل الذى انهمكت فيه بعض الفرق لما وجدته فيه من ارباح ، وان نكذب ذلك التصريح الذى يفوه به بعض المسؤولين وحتى بعض المؤلفين المعروفين كلما وقع الحديث فى هذا الموضوع : « بما ان الجمهور ميال الى المآكل الشعبية فلنشبعه « باللبلابى » • فتصريح كهذا من مؤلف او من قائد فرقة يعتبر فى نظرنا خيانة مؤتمن ، لان وظيفة الفن المسرحى فى بلاد كبلادنا ـ ونعنى ببلادنا عموم اقطار المغرب العربى ـ هى اولا وبالذات وظيفة توجيهية ، تربوية •

والفن المسرحى درجات ترافق سن الانسان من طفولته الى كهولته وحتى الى شيخوخته ، شأن الكتاب ، والمجلة ، والاشرطة السنمائية ، وحتى اللعب•

فاذا اردنا ان يكون لنا مسرح قوى الاركان ، وجب علينا ان نجعله فى خدمة الشعب فى عموم طبقاته ومراحل حياته •

يجب ان يكون لنا مسرح للاطفال • ولا فرق لدينا بين صغير السن وصغير العقل • يجب ان نحدث المسرح المدرسى ، والمسرح الطالبى ومسرح الكهول والا نهمل فى اية مرحلة من هذه المراحل صبغة التوجيه التى تقتضيها هذه الفترة من حياة بلادنا • فالمسرح اعادة حياة او خلق حياة • فهو العالم الصغير الذى تحيا فيه صور مثالية ، فى جمالها او قبحها من صميم حياة ذلك الشعب فى ماضيه وحاضره ، وهو المخبر التوجيهى الذى تقع فيه التجارب على مرآى ومسمع من الناس ليتبينوا من سلوك اشخاص معينة وجدوا انفسهم فى حالات وظروف معينة وليحكموا على ذلك السلوك ويقروا مدى فعاليته فى عالم الواقع بعد اختباره فى عالم الخيال • فهو كغيره من الفنون اصطدام قيم لخلق قيم جديدة ايجابية او انكارية واذا نجحت التجربة فى عالم الخيال أصبح معمولا بها فى عالم الواقع • فالتجربة فن ما دامت تجرى فى عالم الخيال وهى صناعة اذا وقع العمل بها فى عالم الواقع •

فهذا ما نطلبه من مسرحنا • وهذا ما نطالب به مؤلفينا • وعلى هذه المبادى نريد بناء مسرحنا الشعبى الذى يعود بالنفع على أمة تريد السير بسرعة لتلتحق بركب الحضارة حسب تعبير الرئيس الجليل •

اما المساخر التى عهدناها من قبل ، فقد جاء الوقت للاعراض عنها •

وهذا عمل جبار لا يمكن انجازه الا فى مستوى حكومى ، قومى ، لانه يتطلب تعديد المسارح ، وتكوين فرق وتشجيع المؤلفين كى يمكن استعمال الفن المسرحى للغايات التى بيناها وما ذلك على حكومتنا الشعبية النشيطة المخلصة بالامر العسير •

حسن الزمرلى

مسافر زاده الخيال ...

بقلم : محمد عامر غديرة

كلا انها ليست انوارا تلك الصور (*) الناصعة التى استوقفت طرفك وانه ليس لذكرياتك ولا لامانيك من الواقع نصيب .

كلا انك لم ترشيئا ولا سمعت نغما . وهذه اللغة التى تحكى اصواتها ليست لغتك .



انك لم تر شيئا . حتى السراب انك لم تره .

انك لم تستنشق قط ريح البحر فى الصباح المنعش ولم تشتق نفسك فى سكون الاذان الابدى الى الفجر الجديد ولا ارتاحت الى ريح « انوقيدة » يشعل بها ابوك سيقارته فيمتلىء قلبك نشاطا واملا قتالا .

كلا انك لم تستأنس - طفلا - لطبل السحور حينما كنت تسمعه من عالم النوم يقترب شيئا فشيئا من راس الزقاق الى يقظتك فى بيتك وامك تخضك لتشاركها فى انتظار الاب الساهر - وهل من حاجة الى السهرة ان لم ياتك بالزلابية الصفراء ؟

كلا انك لم يناجك الخريف بغناء « الرطب » ونداء « الامسية » ولم تفتح اجفانك على طيب الرمان المفلج والذباب المترنم وامراض العيون .

انت ؟ انك لم تمر قط بين ازقة المدينة فى فجر الصيف ولم تلتفت الى روائح « الزبلة » المؤذنة بالحر ولم تنحدر خلا لالشوارع ترافقك بين مراحل المقاهى الجاثمة نغمات اغنية لا وجه لها ولا مشيت على البلاط المرشوش ماء وغبارا تتبعك روائح الشواء .

انك ما سموت قط الى موسيقى الكاتدرال ولا جثوت لصمت المساجد ولا تأثرت لنشيد اليهود فى مصلاهم ! كلا ما تفتحت نفسك الى وسع الله وما انشرح صدرك لما انت فيه من ايمان .

(*) انظر الفكر السنة 5 - ص 602 (سنة 1960) .

كلا انك لم تنطلق مع رفاقك الى ساحل بلادك الجميل ولم تر نسيج الريح على رمال الشاطىء ولم تنم قط لنزاهة البحر المصوت ٠

كلا لم تدس حافيا بياض الرمل المتنمع ولم تعرف برد البحر يمتصه من لحمك حر الريح ولم تهشم قدماك قضبان « الشربيو » المنسابة تحت اوراقها الخضراء ٠ وما التهمت ـ ملطخا فمك ويديك ـ حبات التوت الاكحل وما امتسحت بحشائش « الغاسول » وما تسلقت الخروبة الظلماء قط ولا التجات الى ظلال الزيتون ٠

كلا انك لم تر فيضان الشمس فى البادية الجرداء ولا استواء الدنيا فى منتصف النهار عندما يشتد القيظ ويقف الزمان وتتبرج الارض ويلح الصرصار ويطغى الفكر ٠٠٠

انك لم تضطجع لسكون القيلولة الحار يستفزه الشوق ويضجره العرق

كلا ما تاقت شفتاك الى اللوز الاخضر ولا نفسك الى قضمه قضما وتفليجه تفليجا وما مررت مصبحا او ممسيا بين زروب « الهندى » تجمع بكماشتك الطويلة ثماره ثم تعمد اليها فتملسها فى الرمل تمليسا ٠

كلا انك لم تغمس يدك فى طبق « الشكشوكة » المشترك ٠

كلا انك لست منا وهذا الفضاء الذى ايقظك فى هذا الصباح ليس البحر الابيض المتوسط كلا ٠ وهذه الصور البيضاء التى وقفت عليها عينك ليست بمرجعتك الى وطنك ٠

* * *

بلى ! هذه هى بلاده ! قد رآها فاثبتها ٠ هذه بلاده قد سمع عنها انها تدعو كل ذى علم ليعمل وكل ذى عزم ليجتهد ٠ وهذا الميدان بين ايدينا واسع مفتوح لجميع الناس فلا حياء ولا رياء ٠

انه سمع ـ الى دعاء البلاد ـ صراخ بائعى الصحف حواليه يدعونه من الخارج الى الاهتمام بما حوله وسمع من الداخل صراخ بعض اقوال الحكماء ينبثق فى نفسه وتختلط الصرخات وتمتزج ٠

« الرئيس الامريكى يصرح : لسنا سعداء ما بقى على وجه الارض فقير يؤلمه فقره ٠

« حريق فظيع فى مغازة كبيرة بمرسيليا ٠ **جرح الاسد وقتل الثور**

« البرلمان يصادق على قانون الحريات الفردية ٠ **ليس للمصلى فى صلاته « ولا للمصدق فى صدقته ولا للورع فى ورعه من الاجر ما للمجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق** ٠ تسخر طاقة الشمس لتوليد الكهرباء ٠

« **العلم لا يتم الا بالعمل** ٠ برنامج كبير يصمم لاعانة البلاد المتخلفة ٠ **ان الرجل « العاقل اذا لقى عدوه فى المواطن التى يعلم انه فيها هالك سواء أقاتل ام لم**

يقاتل كان حقيقا ان يقاتل عن نفسه كرما وحفاظا ٠

* * *

انه كان لنا بالمدينة ناسك لم ير الناس مثله قط حدة ذكاء وسعة معرفة واعمال رای وحرصا على العمل والاجتهاد ٠ وكنا « **كلما هبت الريح على قضبان الشجرة** » نأوى الى صومعته فيتحدث الينا فيفتح لنا الآفاق وكنا نراها بعيدة واسعة ٠ فاذا تكلم فكانه القرآن يقرا او المذياع يذيع فليس الا ان نستمع ـ وكان من كثرة الزهد وقيام الليل نحيل الجسم التوى لحمه على عظمه فكانه قد من اجذاع الكروم ٠ وكنا ـ عفا الله عنا ـ نحبه ونعجب به ٠

وكنا نرنو معه الى بعيد الآفاق ونتعطش الى الفجر الازرق ونفر الحضيض ونحاسب النفس ونطلب المثل الاعلى ونسبح فى الخيال ٠

فكان يذهب بنا الخيال الى ضروب من الصور نبتغى من ورائها الخروج من واقعنا الى مصير احسن واصلاح معيشتنا فى الدنيا ونجاة ارواحنا فى الآخرة ٠ وكان يذهب بنا الخيال الى انسجام السلطان مع الحكمة على ممر السنين ٠ فكنا نجد لكل كبير برز فى الميدان السياسى كبيرا يسايره ويسانده فى ميدان الفكر وكنا قد وجدنا ان دبشليم باعانة بيدبا وكسرى انوشروان باعانة برزويه والخليفة المنصور باعانة عبد الله بن المقفع والمامون باعانة المعتزلة وسيف الدولة باعانة المتنبى والفارابى وابا يوسف يعقوب باعانة ابن طفيل وابن رشد قد ساعدهم الحظ على السير الى الامام بامور الرعية ٠

وكان يتعمق بنا الخيال فنذهب الى تصور المقابلة التاريخية بين ابن خلدون وتيمورلنك والمحادثة الهامة بين « قوته » و « نابليون » بالمانيا ٠ فنتساءل عما كان يمكن ان يدور من الحديث بين الرجل والرجل بين رجل العلم ورجل العمل بين رجل الفكر ورجل السلطان عندما يشعر كل منهما انه امام ند له وانهما كلاهما مسؤولان عن سعادة البشرية جمعاء فيعظم فى اعيننا الحدث ويحيط به السر والهيبة والجلال والمسؤولية والواجب ٠

لما نشبت الحرب العالمية الثانية كان اكثر من بيدهم الحل والعقد ببلادنا اليوم اما مقبلين على التعليم الثانوى او منتهين منه ٠ وكنا جميعا فى ذلك العهد نامل ان يتم انتصار المجاهد فى الميدان السياسى وان يتحقق عمل الكاتب فى ميدان الفكر ٠

ثم كانت ثورتنا وانتصر الحق ٠ ولكنا لم نر فى طول تلك المدة من كنا نرمقهم من رجال الفكر قد وطدوا العقول وكتبوا الكتب مسايرين الثورة التحريرية او مهيئين الثورة الكبرى التى هى على الابواب ٠ لقد تحقق النصر السياسى ولكنا وجدنا على الصعيد الفكرى وفى الميدان الروحى فراغا يكاد يكون كاملا

وانتاجا قليلا جدا او بعيدا كل البعد عن المشاركة فى الثورة والحياة .

فماذا فعل الذين تناولوا القلم للكتابة اثناء الحرب العالميـة الثانية وبعيد انتهائها وماذا كتبوا عن الشخصية التونسية المكافحة المتحررة مما يشبه منهاج فركور وارغون وسارتر وكامو وما اهتموا به فى مؤلفاتهم ؟ وكيف حددوا القيم وكيف عالجوا المشاكل وهل وصفوا العقلية الجديدة ؟

ام ما بالهم سكتوا ، سكتوا عن الثورة كانها لم تكن سكتوا عن التـونسى فى كفاحه عن التونسى فى تعلمه عن التونسى فى عمله وتشييده كان كل هذا لـم يكن ؟

وانا وجدنا من فتح لنا آفاق الفكر يغلق اليوم فى وجهنـا الابواب ويستر النوافذ ويضرب لنا مثل جمل الناعورة وبغل المعصرة .

نعم انا نجد فراغا فى ميدان الانتاج الفكرى ونجد فرقا عظيما بين ما كنـا نأمله اثناء الحرب العالمية الثانية وما نجده اليوم بين ايدينا ـ فلئن لـم يخب املنا لا قليلا ولا كثيرا فى الحقل السياسى فلقد خاب املنا فى ميدان الفكـر الخيبة الكبرى . وانه يحسن بنا عند هذا الفراغ القائم ان نكون على شىء من التواضع فانه ليس لاحد ان يتزعم الفكر التونسى فى غير انتاج وفى غير تعليم وانه ليس لاحد فضل على احد والعمل فى بدئه والجهد جماعى والانتاج قليل والمرحلة طويلة .

وانا لئن تألمنا اذ نجد انفسنا فى اول هذه المسافة الطويلة وحدنا بدون معلم وبدون قائد فكرى فانا نتألم اكثر من هذا عندما نفكر فى الجيل التـونسى الصاعد المتعطش الى المعرفة المحتاج الى الغذاء الفكرى . وذلك انا قد ساعدنا الحظ على تجمعنا وابقاء شخصيتنا اذ التففنا حول المبادىء السياسية الـرامية الى استقلال بلادنا اما هؤلاء الاطفال الذين يجدون بلادهم ـ طبيعيا ـ حـرة مستقلة فمن لهم ومن سيغذى افكارهم ومن سيربطهم بماضيهم ومن سيكـون شخصيتهم ويجعل من كل واحد منهم تونسيا حرا لا مصريا خالصا ولا فرنسيا صرفـا ؟

محمد عامر غديرة

او «كاموس» الاديب الحي

بقلم : فـرحات الدشراوى

لقد نعت الاخبـار (*) فى مستهل هـذا العـام الاديب الفرنسى « البـار كاموس » (1) واسهبت فى تقدير رزية الادب فيـه واطنبت فى نعت منزلتـه والتنويه بخصاله ككاتب قصصى او مفكر فيلسوف او مؤلف مسرحى · وان مجدت الصحف فى عدة عواصم كباريس ولندن او رومة وسطوكهلم اديبا قد فـاز أجدر فـوز بجائزة « نوبل » العالمية وان لهجت أصوات المذياع من مدن مختلفة باسم الكاتب الفقيد فانما شخصية مؤلف « الغريب » فوق النعت والاطراء فلقد عبر « البار كاموس » فى حياته لا بأدبه فحسب بل بسلوكـه ايضا عن كنـه الوجـود وحقيقة الكيان وادى رسالة الجد والصدق وشهد شهادة ناصعة طاهرة ومـرة قـاسيـة عن مأساة الانسان وحيرته البشرية ·



وان ذكرنا بتونس « البار كاموس » كما ذكر فى اقطار اخرى وان أضفنا صوتنا العربى بمجلة « الفكر » الى اصوات اخرى فى لغات شتى مساهمة فى رثائه فلانه قد وقف فى حيـاته وفى ادبه مواقف بـرهن فيها عن تمثيله فى الادب العالمى لاشرف مذهب من مذاهبه واجل نزعة فيه ، نزعة « الانسانية » فى الادب ·

(*) انظر الفكر السنة الخامسة ص 402

(1) يكتب اسمه هكذا « كاموس » ولكن لا ينطق بحرف « السين »

ثم اننا ولابد لنا من رثائه ولا مفر عندنا من اللوعة عليه لا نقف الا وقوف من يؤدى امانة الاعجاب ويعبر عن الم الفقد وشعور الوفاء ٠

وانما يذكي اللوعة عليه ويلدغ الفؤاد لموته ان اغتاله الردى اغتيالا مرا وسحقه سحقا عنيفا فقصف شبابه قصفا عند تمامه واكتماله فى عهد النضج ويانع الانتاج وازدهار الخلق الادبى ٠

وان شد المصاب لموت « كاموس » الاديب الفرنسى فانه لشديد ايضا على اهل العربية عامة وعلينا نحن الافارقة خاصة ٠ فالاديب الفقيد قد فتح عينيه فى وجه سماء هى سماؤنا وزنا الى آفق هو افقنا ودرج فوق تراب هو ترابنا ؛ ثم نشأ نشأة بؤسنا فتألم فى حداثته ما هو من المنا وجاع ما هو من جوعنا ، ثم احتار وقلق فوجدنا ــ نحن المغاربة ــ فى حيرته لونا من حيرتنا ولمسنا فى قلقه صدى من قلقنا ٠ ثم وقف مواقف الشجاعة والثبات فى شدة العزلة وضنكها ومروءة الوحدة وكرامتها فظل عزيزا عندنا لقرب الصلة به حبيبا لدينا لطهارة عنصره وصدق انسانيته ٠

وان اختلفت لغته عن لغتنا وتعارضت جنسيته المادية وجنسيتنا وان تباعد عنا تارة فى حكمه على الثورة عامة والثورة الجزائرية خاصة ــ وتقارب منا تارة اخرى فى نضاله عن الحق وكفاحه فى سبيل العدل فمؤلف « الوباء » تجرع من علقمنا فاستجاب لصرختنا وردد صوته اباءنا ترديدا واشاد قلمه برفضنا حتى انزله بين المبادىء والجواهر وابرزه فى مكانة القيم الحية والمثل العالية ٠

فلطالما لمسنا فى كتبه ــ وقد خمدت اذاك نار الحرب وبقى منها الضيق والعسر ما لمسنا من هم النفس وشقائها فى وجودها ووعيها لجحيم كيانها ومحال (1) مصيرها وقلقها فى ظلام العدم المطلق ٠

ولكم لمحنا فى سلوكه من « محال » الحياة وتعذر الوجود وصراع للشر ومصارعة لليأس فعرفنا جده وفقهنا صمته وفهمنا « فاقته » وعذابه ٠

---

(1) اللفظة تعرب اللفظة الفرنسية : Absurde فهى فى نظرنا اقرب الى حقيقة المعنى من « العبث »

وانا لأعجبنا به اعجابا لا جزاف فيه ولا مراء واننا لفضلناه على غيره من الادباء كسارتر (I) ومالرو وجيد وموزياك فضلا عن « جيونو » و « موروا » أو « دوهامال » و « جونفوا » . ولم نفضله غيا أو غرورا فمؤلف « العادلون » حقق بين سلوكه فى الحياة ومواقفه فيها وبين ادبه ما حقق من وحدة ولحم بين الوجود والادب ما لحم من لحمة حتى خلقه الادبى عصارة نفسه وشاهدا عن الانسان عن شقائه ولعنته ، عن طهره وبراءته .

ثم انه الاسلوب لأنه الانسان (2) لا كذب فى قوله ولا بهتان ولا زخرف ولا تنميق ، فكر ثاقب ورأى سديد ، نغمات حية ونبرات صادقة ولفظ صاف فى سلاسة الماء صلب فى قوة الجوهر كالمنقوش نقشا او المنحوت نحتا .

ولقد حببه لنا ما سئمناه عند كثير من الادباء من السفاهة والافتـراء فكم يقولون ما لا يفعلون او ينسون فى الغد ما ناصروا من القيم بالامس او يهتكون حرمة ما علموا البارحة من التعاليم الخالدة فيكذبون على رؤوس الاشهاد .

وانه ليزيدنا حسرة على اديب مثله ووحشة لصوت كصوته ما اضجرنا به بعض ادباء العربية بالامس واليوم هنا وهناك من تناقض بين حقيقتهم ومظهرهم بين فساد سريرتهم وطهارة ظاهرهم قبح فى الباطن وتجمل فى الزى شر فى عروقهم يسرى وخير به يتظاهرون وللقراء به يخدعون وعليهم يموهون وللادب يزيفـون .

اما « كاموس » فلتطمئن روحه فى راحة الخلود !

فـرحات الدشراوى

(I) هكذا بالترتيب :
Giono - Mauriac - Gide - Malraux - Sartre - Genevoix - Duhamel - Maurois
(2) عن Buffon

بعد الهجرة

بقلم : المنجى الشملي

اسخط على ان شئت(*) ، وارض عنى ان بدالك ، فسخطك ورضاك سيان اليوم عندى ... اذ انك العهد نكثت • وعلى غى سريت ...

عهدتك فى باريس ـ حيث كانت تجمعنا محاضرات جامعة السربون ، ومطاعم الطلبة بالحى اللاتينى، ومقهى «لاشوب باريزيان» بشارع « دى زيكول » ـ صادق العـزم ، طيب السريرة ، ولم تكن عن الحزم بعيدا ، ولا عـن طريق الجد متنكبا ـ



وكنت اصطفيتك لى صديقا ابث اليه سرى ـ على كثرة الصديق ـ ايمانـا منى بان « رجـلا يساوى الف رجل ورجلا لا يساوى رجلا »

وكنت تبث الى ثورة نفسك ـ وتحدثنى بما يجيش فى اعماق قلبك ، وكنا نتذاكر فى شان بلادنا ـ حاضرها ومستقبلها ، ونرنو الى مغربنا وكنا اذا جاءنا صوت البشير نطـرب ونحس بالامل الهزاز يسرى فى شرايينا ، واذا جاءنا صوت النعى نحزن ونعطف ونرثى ، ويزيد عزمنا ثباتا على العمل يوم نفرغ من الدرس فى الجامعة ونرجع من بلاد المهجر الى الوطن الحبيب •

عهدتك يومئذ تسلق المشعوذين بلسان حديد وتقول : « لعمرى ان اكثرهم بالشباب ليسخرون ، لا يثقفون ولكن بالتثقيف يتشاغلـون : زيف وكذب وعمل لعب ، ظاهرهم نسك وباطنهم فتك ، جدهم هزل ووقارهم بطالة .. »

وكنت يومئذ اجتهد فى ان اثنيك عن ارسال اللسان وعن الموجدة والحفيظة، وأدعوك الى التثبت واطالة الفكرة ... وقدمت الى عهدا ـ لا يقـارنه امكان النقض ، قلت ، ـ على ان الرجوع الى الوطن سيكون بداية العمل •

ونجحت ، **وبعد الهجـرة** رجعت ، ونعمت لك الحيـاة وابتسمت ـ ورضيت ونسيت • وطال عهدى بك ، كان **الجماعة** لا تكون الا فى المهجر ، **والفرقة** مما يلـزم فى المـوطن ، وضننت عنى بأخبـارك ، حتى جـاءنى كتـابك امس !

(*) انظر الفكر السنة 6 ص 207 •

تلقيته ـ حبب الله اليك الانصاف ـ فالفيتك لنشاطى منكرا ، وبى معرضا ، وعلى لائما غضبا ، والفيت شيئا الا يكن حقدا فهو من الحقد غير بعيد ٠

تلومنى ـ عفا الله عنك وطيب نفسك ـ لانى نشطت لبعض الاعمال الثقافية واعربت عن ايمانى بمستقبل الثقافة فى تونس وعن امكان تجديد الثقافة فى تونس وبعث الفكر الحر ، وغضبت لقولى « انـه لابد من ان الليل الى الضيـاء لانه لابد مما ليس منه بد ! »

عبتنى بقولى هـذا ، وبايمانى ذاك ، ووصمت الفكـر فى بلادنـا بالعقم ، وقضيت على كل نشاط بالخيبـة ، وكشفت القنـاع عن نفسـك المتـأذية من عمل غيرك ٠

جمع كتابك اسباب التعادى ـ ولا سبب ـ وحصل علل التضاغن ـ ولا علة ـ ما لك ؟! اضحيت ركينا غير عجول ، هزيلا غير متحرك ، منصوبا غير مرفوع ، لا تصلح الا للجر ٠٠٠

سألتنى ـ ابعد الله عنك حيرة السؤال ـ عن علة نشاطى هذا وعـن اثماره العاجل والآجل ، فلبست الحق بالباطل ٠ ولـو كنت فطنت لتنكرك لمبادئك ، ولنكثك لعهدك ، واستبداد حب الذات بك ، ولفضيلة العمل ورذيلة الكسل ، كان ذلك ازين لك فى العاجل واجدى لوطننا فى الآجل ٠

وقد قال ابو القاسم الشابى قولا ـ ان نظرت فيه فقد كفيتنى مؤونة اقناعك ولا اخالك الا فاهما للمتن وللشرح ـ وهو قوله :

« اذا مـــا طمحــت الى غـايـــة   ركبـت المنى ، ونسيـت الحـذر »
« ولــم اتجنـب وعـــور الشعـاب   ولا كبـــة اللهـب المستعـــر »
« ومــن لا يحب صعــود الجبـــال   يعش أبـد الدهـر بين الحفـــر »

المنجى الشملي



ازمة الفكر الاسلامي المعاصر

بقلم : هشام جعيط

لقد مر اكثر * من قرن ونصف على اول بوادر حركة النهضة التي انبثقت انبثاقا على اثر الصدمة التي احدثتها حملة بونابرت على الفكر الشرقي ومع هذا لم تصل الثقافة العربية الاسلامية الى المستوى العالمي ونحن نتصفح الآثار الفكرية الواحدة تلو الاخرى ولا نعثر مع الاسف على انتاج يضاهي روائع ما اخرجه لنا الفكر البشري المعاصر. ونلوح بنظرنا من هنا وهناك في الافق الثقافي فتجهرنا اضواء العبقرية ونعجب بقصة بروست في فرنسا وبعظم ما بنته القصة الامريكية ونتردد في الاختيار بين Tolstoï و Dostoïevki وبين Hemingway و Faulkner ثم اذا تصفحنا الآثار العلمية فيها لتعدد الاسماء الساطعة والشخصيات اللامعة : Freud و Jung في العالم الجرماني Bergson او Durkhein و Levi-Bruhl في فرنسا Kardiner وممثلو المدرسة « الحضرية » في الولايات المتحدة وانا لظالمون لغيرهم ممن يدين لهم الانسان بتقدم حاسم في معرفة التاريخ البشري والمجتمعات البشرية والنفس البشرية. لقد عرف آخر القرن التاسع عشر قفزة فكرية لم تعرفها البشرية من قبل قط.

واذا قارنا ذلك بالنهضة العربية الاسلامية نرى في هذه الاخيرة مجهودا لا يجحد وشخصيات لامعة وحركة وغليانا ولكن حركة اقليمية وغليان محلي وانتاج ضعيف من الوجهة المطلقة. ففضل النهضة فضل نسبي يبرز بمقارنة الاشكال الفكرية الجديدة بالعهود القديمة أي بالانحطاط المجحف المهول. والى الآن لم تتعد الثقافة العربية

(*) انظر الفكر السنة 10 ـ ص 713 .

مستوى النهضة ولم تخرج من السبيل الذي سطرته لها هذه الاخيرة واكبر دليل على هذا ضعف سمعة الفكر العربي في العالم الخارجي فالصحافة الغربية متفتحة الى كل ما يبرز في العالم فهي تتكلم عن الروسيين امثال Cholokov وعن Evtochenko وعن ذاك الفيلسوف المجري الذائع الصيت George Lukaks وعن الفلاسفة الاسبان الاجلاء امثال Unamuno وحتى عن الافريقيين. اليس الغرب هو الذي اشاع ذكر KAFKA وهو تشيكوسلوفاكي يكتب بالالمانية ؟ ألم يشغف الناس بالغرب بشعر tagore الذي أبرز بابداع صورة ما في الشعور الهندي من معان خالدة ؟ لا، حقاً ! ليس الغريب هو المتآمر مآمرة الصمت على الانتاج العربي فان حركة الترجمة فيه قوية جارفة كما ان الشغف متزايد باثار الشعوب الاخرى بعدما تقوضت فكرة تفوق الجنس الاوروبي بفضل مجهودات الانتروبرلوجية والعلوم البشرية. حقا قد تظهر بين حين وآخر بعض الاسماء واخص بالذكر اقوى شخصية فكرية عرفها العالم العربي المعاصر وهو طه حسين الذي يعد بحق فكرا عالميا او شخصية اخرى لا تقل عنها قيمة واعني محمد اقبال ولكن الظلام منبسط على الاخرى. لا شك بأن هناك اسبابا موضوعية تفسر الضعف الكيفي للانتاج الثقافي العربي الاسلامي منها التخلف وقلة عدد الجمهور المثقف ولكنها غير كافية. ان للمثقفين بذاتهم مسؤولية عظمى في هذا الامر لقلة طموحهم ولقلة تفتحهم للانسانية العالمية ولاستكانتهم بل وكسلهم وفقدهم للمثل الفكرية العليا. والاسباب الموضوعية هي بالخصوص اسباب تاريخية. فتلك الصدمة مع الغرب التي عرفها الشرق فايقظته من سباته العميق لم تكن مع الاسف صدمة قوية فالشرق العربي لم يعرف الاستعمار المباشر وهذا بدون شك من حسن الحظ الا انه من الناحية الثقافية لم يمكن نخبة الشرق من التعرف الحقيقي بالفكر الغربي. فكانت الصلة مع الثقافة الغربية صلة مبتورة مغالطة سطحية. ولهذا تلاحظ دوما تأخرا Dephasage في هضمه للثقافة الغربية : فقامت مثلا حركة ترجمة عظيمة ايام النهضة ولكن لم يترجم الا لكتب لم يعد لها اي صدى في الفكر الغربي فاذيعت في الجمهور كتب فرانسوا كوبي ولم يتكلم عن Balzac ولا عن Flaubert وعلق اهتمام كبير بسخافات Bernardin de Saint-Pierre ونواح لامارتين ولا ذكر لـ Baudelaire ولا لرنبو

والامر أخطر كثيرا من الناحية الفكرية البحتة فقد انبنى النقد الادبي وأهم ممثليه طه حسين على أفكار Taine و Jules Lemaître وعلى النقد المتطرف وقد صارت بعد هذه الطريقة منبوذة مطروحة .

ويزداد هذا التأخر خطورة عند النظر الى التيارات الدينية والاجتماعية فالحركة السلفية قامت على ابداع جهاز دفاعي للروح الاسلامية عماده الرجوع الى المنابع على غرار الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر. ثم انها أرادت التوفيق بين الاسلام و « العصرية » بارجاع كل المبتدعات العصرية عقلية كانت او مادية الى الاصول الاسلامية فحدا هذا بالشيخ عبده الى عمليات تأولية هي بمثابة الجيمناستيك العقلي. وتمادى الجهاز الدفاعي على هذا النوع البسيط في حال ان الحركة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر قفزت بالتفكير الديني قفزات عظيمة الى ان ظهر اعلام الفكر المسيحي في أوائل القرن العشرين امثال Blondel ثم من بعد Mounier

ان التفكير الديني الاسلامي الحالي هو شكل من اشكال السكولاستيكية الجديدة Néo-scolastique المبنية على التفكير العقلي البحت. والاحتياج ملح الى جهاز فلسفي يصالح مصالحة نهائية بين الحاجات النفس البشرية المعاصرة بما فيها العلم وبين الروح الدينية بل يجب ان تتبدل نظرة النخبة جملة الى الدين : فالدين لا يعارض العلم الا ظاهرا كما ان تعصير المؤسسات الاولية لا يعارض المبادىء الدينية الا ظاهرا. الدين شيء متكون وخالق مستمر وهذا لا يعني نبذ التراث القديم — فقد اظهر النقد الحديث مثلا ان فكرة المسيح تاسست بعد خمسين سنة من موت عيسى وانها تركيب من الشعور الديني Une construction de l'affectivité religieuse وهذا لم ينافِ ابدا تعلق المسيحيين بايمانهم بالوهية المسيح التي هي نظرتهم التارخية، لها من المقاومة ما لكل واقع ماديا كان او معنويا. فيقال لرجل غير معترف بالوهية المسيح : بنقصه المعنى المسيحي Il n'a pas le sens du christ كما يقال للملحد الكامل : ليس له معنى الله. ويمكن للانسان ان يعترف علميا بتأسيس فكرة المسيح وان يكون له المعنى المسيحي في الآن نفسه لان هذا المعنى في مستوى نفساني آخر. ومن الرجال من له معنى الاسلام Le sens de l'Islam وهو بعيد عن الاشكال التقليدية والعكس بالعكس. والاسلام تركيب جبار متنوع

منطو على عدة معان فقد تتغلب على المسلم نزعة النبوة فيكون له معنى النبي او يكون له معنى الله أو يكون له معنى الاخوة الاسلامية وقد قيل في « سارتر » ان له معنى الله بالرغم من ان انتاجه فاقد لله بل لان انتاجه لا يعرف الاله ذلك ان فقده وألم فقده معبر عن شعور نضاح بالالوهية. وقد لاقيت مصاعب متعددة في افهام تلامذتي بكلية الشريعة في دروسي الخاصة بتاريخ الاديان وجوب تقدير الديانات البشرية القديمة والخروج من النرجسية الاسلامية. فالدين المصري شيء عظيم والقرطاجنيون اذ هم يرمون بابنائهم في النار تقربا للالاهة انما يفعلون ما يفعلونه شعورا نضاحا منهم بعظمة الله. وما معنى الشعور الاسلامي بالنار سوى تعبير عن نظرة اسكاتولوجية عميقة. لهذا لا يمكن للمسلم العصري ان ينبذ الاشكال والطقوس الدينية لانها رموز عن معان داخلية ولكي لا يفقد معنى الاثر القديم: Le sens de la tradition ولكن المسلمين بالغوا في الشعور بالاثر وقوة مشولية السلف الى حدود الشكلية الزائفة. وليس المجال هنا لعرض نظرية في تجديد الفكر الاسلامي انما المقصود ابراز المشاكل الثقافية العربية.

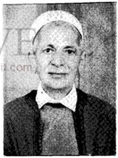
ولعل اتصال تونس المباشر بالثقافة الغربية من بين بعض المخلفات الايجابية للاستعمار وسط جملة المظالم والمخلفات السلبية. اتصال مباشر دون ان تفقد تراثها العربي. وهذه الوضعية الاستثنائية تؤهلها الى النهوض الحاسم الحقيقي بالفكر العربي. ولعل اهم الاثار في العلوم الانسانية ستظهر هنا في هذه الرقعة من البحر المتوسط لان نخبتنا من العلماء الشبان ورثوا عن الغرب موضوعيته وطرقه وطفقوا يطبقونها على تراثهم ومشاكلهم. الا ان الحل لازم للجمع بين العنصرين : الغربي والشرقي. فكثير من « الغربيين » (1) فاقدون للمعنى الاسلامي او حتى للمعاني الروحية بصفة عامة ولهم نزعة الى الحياة خارج واقعهم التاريخي فلا يهتمون بالحياة الفكرية العربية او القومية ويظهرون شيئا من الاحتقار الى كل ما طبع بطابع الاسلام « والشرق » والطابع العربي وليس هذا بحل كما هو ظاهر. اما « الشرقيون » فهم ابعد الناس عن الموضوعية وطرق الفهم العصرية ومغلقون تماما للتيارات العالمية وهم يعتمدون على الكتابات الشرقية وهي ضعيفة الا ما قل منها وندر. فالحل الوسط هو ان ينشط « الغربيون » منا نشاط « الشرقيين » وان ينفتح هؤلاء تفتح اولائك للثقافة الحقيقية. وان دور تونس عظيم وهي بدون شك أمل الفكر العربي الاسلامي في المستقبل.

(1) بمعنى ذوى التكوين الغربي .

النهضة التونسية الفكرية على العهد الحفصي

بقلم : محمد الهادى العامرى

سبقت بلادنا تونس(*) غيرها من عواصم المغرب فى تأسيس المدارس العلمية واناطة التدريس بها بعهدة الاكفاء من الاعلام نظرا الى اتساع نطاق الحركة الفكرية العلمية الادبية فيها وزخارتها على اختلاف العصور وتداول الاجيال ، ولا سيما فى شرخ العهد الحفصى الذى يبتدى من اول القرن السابع الهجرى الذى ازدهرت فيه الحياة الفكرية بتونس ايما ازدهار واعطت اكلها فى الطور الاول من اطوار حياة الدولة الحفصية طور الانبعاث والتجديد والعمل والانتاج حتى اصبحت تونس فى اثناء القرن السابع الهجرى درة تتألق فى العالم الاسلامى العتيق فى العصر الذى انطمست فيه حضارة بغداد باكتساح التتار وعبثهم بمعالم العلم والعمران واستئصالهم لهياكل الحضارة الاسلامية ببغداد فانبثقت أشعة الحضارة وشعت من جديد بتونس وانتقلت اليها الخلافة الاسلامية آنذاك حتى قال الشاعر التونسى مغتبطا ومهنئا الخليفة ابا عبد الله محمد المستنصر ابن أبى زكرياء يحيى الحفصى المتوفى سنة 674هـ ٠



أهنــا أميــر المـؤمنين ببيعــة جـاءتــك بالاقبــال والاسعــاد
فلقــد حبــاك بملكــه رب الورى فاتــى بشيــر بافتتــاح بــلاد
واذا أتـت أم القـرى منقـادة فمــن المبــرة طـاعــة الاولاد

وفى هذا العهد بالذات تألق مشعل المعرفة وانبثقت انوار النهضة العلمية المجيدة بتونس التى أمها العلماء والادباء من كل فج وصوب وتدفق بها سيل

(*) انظر الفكر السنة 9 ـ ص 337 ٠

من اعلام الاندلسيين وادبائهم وقصدها الطلاب من اقاصي البلاد يقتبسون من انوار المعرفة وضروبها الشيء الكثير ووقع التفكير في ابراز مشروع المدارس للتوسع في نشر المعرفة اسوة ببغداد ودمشق والقاهرة واقدم مدرسة فيما علمنا بتونس المدرسة الشماعية نسبة لسوق الشماعين الذي كان حول هذه المدرسة في اوائل العهد الحفصي ٠

اسست أم المدارس هذه لتكون محل دراسة ومباءة سكنى في آن واحد وذلك سنة 633 ومؤسسها الامير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد الحفصي الذي يعده التاريخ التونسي من افذاذ الامراء الصالحين كذلك كان هذا الامير اكبر موطد لدعائم السلطان الحفصي بهذه الديار فأسس جامع الموحدين (وجامع القصبة) وأحدث سوق العطارين بتونس وتتابع تأسيس المدارس العلمية على غراره ٠ وكان للتشجيع الذي تلاقيه الحركة العلمية من بعض الامراء والاميرات الصالحين اكبر ضلع في انتشار العلم والادب بتونس فقد تسابقوا في بناء المدارس واطلاق الجرايات الهامة للمدرسين الاكفاء بها ما لا مزيد عليه كما فعل أبو زكريا يحيى بن ابراهيم الحفصي الذي وفق الى بناء مدرسة سنة 642 واسس بها مكتبة زاخرة مفيدة في كل الفنون يستعين بها الطلاب والمدرسون على ما هم بصدده من نشر العرفان وانتخب للتدريس بها عالما ضليعا من علماء الاندلس الاستاذ الشريف احمد الغرناطي مؤلف كتاب المشرق في علماء المغرب والمشرق ٠ ولما اتم بناء المدرسة سلم للمدرس بها اموالا جزيلة وامره بتفريقها على كل من يوجد بالمدرسة ٠

ورتب للمدرس بها جراية قوامها عشرة دنانير حفصية في الشهر واخذ على نفسه ان يراقب سير التعليم بالمدرسة ففتح منها نافذة لداره الملاصقة يسمع منها كل ما يدرس ٠

ولما اسست الاميرة فاطمة الحفصية بنت الامير ابي زكرياء الحفصي المدرسة العنقية في اوائل القرن الثامن الهجري طلبت من السلطان أبي يحيى ان يفوض اليها في اختيار المدرس بها فاجابها لذلك فعينت للتدريس بها شيخ الجماعة المجمع على ضلاعته وتفننه وبراعته الاستاذ محمد بن عبد السلام الذائع الصيت الذي تخرج من مدرسة عبد الرحمن بن خلدون فيلسوف المؤرخين وامامهم ومحمد بن عرفة امام الفقهاء على الاطلاق في عصره وكان الاستاذ بن عبد السلام يقسم الاسبوع في تدريسه بين المدرستين الشماعية والعنقية وربما تخلف عن مدرسة الحرة فاطمة التي كانت تراقب سير التعليم بمدرستها باهتمام زائد ٠ فظهر لها التقصير من ابن عبد السلام بالنسبة للتدريس بمدرستها فنسبته للتفريط وفصلته عن التدريس وعوضته بالفقيه المدرس محمد بن سلامة وغني عن البيان ان هذا الوعي العميق ينبيء عن روح حصيفة ومخلصة في سبيل النفع العام لا يعظم في عينها الا القائم

بواجبه • والتفريط في ذلك غير مسموح به البتة مهما علت منزلة القائم بالعمل وعظمت لان المؤسسة كانت ترى ان الغرض الاسمى من التأسيس والتدريس لا يكمن وراء الشهرة الذائعة واللقب بل هو اسمى من ذلك فغيرت وبدلت حسب المصلحة العامة •

كان هناك شيء آخر جدير بالدرس والاعتبار بالنسبة لتلكم العهود هى مدة الدراسة • فمدة الدراسة وان لم تكن معينة بهذه المدارس بيد ان الاقامة او مدة سكنى الطالب بها كانت مضبوطة بتونس فالطالب لا يستحق السكنى والاعانة اكثر من خمس سنوات وقد علل ابن خلدون سر هذا الضبط بقوله : وهذه المدة المعينة بالمدارس التونسية على المتعارف هى مما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس منها وان خالف المغاربة هذا الترتيب وجعلوا مدة اقامة الطالب بمدارسهم التى اسسوها على غرار المدارس بتونس ستة عشرة سنة ؟ وابن خلدون يجيب عن هذا بان اساليب التعليم بالمغرب كانت عقيمة ورديئة بخلاف اساليب التعليم بتونس فانها كانت ارقى بكثير فقال : طال امد اقامة الطالب بالمغرب لرداءة طرق التعليم المتبعة وعبارته « لاجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة لا من سوى ذلك اهـ » •

ومن جراء هذا العقم اجمع العلماء بالمغرب حسب المصادر التى بين ايدينا على الاستنارة باساليب المدرسين التونسيين حتى ان السلطان أبا عنان المرسى لما أسس مدرسته (المتوكلية) بفاس فى القرن الثامن الهجرى واسند التدريس بها الى الحافظ الشهير بالمغرب الاستاذ الصرصرى وجه اليه السلطان أبو عنان من يمتحنه فى اساليب التعليم الجارى بها العمل بتونس فامتحنه الاستاذ موسى ابن الامام تلميذ الاستاذ ابن عبد السلام التونسى صاحب الطريقة الحديثة انذاك فى التعليم التى تعتمد المناقشة والتعليل والاستنتاج ولا تعول على الاستظهار : ولما طالب المرشد ابن الامام الاستاذ الصرصرى ان يحقق ويحلل المسائل التى يحفظها انقطع ولم يحر جوابا ولما احرجه بالاسئلة نزل الاستاذ الصرصرى عن كرسى التدريس كئيبا اسيفا واقتنع الفاسيون من ذلك العهد بفوائد الطريقة التونسية فى التدريس فسعوا فى نشرها والتعليم على مقتضاها ومن يومئذ قل الاعتماد على الحفظ •

ومن الطريف ان نذكر ان الدراسات العلمية العليا بتونس كانت حتى لاوائل القرن السادس من الهجرة تتجه نحو الدراسة التقليدية باستظهار النصوص عن ظهر قلب ولم يكن للعلوم النظرية ادنى حظ فى التدريس • وكان المشرق فى هذه الآونة على العكس من هذا فقد ولع رجاله بالتجديد فى البحوث العلمية وتهافتوا على اساليب البحث المتجدد الذى كانوا يتجهون فيه الى اطلاق المجال للعقل فى مهامه التفكير والتعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها فى مجال التشريع • وظلت الحالة العلمية بتونس متنكرة لهذه

الاساليب الى أن رحل بعض العلماء وفي طالعتهم الفقيه ابن زيتون التونسي فلقى العلماء بالمشرق لا سيما تلاميذ فخر الدين الرازى فلازمهم زمنا حتى تمكن من طريقتهم فى التعليم واساليبه الحديثة فقدم الى تونس واخذ يدرس على الاسلوب الحديث انذاك فاقبل الطلاب عليه وورث عنه طريقته فى تدريس العلوم تلميذه محمد ابن عبد السلام التونسى الذى كان المغاربة يعجبون بطريقته ويفخرون بمعرفتها والتدريس على منوالها عندما انتشرت طريقة هذا التعليم وهى التى قضت على اساليب الحفظ والاستظهار بالمغرب .

كانت هاته النهضة العلمية المتسعة المدى تثير اعجاب السواحين ورواد المعرفة فى تلكم العصور فقد ذكر الرحالة العبدرى فى اثناء التحدث عن هذه النهضة غرائب يزداد بها مجد تونس العلمي ويغرى اهلها بالمثابرة على طلب العرفان وربط صلة الحاضر المتحفز للمعالى بالماضى المجيد الزاهر وها نحن نذكر بعض انطباعات الرحالة العبدرى عن علماء تونس الذى (لقى المدرس يدرس بتونس وسنه ثمانون عاما وهو لا يفتر ولا يكل ولا يسام ولا يتضجر ولا يميل الى الراحة ولا يشكو التعب ولا يثور على الشيخوخة ولا يتذمر) قال العبدرى اجتمعت بابن الغمار فى داره وكان مواظبا للاستماع اى التدريس غدوة وعشية قال : ولم يؤثر فى قوة اجتهاد المدرس الشيخ ابن الغمار ضعف قواه وكان يجلس للتدريس من اول النهار الى قريب الظهر ومن العصر الى الغروب وربما قام مرارا تجديدا للطهارة ثم يرجع ويتكلف ذلك على كبر سنه وضعف قواه انتهى . قلت ولا يسعنا هنا ونحن نكتب للعبرة الا ان نترحم على هذه الارواح التى جاهدت جهادا بعيد المدى عميق الغور فى نشر الثقافة بهذه الديار وما عرفت الكلل فى الجهاد العلمي ولا غمرها الملل ولا حد من نشاطها الكبير ولا ساورها الميل الى الراحة فى ارذل العمر ذلك انها نفوس رجال الفت النصيحة والفناء فى القيام بالواجب وارواح كان اصحابها يعتقدون واعتقادهم حق انهم برزوا للوجود لاداء رسالة سامية فيه فآلوا على انفسهم الا يغادروا هذا العالم الفانى الا بعد تبليغ تلكم الرسالة الخالدة وبالرغم عما بذلوه ويبذلونه انذاك من جهود يقتصر القلم عن وصفها فانهم كانوا يعتقدون انهم مقصرون وبالتالى فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح .

محمد الهادى العامرى



وصيـــــــــة

بقلم : الطاهر قيقة

أي بني *! اني مفارق هذه الدنيا واست بتارك لك شيئا الا هذه النصائح فاصغ اليهـــا.

كملتك منذ دفعتك أمك في احضاني وسهرت على تربيتك فنشأت على الحرفة القدمى ودربت على السؤال والآن وقد استويت وبلغت أشدك اوصيك بأن تكون لابيك احسن خلف.

أي بني ! لاتسع وراء الشغل فان الشغل لابن البلد المدلل أو لمن له وسائط ولست بأحد منهمـــا.

واجتنب حضائر الشغل فاني لا أريد أن يقـــال ان ابني أدّى عملا بأجر منقوص.

ان اباك هـذا وقد بلغ من العمر عتيا وجـــاب البلاد طولا وعرضا لم يذق طعم الشغل الا نادرا وعاش بطالا طول حياته ولا أدري لماذا قد يساعدك الحظّ اكثر منّي .

لقد حشرت نهائيا في زمرة المعدمين الذين يقومون بكل انقلاب فينقلب عليهم لان ذوي اليسار لهم بالمرصاد سيآتهم مغفورة وحظوظهم وافرة.

اي بني ! لا تنتظر من ذوي الجاه شيئا انهم ينظرون من عليائهم الى الحشرات البشرية تزحف ولا يعيرون لها أيّ اهتمام لانهم بعيدون عنهـــا كل البعد.

(*) انظر الفكر السنة الأولى ـ العدد 2 ـ ص 6 .

فدع عنك نزق الصبيان وصلف الاعراب وارض بالحالة التي انت فيهـا فانّ الدنيا لذوي الجاه وذوي اليسار ولن تبدل سنة الكون.

وقد تركت لك صناعة لا تبور فاسأل الناس – كما علمتك – بالحاح وارفع راسك عاليا فانك احد جباة الله تجمع النزر من مال الزكاة والصدقـة .

ولا تظنّنّ أنك تستطيع وحدك أن تقلب الوضع فتجلد بالصبر واترك الوعي يتغلغل في نفوس البطالين العاطلين المعدمين المرهقيـن.

غدا سيفيق كل معدم ويطالب بحقه في الحيـاة ويومئذ يوضع مشكل البطون الجائعة والامعاء الممزقة بدون لبس ولا التباس.

غدا سيشعر كل بطال أن ثمرة كفاحه وتضحياته على مائدة آخرين وانه وقع له ما كان يقع « لعسكر زواوة » لانه كان طيب السريرة بعيدا عن الاطماع.

فاذا أتى ذلك اليوم المشهود فارفع عقيرتك واركز عصاي في الارض – تلك العصا التي جابت كامل انحاء الوطن – وصح صيحتي التي علمتك اياها فانك تجد آذانا صاغيـة.

يومئذ يرى ذوو الجاه واليسار زحف الحشرات البشرية لافتكاك ما سلبوه من عزة

امّا الآن فاطو الارض مكديا وارفع رأسك عاليا فانك ان سألتهم فانما تسألهم قليلا من حقنـا المسلوب.

اي بني ! حافظ على الانفة واذكر اباك الذي عاش طـول حياته وما انحنى أمـام أحـد.

الطاهر قيقة

القصة في الشريط السينمائي

بقلم : مصطفى الفارسي

الشريط السينمائي(*) نتيجة عمل جماعي واسع النطاق ووليد جهود متظافرة متعددة وهو فى آن واحد يقوم على مبدا توزيع المجهود والاختصاص فى العمل ، لان صناعة السينما فى الحقيقة مجموعة من الصناعات تعمل كل واحدة منها على حدة ولا يربطها الا الهدف الذى ترمى اليه جميعها وهو انتاج شريط من الصور المتحركة طوله الف ومائتان من الامتار ومدة عرضه ساعة ونصف ساعة ٠



والشريط فى نظر جل الناس فى بلادنا مجموعة صور متحركة تربطها قصة وتقوم القصة على حوار ويجرى الحوار بين ممثلين منهم المشهور ومنهم المغمور ٠ والشريط السينمائى فى نظر جل الناس ايضا وسيلة لنسيان « هموم الدنيا » ومشاكل الحياة اليومية اى هو بمثابة الحصن المنيع الذى يلوذ به الانسان من نفسه ومن غيره طلبا للراحة والاستجمام ٠

فبعض رواد قاعات السينما يكتفى بهذه النظرة السطحية ويشاهد شريطا او شريطين او اكثر فى الاسبوع مدفوعا فى ذلك بدافع طلب النسيان او دافع الالتهاء او غيرها من الاسباب الطبيعية التى تقود الانسان الى بهو قاعة السينما لاقتناء تذكرة تخول له فى مقابل مائتين او ثلاثمائة مليم ان « ينسى نفسه » فى قاعة مظلمة ويتلهى عن مشاكله بتلك الصور المتحركة الناطقة التى تحيا امام عينيه فوق الشاشة ٠

فهل يعرف الذين يتوافدون على قاعات السينما ويتزاحمون امام ابوابها ان الشريط الذى سيقدم اليهم هو نتيجة عمل شاق يومى قام به اكثر من مائة رجل ستة اشهر متوالية ؟ كثيرا ما يجهل الناس قصة الشريط السينمائى واطواره وحكاية خلقه ٠

فما هى قصة الشريط السينمائى وما بداية هذه القصة ؟

يمر الشريط قبل ان يعرض فى قاعات السينما على مراحل ثلاث ٠ المرحلة

(*) انظر الفكر السنة 4 ــ ص 689 ٠

الاولى هى مرحلة الانتاج ثم تتبعها مرحلة « التوزيع » واخيرا مرحلة الاستهلاك او الاستغلال ويقتصر موضوعنا فى هذا البحث على قسم من مرحلة « الانتاج » وهو الخاص بالموضوع او القصة او بما جرت العادة فى كل اللغات ان تسميه « السيناريو » ٠

* * *

« الشريط السينمائى عبارة عن قصة يستعان فى روايتها بالصور المتحركة الناطقة » هذا هو التعريف البسيط للشريط السينمائى ٠ والسيناريو هو موضوع القصة وشبكتها وكل ما يطرأ عليها من حقيقة وخيال فى نطاق محدود هو نطاق جهاز التقاط الصور المعروف « بالكامرا » ٠

والسيناريو يعد خصيصا لاخراج شريط سينمائى او يقتبس من انتاج ادبى معروف ليصبح شريطا سينمائيا ، فمن الصنف الاول كل الافلام المبتكرة وهى كثيرة لا مجال هنا لتعدادها،اما الصنف الثانى فقليلا ما تبرز فيه الافلام وينجح فيه المخرجون لكن يمكن ان نعتبر من بين الاشرطة الناجحة من هذا الصنف « البؤساء » للشاعر الفرنسى الكبير « فيكتور هيقو » وكل الافلام المقتبسة من كتب « كولات » مثل « شيرى » وخاصة « القمح الناشىء » وغيرهما « الوسادة الخالية » لاحسان عبد القدوس و «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل و « ظهور الاسلام » عن كتاب « الوعد الحق » لطه حسين وغيرها من الافلام المعروفة المشهورة ٠

وقد يقضى كاتب السيناريو سنة كاملة فى اعداد قصته وتحديد موضوعها وكثيرا ما يستعين فى هذا العمل الطويل بخبرة اصحاب مهنة السينما وخاصة بالمخرج الذى تروق له الفكرة فيعتزم المشاركة فى انتاجها للسينما ٠

ويمر السيناريو نفسه بمراحل اولها مرحلة « السينوبسيس » وهو ملخص الفكرة فى خمسة عشر صفحة على الاقل وعشرين صفحة على اكثر تقدير ، وهذا الملخص هو الذى يعرض على المنتج المول لينظر فيه ويقدر قيمته فى وقت قصير ثم يرفض او يلبى دعوة المؤلف لانتاج شريطه حول تلك الفكرة،فاذا قبل المنتج مبدا تمويل اخراج الشريط يرجع الملخص الى صاحبه ويطلب منه التوسع فى الفكرة وتحرير الموضوع فى خمسين صفحة وعلى المؤلف فى هذا الطور ان يعتنى بابراز العقدة فى قصته ، ثم ياتى طور آخر هو طور التقسيم اى تقسيم الرواية الى فصول ومشاهد كما نلاحظ ذلك فى الروايات التمثيلية ، وينكب المؤلف على موضوعه ينحته نحتا فيبرز العقدة ويبين شخصية كل ممثل ويخلق الجو الملائم لكل فصل وكل مشهد ويشير الى المناظر التى تجرى حوادث القصة بين ارجائها كل ذلك فى وضوح تام وبكل تدقيق وتحديد وتصبح الفكرة بعد هذا الطور رواية متسلسلة لا ينقصها الا التعبير التصويرى السينمائى الذى سيجعل من

تلك الرواية شريطا سينمائيا يتميز عن الرواية التمثيلية المسرحية وعن التاليف القصصي وعن القصة الروائية الاذاعية ... لان التعبير السينمائي فن قائم بذاته لا يشبه التعبير المسرحي او الاذاعي او القصصي الا في بعض المظاهر الثانوية التي لا مجال للتعرض اليها في هذا البحث ٠

وفي هذا الطور الاخير الذي يمر به السيناريو يهتم المؤلف اهتماما كبيرا بطبع قصته بطابع الخيال التصويري فيتحتم عليه في هذه المرحلة ان يتخيل قصته كما لو كانت تعرض امام عينيه على شاشة قاعة السينما ٠ ثم يقدم القصة في صورتها النهائية الى المخرج الذي يضبط مشاهدها وفصولها ويقطع تسلسلها الاول ليخرج من خياله تسلسلا آخر يعتمد على لغة الصور الخاصة وعلى الاضواء وعلى المناظر وعلى حركات الكامرا وعلى شخصية الممثلين الذين سيختارهم للقيام بادوار الرواية السينمائية ٠ هذه هي المراحل التي يمر بها السيناريو او موضوع قصة الشريط السينمائي مراحل تقوده حتما للخضوع الى الخيال التصويري والى القواعد الفنية التي تهيمن على المهنة هيمنة مطلقة لا مفر منها لا للمؤلف ولا للمخرج ٠

فمؤلف السيناريو لا يحرر موضوع قصته بل « يشاهد » ذلك الموضوع ، فهو ينظر الى قصته بعين خياله من خلال الصور التي ستتحرك على الشاشة عندما يقدم الشريط الى قاعات السينما للاستغلال ٠ وهذا امر طبيعي لان كل شريط سينمائي يهدف الى الهاء جمهور كامل والى الاستيلاء على مشاعر ذلك الجمهور واختطاف انتباهه مدة ساعة ونصف وليس هذا بالامر اليسير بل هي مشكلة تحتم على كل مؤلف للسينما ان يعتبر كل الاعتبار العوامل النفسية التي يجب ان تحدثها القصة في صدر كل فرد من ذلك الجمهور ، وليس تأثر الفرد بقصة يقرأها في كتاب مفتوح كتأثره امام نفس القصة وهو في رفقة وفي قاعة مظلمة والقصة حية على الشاشة تمر حوادثها امام عينيه ٠

فالتاليف السينمائي يتطلب من صاحبه الى جانب خياله القصصي ومهارته في التعبير خيالا من نوع آخر وهو الخيال التصويري ومهارة اخرى هي التي تمكنه من التقرب الى الجمهور بالمامه بنفسيته الخاصة ، شانه في ذلك شان الخطيب الذي يستطيع ان يرغم الجماهير على الانصات اليه ولو طالت خطبته لان الهدف الوحيد للشريط السينمائي في الحقيقة هو الاستهواء واستمالة قلوب الجمهور ٠ ومؤلف القصة السينمائية ومخرجها وواضع موسيقاها ومصور مناظرها ومهندس الاضواء التي تخلق الجو الملائم لحوادثها ... كل هؤلاء يجمعون جهودهم ويوحدونها لخلق الشريط السينمائي في مرحلة انتاجه ٠

* * *

لكن ما دور صاحب الحوار في كل هذا ؟ وهل يتحتم ان يكون مؤلف القصة السينمائية هو نفسه واضع حوارها ؟

الحوار في القصة السينيمائية لا يلعب دورا هاما ولا يحتل المكانة التي يحتلها الحوار المسرحي ، وهذا امر طبيعي لا غرابة فيه لان الحوار وسيلة للتعبير ووسيلة التعبير في الشريط السينمائي هي الصورة قبل كل شيء سواها ، ولقد نجحت الكثير من الاشرطة السينمائية نجاحا شاملا في جميع اقطار الدنيا رغم قلة الحوار فيها وعدم الحوار تماما في بعضها واذكر من هذه الافلام شريط « سكون البحر » وشريط « عطلة مسيو هيلو » ففي الاول ضابط الماني يقيم في بيت ريفي يسكنه عجوز فرنسي وابنته ، ويحاول الضابط ان يتجاذب اطراف الحديث مع صاحب البيت او مع ابنته فلا يلاقي منهما الا الجفاء والنفرة والصمت ، فيتكلم وحده طويلا يخاطبهما فلا يجيبان ويقص عليهما كل ما يجول بخاطره في كل ليلة ثم ينهي حديثه بجملة معينة يقولها قبل ان يلتحق بغرفته « اقضيا ليلة سعيدة » وفي الشريط الثاني يعتمد « جاك تاتي » الممثل المشهور لا على الكلام بل على الحركة فيأتي الحوار عرضا في اغلب الاوقات ٠ ويجب الا ننسى من بين افلام هذا الصنف كل الاشرطة الصامتة التي انتجت قبل اكتشاف السينما الناطقة وخاصة افلام « شارلو » الشخصية التي طغت على الجماهير في جميع انحاء العالم والتي يخبرها الكثير من النقاد السينمائيين على افلام «شارلي» الناطقة٠

فالحوار اذن في القصة السينمائية قشر لا لباب والنظارة لا يهمهم ما يفوه به الممثل اكثر مما يهمهم دوره في القصة وحركاته على الشاشة فهم يشاهدون القصة التي ترويها الصور امامهم ولا يستمعون الى راو او مذيع من خلال جهاز راديو ، فالكلام يحدد طبعا شخصية كل ممثل على الشاشة ولكنه لا يخلق جو القصة ولا يمت الى العقدة السينمائية في شيء فما يقوله الممثل يأتي في الحقيقة تكملة لما يقوم به من الحركات وما يبدو على وجهه من ملامح تنطق بحالـه قبل ان تفتـر شفتاه عن الكلام ٠

لذلك يجب على واضع الحوار ان يتقيد بجو الشريط وان يخضع للمخرج خاصة الخضوع التام ، لان المخرج هو في الحقيقة خالق ذلك الجو ٠ وعلى واضع الحوار ايضا ان يقرأ حسابا لنفسية كل ممثل اذا عين ادوارهم مؤلف القصة في السيناريو فشخصية « جان قابان » مثلا شخصية فريدة لا في حركاتها فحسب بل في اللغة التي يستعملها « جان قابان » في كل افلامه وهي لغة خاصة به اذا فقدها فقد كل ما يميزه عن غيره من الممثلين ٠

فواضع الحوار اذن شخص مقيد بالكثير من الاعتبارات فهو لا يخلق القصة بحواره ولكنه يساير هوى مؤلف القصة ومخرجها ويخضع للجو الذي يريد المخرج ان يصبغه على تلك القصة في انتاج شريطه فهو كغيره من اعضاد المخرج يقوم بمجهود فردي لكنه لا ينسى الغاية وهي انتاج عمل جماعي تحت اشراف مخرج الشريط ٠

تحدثنا عن السيناريو وعن الحوار اى عن مادة الكلام فى الشريط الطويل لكن يجب قبل ان نختم هذا البحث ان نعرج على صنف آخر من الافلام وهو الشريط القصير او « الدوكيمانتار » (بالغة الفرنسية) فهذا الشريط ايضا مزيج من صور وكلام والكلام فيه اما مسترسل واما حوار ، لكن الفرق بين الشريط الطويل والشريط القصير يقوم غالبا على كيفية تقديم القصة ، فكثيرا ما يقرأ القصة على مسامع النظارة مذيع او اكثر كما هو الحال فى اجهزة الراديو بدون ان يقوم الممثل او الممثلون بادوارهم على الشاشة ، وتستعمل هذه الافلام غالبا لاهداف معينة منها الوصف ومنها الدعاية ومنها التثقيف ، فهى افلام علمية وتاريخية وسياسية وفنية ، يحتل فيها الكلام مكانة مرموقة لان الفائدة هنا فى المام الجماهير بالمواضيع المطروقة اماهم وما الصور الا وسيلة لارساخ تلك المواضيع فى اذهان النظارة ، لكن يتحتم هنا ايضا ان لا تفقد الصورة قيمتها ومكانتها وان كان محرر الموضوع مبدعا وصاحب الصوت مذيعا ماهرا ٠

هذا ما اردنا أن نشير اليه فى هذا البحث الذى خصصناه للقصة ومكانتها فى الشريط السينمائى وهى كما لاحظنا تعتمد على الخيال التصويرى اكثر من اى عمل ادبى يقدم للنشر او للاذاعة او للمسرح ورجاؤنا ان نلتقى بالقراء فى فرصة اخرى فنتعمق فى الفروق التى تميز القصة السينمائية عن غيرها وتطبعها بطابع خاص وبشخصية معينة ٠

مصطفى الفارسي

خـواطر حـول الشعر

بقلم : محمد العربى عبد الرزاق

فى آفاق الشعور(*)التى لم تكن اغوارها لتسبر ولا ابعادها لتقاس فى مجاهل النفس التواقة الى الجمال يراد فلا ينال ويترك فيتفق ، يسير المرء بين ذبذبة العواطف ورفرفة الاحاسيس ويمازج أطياف المشاعر فى اختلاجها بروح هادئة كاليقين حـرى مضطـربة كالشك ، يسـابق مذهب الاهداب من أحلام سراب ٠



ويخلو المرء بنفسـه فيعـود اليهـا تحـدثه شفاف الاحاديث عما يحيط بها من جمـال وما يكمن فى خباياها من بديع السحر وتسرد على باطنى سمعه ما لا يكـاد يفهـم عنه الا حدسـا وحسا فينتشى ويذوب شوقا الى عالم من الفن والجمال يعلم جيد العلم أنه ليس بمنتـه اليه يوما ، فيضنيه الشوق وتعمه نشوة هى ذوب الالم ورحيقه ، فيستحيل روحا شفافة تلتحق بأطياف الجمال الراقصة المياسة المرفـرفة فى أرجاء الكون ٠ وهنا يصبح الانسان شاعرا ٠

وان هو فى هذه الحال الا شاعر لنفسه ٠ وليس بشاعر عند النـاس ما لم يبق فى هذه الحال انسانا ، فى ثنائية ليس له أن يخرج منها الا ليعود اليها ٠ وتلك هى منزلة الانسان فهو بشر بين آلهة واله بين البشر ٠

اذ كيف يكون عند الناس شاعرا اذا اكتفى بادراك الجمال دون أن يخرجه للناس فى صورته التى الفاه عليها ، وقد خاطب الآلهة النـاس بما يفهمـون ونزلوا من عليائهم الى مستوى الجسد واللسان حتى لا يكون نصيبهم عبقرية الصمت وخلود السكون ٠

ومنزلة الشاعر الحق هى النفاذ الى جوهر الجمال والانتشـاء به فى غمـرة اللانهاية تنعدم فيها الحدود بين اللذة والالم ثم ربط الصلـة بين هذا العـالم المتبخر السحرى وبين عالم الناس ٠

فالشعر هو ذلك الجمال الخالد الذى يتوق اليه الانسان ولا يصل الى ادراكه الا بعض الموهوبين ممن دق حسهم وأرهفت عاطفتهم وروحهم ، افراد ينفتـح

(*) انظر الفكر السنة 7 ـ ص 502 ٠

قلب الواحد منهم فيسع الخلق ويشمل الكائنات ، ثم يفيض ذوبا سائغا فيكسوها من روحه ويمزجها بكيانه ويخرجها للناس ملكا مشاعا يجد فيها كل ما ينشده منذ الزمان الابعد ٠

ولست ادعى بسابق قولى وجود عالم خاص بنخبة من الناس مقصور عليهم لا يصل اليه الا من فتح الله عليه فتروض رياضة صوفية فكت له مغالق الحكمة ، انما مواطن الجمال شائعة بيننا وموضوعات الشعر منتشرة من حولنا نغدو عليها ونروح ، بينها وبين الناس غشاوة خفيفة ، لكن أكثر الناس لا يبصرون ٠٠٠

وأهم موارد الشعر عند الانسان الطبيعة بمعناها العام والعلاقات البشرية مثل الحب بجميع معانيه ٠ وقد كانت علاقة الانسان بالطبيعة من أكبر مقومات الشعر فى جميع العصور والمجتمعات : فهى حزينة تارة وهى خفيفة مرحة طورا ، وهى يائسة قاتمة حينا وهى تعج حيناً آخر ببسمات المسرة وشعاع الامل ٠ فهى الموت وهى الحياة ، وهى الطرب بمعناه الاصيل ٠

ولست أنوى ذكر موضوعات الشعر واحداً واحدا فهى متعارفة بين الناس لكنى أغتنم الفرصة لاشير الى عنصر من عناصر الجمال والشعر لا نكاد نرى من شعراء العربية من أقبل عليه أو احتفل به وأعنى بذلك المجتمع أو الشعب ، نعم الشعب فى حركاته الجماعية الجبارة الرائعة ، الشعب فى ثوراته وفى انتفاضاته ، فى جده وفى مرحه ، فى أفراحه وفى أتراحه ، الشعب الزاخر البناء فى توحد قواه وسمو روحه عندما يصبح القوة الهائلة تدك الصروح وتبنى الحياة المتجددة المتوثبة وتسير نحو الغد الباسم تزول فيه الفروق ويعم الاخاء والمساواة بين بنى البشر ٠ ان مشاهدتك (I) لنصف مليون من الصينيين كالنمل يبنون سدا بايديهم بين الاناشيد التى ولدت مع الدهر يملأ نفسك خشوعا ويجعلك تؤمن بالجمال ، ان تخيلك لمليون من الاشجار تغرس فى يوم واحد ببلادك يجعلك ترى مشهدا من مشاهد عمل الشعب يدخل عليك الاجلال والطرب ٠ ان حضورك مهرجاناً من مهرجانات الشعب يجعلك تفقد شعورك بالوحدانية فينسكب كيانك فى ذلك السيل الجارف الرائع وتستسلم اليه كما تستسلم الى نشوة الجمال أمام أروع مشهد من مشاهد الطبيعة ٠ فمتى يتغنى شعراؤنا بجمال هذا الجبار الخلاق بعد أن جعله الشابى « طفلا صغيرا لاعبا بالتراب » هذا وان وصف الشعب يحيا ويعمل لهو أقرب الى الجمال من التغنى بمفاخر وأعمال أتاها الاجداد فأصبحت عندنا مخدرا نغالط به انفسنا ونخفى وراءه نقصنا بدل مصارحة انفسنا بحقيقة حالنا والعمل على تحسينها ٠

ويمكن لنا أن نقول فى آخر كلامنا عن موضوعات الشعر ان كل ما يتصل بالانسان هو خليق بأن يكون موضوعا لشعره ٠ انما المشكل الآن هو طريقة التعبير عن هذا الموضوع ٠ وهو مشكل لا يقتصر فى الحقيقة على الشعر انما نجده فى كل فن من الفنون ٠

(I) فى السينما ٠

يشعر الانسان بالجمال فينعم ويألم ويغشاه الحنين ويغمره الشوق ، فيتغنى ويغنى الناس يحمل اليهم آيات الفن الخالدة ... وليس الانسان بمستطيع ابلاغ الجمال الى الناس بدون أن يغير منه ، وهذا مشكل التعبير ، اذ لا وجود لشعر بدون شاعر ولا لفن من غير فنان . ووظيفة الشاعر أو الفنان ليست فى الحقيقة نقل الجمال كما هو موجود بل نقله من خلال نفسه فالشاعر الحق هو الذى يسعى الى نقل طربه أمام الجمال وتأثره به الى بنى جنسه فيصيب وليس الشاعر من يصور لك مشهدا رآه تصويرا صادقا أمينا والشاعر الحق هو خالق الجمال فى مشهد الجمال وهو ناقل هذا الجمال اليك كما خلقه . هو ذلك الانسان الذى سكب من روحه ومن لحمه ودمه فى قطعته ، ثم قدمها اليك جزءا من فؤاده ، فنعمت بنعيمه وشقوت بشقوته واهتززت له ولها طربا .

غير أن هذا لا يعنى أن الشاعر هو المرجع الفرد فى اكتشاف الجمال وانه عليه أن يخلد الى أعماق نفسه ويكتنه أسرارها الفريدة ويشيد آيات الجمال منها منصرفا عما حوله . فالشاعر هو خلاصة مجتمعه وهو المعبر عن آماله وميوله وأشواقه وآلامه . هو الطاقة الناتجة عن مجموع هذه القوى الغامضة الجامحة تسرى فى مجتمعه ، وهو اللسان المفصح عما تجمع فى فؤاده من آثار التفاعل بين روحه المعبرة وروح مجتمعه المغمغمة الحنون . ومهما ادعى الشاعر الاعتكاف والاعتزال فى قلاعه وبروجه ، ومهما زعم الاقتصار فى موضوعاته على خبايا نفسه فانه معبر ولا شك عن روح عصره وعواطف مجتمعه المكونة لروحه وعاطفته والمتقمصة فى صميم كيانه .

وطرق التعبير الشعرى كثيرة متعددة وليس هذا مقام التعرض اليها انما نسوق منها على سبيل المثال الكلاسيكية الجامدة فى أشكالها وقوالبها والابداعية الباكية المنتحبة والايحائية والرمزية ، وغيرها كثير . ولكل اتباع وأنصار الا أن أقوم مذهب فى الشعر هو فى نظرنا الحرية فى الخلق وعدم التقيد بما سبق على أنه قديم جدير بالتقليد . فالشاعر هو الذى يكتشف طريقه بين المسالك بعد بحث وجهد وعناء فيسمو بها الى مستوى الفن الاصيل . أما من يدعى أن الشعر صناعة فحسب فقد قتل الشعر وخنق موارد الجمال ولست أعنى أن الشعر فوضى مطلقة ، انما الشعر يبدأ فوضى ويستحيل نظاما على نحو خاص بصاحبه ، فان لم يكن كذلك جاء شعرا فاترا .

ثم ان من الناس من ينظم شعرا تستسيغه النفس لاول وهلة لما فيه من صور جميلة تحمل الشعر بين طياتها (كالفجر والورد والنور واللحن ...) لكن الجمال ما يلبث أن يتلاشى لما كان قد طرأ على تلك الصور المعروفة من كثرة الاستعمال حتى فل حدها وجف معينها وسكنت أصوات السحر فيها . أما الشاعر الخلاق فى طرق تعبيره فهو الخالد على مر الدهور .

وخير الشعر ما كان فيه الغرض والقائل والسامع متكاتفين فى وحدة رائعة مظاهر متمازجة لصورة من صور الجمال الخالد .

محمد العربى عبد الرزاق

خـــواطـــر

في « التربية ونزعات الشباب »

بقلم : الحبيب الشاوش

كثيرا ما يكون للالفاظ(*)،حالما تقرع آذاننا،أثر صوتي تتولد عنه مجموعة من الخواطر او سلسلة من المعاني تتبادر الى الذهن ، وانما ذلك بمفعول العادة والتواتر في الاستعمال ·

ولعلم اللغات (Linguistique) باع طويل في التعريف بهذا الباب فلفظة « الشباب » او « الشبان » يثير سمعها ما يدل على اللهو والنزوع الى العاطفة وتياراتها قبل الاخلاد الى التفكير الرصين والتروي العميق فيما يصدر عن النفس من اعمال وتصرفات ·

وكما ان لفظة « مطر » تذكرك بالسحب المتلبدة في السماء او الماء يجري على الارض يسقيها ، ولفظة « صيف » بحرارة المناخ والسباحة في البحر ، فلفظة « الشباب » قد تدل عندك من اول وهلة على مفهوم الحركة والطيش او القلب يسيطر في دفعاته على العقل ··· وهذا ابن المقفع في باب عرض « كليلة ودمنة » يتحدث عن اغراض الكتاب فيقول : « وينبغي للناظر في هذا الكتاب ان يعلم انه ينقسم الى اربعة اغراض : احدها ما قصد فيه الى وضعه على السنة البهائم غير الناطقة ، **من مسارعة اهل الهزل من الشبان الى قراءته ، فتستمال به قلوبهم** لان هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات ··· »

على أن الشبان اصناف ونزعاتهم متباينة ولا ينبغي ان نجمع بين هذه اللفظة وكلمة الهزل والحديث عن القلب دون العقل كما جاء القول في هذا الشان على لسان ابن المقفع ·

ذلك ان من الشبان : الطائش الغرير ومنهم الرصين الثابت ، والنشيط المتحرك والخامل الساكن ، والضحاك الطروب والعابس النفور ، والذكي الحصيف والغبي المتبلد ، والمثقف والجاهل ومنهم من نراه ينزع الى الخير

(*) انظر الفكر السنة 9 ـ ص 417 ·

والعمل الصالح ومنهم من يميل الى الفساد والافساد والشر ، او الى اللهو دون الجد ٠
وهذا الى السكينة والوقار مخلد وآخر عنه عادل ٠
وانما القصد من هذه النزعات اغلبها على النفس واشدها سيطرة دون سواها ٠

ولو حاولنا التفهم بالنظر فى منشأ هذه الميول عند الشبان ونموها واتجاهاتها لأحصينا من المؤثرات الداخلية او الباطنة من جهة والخارجية من جهة اخرى عوامل مختلفة فى تكييفها : منها ما هو راجع الى الوراثة أو البيئة العائلية او الاجتماعية التى فيها يدرج المرء طفلا ويترعرع فيصبح شابا يافعا ٠ ولعلم النفس ودراسة الامزجة البشرية وعلم الحياة والطب ضلع كبير فى استجلاء الاسرار واستبطان الغوامض واستطلاع الدقائق العليقة بهذا الباب٠٠

ولئن كان الشاب يتأثر فى حياته بما يجرى فى عروقه من دم ابويه فهو من ناحية اخرى يتلقى من محيطه العائلى الضيق او بيئته الاجتماعية الواسعة ما من شأنه ان يترك فى نفسه بالغ الاثر ويولد له فيها حاجات لا مناص له منها ولا سبيل الى الحياد عنها ٠

ومن هنا يكون التفاعل بين الشاب والمجتمع الذى ينشأ فيه ويكبر ٠ وبقدر ما يكون الفرد سليما فى جسده وعقله بقدر ما يصلح المجتمع بصلاحه وينمو بنموه ٠ فالرياضة البدنية والرياضة الفكرية من الحاجات الناشئة فى المجتمعات وهى مكملة لحاجات الانسان الفطرية الطبيعية كالغذاء والنوم ٠ وكذلك الفضول وحب الاطلاع والتجول وحب الانخراط فى النوادى والجمعيات من الحاجات المتولدة عن الحضارة الانسانية خلافا لما كانت عليه أساليب العيش البدائى ٠ ومن هنا نستخلص ما يمكن تحقيقه فى ميدان التربية والتوجيه والتنمية لنزعات الشباب باحدث الوسائل التربوية والنفسانية ٠

والشباب عبارة عن مادة غضة خام تتكيف مع السنين وتسير فى المسلك الذى يتهيأ لها بالتوعية والتعليم والتربية ٠

وفى يومنا هذا تعلق البلاد الناهضة اهمية كبيرة على وجوب الاعتناء بالشبان والسهر على تربيتهم تربية صحيحة سليمة على قاعدة اخلاقية متينة ناجعة ، باعتبار المؤثرات الخارجية المتمثلة خاصة فى عوامل البيئة الاجتماعية وما تتيحه من وسائل التلهى والتعلم والتثقف وبث الوعى فى النفوس بالنسبة الى الشبان ٠

ولأنت قادر ان تعرف ابنك الشاب وتكيف شخصيته وتجعل منه ما تريد بشرط الاعتماد على ما يساير طبعه ولا يثير نفسه بل يستهويها بما يرجع عليها بالفائدة والرفاه والترفيه واحسن سبيل الى ذلك ما كان فيه الجد بجانب الهزل والعمل بجانب اللهو حتى يحصل التوازن الذى هو عنوان الكمال والشعور بالسعادة ٠

الحبيب الشاوش

أمام المرآة

بقلم : البشير المجدوب

العزلة(*) للنفس اشبه بالاطار فهي العنصر الثابت الدائم وما سواها اعراض تمثل وتبين . تتخلل حياة الانسان وتكاد تحيط به احاطة الهواء بالجسد . والغريب فى الامر انه عود منذ النشأة الاولى الاعراض عن العزلة وتناسيها ، والنفور منها ونكرانها فاضحى لا يجسر على مقابلة ذاته وجها لوجه . اذ شبح العزلة ان هو الا ظل لحقيقة ذاتنا بل ذاتنا مجردة عارية.



العزلة ... لا نكاد نعدمها فى اى وجه من وجوه حياتنا ، تلاحقنا حتى فى سبحات الفكر واجواء الروح .

قد تكون فى قسمك بالمدرسة فى اوج نشاطك وأريحيتك ، فى ساعة استجابة قواك واقبالها ومؤاتاة قريحتك واسعافها فتوفق الى عرض الدرس وايصاله نيرا خصبا الى الافهام فتستخفك نشوة الانتصار ويبهرك صلف الاقتدار ... كيف وقد قويت على هتك حجب الالفاظ وفض اسرار المعاني ونشر كوامن الاحساس وطوايا الشعور وقدرت على تسيير اللفظ طوعا الى المعنى وتزويجه به . ولكن أنى لك ان تدرك ما يعتمل فى النفوس ويختلج فى لحمة الشعور وسداه ادراكا مباشرا ، ادراك الحدس يقبض على الشيء بل يعضه عضا بلا واسطة ولا شاهد وبرهان !؟ انى لك ان تعرف حقيقة ادراكهم لما تقول ، لون هذا الادراك ونكهته ، كمعرفتك لنفس أحساسك والتذاذك اياه ! ؟

ما كان ليتم الافهام والتفاهم لولا سبرك الاذهان – وليس الا الاذهان – بشتى وسائل الاستفهام والاختبار والتحقيق والافتراض وعكس الافتراض وقلبه ! هذا وقد فاتك شيء سيبقى مطويا عنك : تجربة غيرك الحية النابضة فى مختلف احوالها ودرجاتها .

تلك هى العزلة الكبرى والحسرة النقمة ! هذا الحجاب مضروبا بينك وبين امثالك من البشر لا تستطيع ان تتسلل دونه ، ان تنفذ الى ما وراءه ... فنظل يرمق بعضنا بعضا ونستفهم وعلى وجوهنا علامات العى والبلاهة والعجز والغباوة تلك صورة البشر فى مرآة اخيه ومن نكد الامور وشؤمها او من لطفها وحكمتها انه لا يستطيع ان يرى صورته – ظل نفسه وخيالها – الا فى

(*) انظر الفكر السنة 5 – ص 912 .

مرآة الغير ، فكانت معرفته بوجهه بل وشخصه كله ـ معرفة مجردة ناقصة محرفة عن الحقيقة ، صورة مستعارة ، معرفة بالاسناد ٠

وعبثا يلجأ الى المرآة الزجاج ليتبين جلية امره ٠ ان صفحة المرآة لن تشعره بما في وجهه من دقائق ومميزات تجعل منه فردا احدا : نضرة البشرة ٠٠٠ كزازتها ٠٠ اشراقها ٠٠ وجومها ٠٠ ثم معاني الوجه وما يرتسم عليه من ظلال وانوار هي صدى خوالج النفس وهزات خواطر القلب ٠

وهكذا قد حرم الانسان رؤية ذاته والاستمتاع بصورته في حقيقة حياتها وعفو اطوارها وحالاتها ٠ انه عاجز حتى عن التفطن الى ما في خلقة الغير من ملامح تشبه صفاته الخاصة ٠ لقد حرم رؤية صورته في وجوه الغير ٠٠٠ عاجز عن ان يكتشف ، أن يقرأ ذاته في ذوات الغير ٠

ما نحن في حقيقة الامر الا غرباء لا يصلنا نسب حميم او علاقة واشجة ٠ كل يجري في مستقره ٠٠٠ نلتقي ولا نتواصل ، ونجتمع ولا نتمازج ٠ اللهم الا في حالات خاصة ومواقف ممتازة ، في غمرة الحب والفن ، في عنفوان الحماس القومي او في ذروة النشوة الدينية ٠ فكأنما تتلاشى اذ ذاك الفوارق والحدود وتهتك الحجب والستور وتتعانق النفوس عناق الوئام والمحبة وتنسجم القلوب انسجام الرضى والمودة ٠

هذا ولو كانت نفوس الغير مباحة لنا مشاعة تشف لنا عن مكنون خباياها واسرارها وتعرى من جميع اثوابها واستارها ـ لو تيسر الاشراف عليها كما يطل المرء من نافذة ضميره لاستحال السعي والعمل وتعطل الجهد والطلب وانقلبت الحياة استغراقا في التأمل وفناء في الغير ، وحياة كهذه جحيم لا يطاق ورق لا امل بعده في الانعتاق ٠

أي يأس من البشر مميت يعترينا بين يدي انفس الغير اذ نقف على تجاور بل تلبس الشر بالفضيلة وتعايش الغدر والوفاء فنرى الاجرام يدب دبيبه السافر والخساسة تتباهى متكالبة مزهوة والحسد ينساب متسللا يتصدى للنزاهة وينطوي عليها في شهوة ضارية ٠٠٠ اذذاك نشعر بصدق قول الشاعر الحكيم :

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

معزول عن نفسه معزول عن الغير ذلك هو الانسان ٠ ولكن ـ وهنا مجال انسانيته ـ عليه ان يتخطى هذه العزلة ، ان يفصم عراها ويفكها فكا ٠ والا يكون قد اخفق كانسان وتلقفته هوة المأساة ٠

البشير المجذوب

عبقريـــة ابن خلـــدون

بقلم : احمد خالد

... تظهر عبقرية ابن خلدون، في شذوذ "المقدمة" عن كتب العربية في مواضيعها وأساليبها. فقد جدد فنّ التّاريخ تجديدا مطلقا وتعدّى مرحلة التاريخ الى التفقه في التاريخ أو فلسفة التاريخ، ثمّ ابتكر من فلسفة التاريخ نظرياته في "العمران البشري. وتعرّض الباحثون الى هذين الناحيتين من عبقرية المفكر فكفونا مؤونة البحث (20).

وقد بيّن "برانشفيك" في فصل عقده عن ابن خلدون (21) أن مقدّمته صرخة صرخها عبقرينا لاعلان انهدام صرح المعرفة فيما سبق وانهدام صرح التاريخ كما فهمه السلف. على أنّ ابن خلدون لم يقف عند هذا الحدّ إذ حمل رسالة جديدة فبشر بنور المعرفة التاريخية الجديدة المعتمدة على المنهاج العلمي الصحيح وهو التزام قواعد النقد السليم وفهم الحوادث التاريخية فهما جيدا وتحليلها تحليلا علميا مع ابراز عللها، وضبط قوانين العمران البشري فها هو يعرف علم التاريخ في "المقدمة بقوله : "إنّه في ظاهره لا يزيد

(*) هذه صفحات من مقال طويل تناول بالبحث عبقرية ابن خلدون . انظر الفكر السنة 8 ص 630 .

(20) أنظر مقال « فرحات الدشراوى » (عبقرية ابن خلدون) الفكر عدد مارس 1961 .

وانظر : Gaston Bouthoul «Ibn Khaldoun, sa philosophie sociale»

وانظر : Ives Lacoste «La grande œuvre d'Ibn Khaldoun« in Revue La pensée n° 69 - septembre - octobre 1956

(21) أنظر : Robert Brunschvig «La Berberie orientale sous les hafsides» T. 2 p 385 - 393

على اخبار عن الايام والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق" (22) ويقُولُ عن العلم الجديد الذى استنبطه في المقدمة" : "وأبديت فيه لاولية الدّول والعمران عللاً وأسبابا ... وشرحت فيه من أحوال العمرانِ والتمدّن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذّاتية ما يمتّعك بعلل الكوائن وأسبابها (ص 4)"

وأطرف ما فطن اليه ابن خلدون في عصره ضبطه القوانين الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعية الكبرى. ولم يتعصب في ضبطها لفكرة أو لعقيدة لذلك استطاع "ايف لاكوست" مثلا أن يجعل منه "ماركسيا" قبل ظهور "كارل ماركس" (23) فابن خلدون ينظر في الاقتصاد نظرة مادية تاريخية فيرى أنه مادّة (24) ينتج عن نموّها نموّ "العمران البشري" (le peuplement humain) فالاقتصاد السليم مادّة العمران وأساسه. فاقرأ — لمزيد تيقن من ذلك قول ابن خلدون : "واعْلَم أنّه إذا فقدت الاعمال أو قلّتْ بانتقاص العُمران تأذّن الله برفع الكسب ألا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقلّ الرّزق والكسب فيها أو يفقد لقلّة الاعمال الإنسانية وكذلك الامصار التى يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشدّ رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنّها قد ذهب رزقها" (25). فلكي لا يقع تصدع في العمران والملك ينبغي السّهر على استقامة الاقتصاد بتنشيط المعاملات ورفع الانتاج حتى يصبح سادا لحاجيات البشر المتضخم عدده يوما بعد يوم. فاقرأ قوله : "والعمرانُ ووُفُوره ونفاقُ أسواقه إنّما هو بالاعمال وسعي الناس في الاعمال والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذَعَرّ النّاس في الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خَرَجَ عن نِطَاقِهَا فَخَفّ سَاكِنُ القُطْرِ وخلتْ ديارُهُ وخرجت أمصاره

(22) المقدمة ص 3 ـ 4
(23) أنظر دراسة « ايف لاكوست »
(24) المقـدمة ص 288
(25) المقـدمة ص 382

واختل باختلاله حَالُ الدّولة والسُّلطانُ لما أنّها صورة للعمران تَفْسُدُ بفسَاد مَادتها ضَرُورَة" (26) ويَرَى أن صاحب الدولة هو المسؤول الاول عن استقامة الاقتصاد الذى به يتم العُمرانُ وأنّه لا سبيل الى العمارة إلاّ بالعدْل. فإنّ "عدوان السلطان على النّاس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم يُفضي الى الخَلل والفَسَاد دَفْعَةً وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقَاض (27). ويبدو جليا أن نظرته في العمران البشرى نظرة أخلاقية دينية إذ يدافع عن القيم الانسانية ولا ينادى بضرورة تحديد النسل كما نادى بذلك "مالتوس" (Malthus) كي لا ينتقض العمران البشرى باختلال التوازن الضرورى بين عدد السكان المتزايد يوما بعد يوم والاقتصاد. وتلك هي مشكلة المشاكل في المجتمعات البشرية (28) وقد أكب ابن خلدون على دراسة هذه المشكلة في عصره وأنّ ما أبداه فيها من آراء يُبشّر بالماركسية أكثر مما يبشّر بالمالتوزيونيّة العصريّة. فلذلك استطاع "ايف لاكوست" (29) أن يؤول نظرياته الاقتصاديّة والعمرانيّة تأويلا ماركسيا.

ولقائل أن يقول بعد هذا إنّ كثيرا ممّا تطرق له عند ابن خلدون نجده عند القُدامى كابن الاثير في "الكامل في التّاريخ" والمسعودى في "مروج الذهب" وغيرهما. فكثيرا ما يستشهد بأقوال "المسعودي" مثلا لتدعيم نظرياته في التّاريخ أو العمران البشرى. فها هو يقول بعد أن ذكر أنّ الدولة "صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة" : و"انظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة ... فقال له أيّها الملك لا يتمّ عزّه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرّف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشّريعة إلاّ بالملك ولا عزّة للملك إلا بالرجال ولا قوّام للرّجال إلاّ بالمال ولا سبيل الى المال إلا

(26) المقدمة ص 287

(27) المقدمة ص 290

(28) أنظر : «Le Peuplement Humain» par Joseph Vialatoux Ed. ouvrière, Paris 1959.

(29) أنظر دراسة « ايف لاكوست المشار اليها سابقا »

بالعمارة ولا سبيل الى العمارة إلا بالعدل والعَدْل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الربّ ...» (30).

... وقد اجتنب صاحبنا في «مقدمته» أخطاء القدماء فنبذ الاباطيل والخرافات التي تشين ما كتبه المسعودي وابن الاثير وغيرهما قبله. ففي مقدمته يعتمد على العقل والتجربة ويعلن زوال التقية في العلم وزوال ما كان للدين من سيطرة على علم التاريخ فإنّ الطبري مؤرخ وهو الى جانب ذلك محدِّث ومفسر وطغى تفسيره للقرآن على فهمه للتاريخ. أمَّا ابن خلدون فإنَّه فتح باب حريَّة الفكر والتَّخلص من قيود الجبروت الديني (31)، وكان الجبروت الدّيني مسيطرا قبل ظهور «المقدّمة» على الحديث وعلى الادب والتاريخ. فلذلك تبنَّى المستشرقون «المقدمة» وأقبلوا على دراستها وترجمتها. ولئن كانت «المقدمة» تُخلص الى نور العقل وتنفي الجبروت الديني، فإنّ ابن خلدون لم يفصل تماما المعرفة القَبلية الدينية عن المعرفة العلمية المعتمدة على العقل، بل مزج في معرفته عنصرين أساسيين من أسس المعرفة البشرية هما عنصر الدين وعنصر العقل. وهذان العنصران قائمان في تفكيره معا وليسا مُتَّحدين لانه لا سبيل الى توحيدهما بَلْ تضاربَا أحيانا. فهو يذكر في مواطن مختلفة من «المقدمة» أنّ الشرائع المنزلة تحرّم على المرء دراسة العلوم العقلية. فاقرأ قوله: «لما انقرض أمر اليونان وصار للقياصرة وأخذوا بدين النَّصرانيَّة هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها» (32) ويهاجم ابن خلدون الفلسفة بدعوى أنها تفسد الدين فيقول: «(إنَّها) عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير». على أن طرافته في الحاحه على وجوب الاعتماد في التّاريخ على العقل والتّجربة. فإنّ معجزته في إحداثه ثورة في تاريخ الفكر البشري إذ ساعده على أن يتخلص من عبودية الدّين والنّقل وإن كان فقيها. وكان من المنتظر أن يسير به غذاؤه الثقافي الدّيني الى طريق المؤرخين القدامى، لكن ابن خلدون عدل عن طريق الجبروت الديني في التاريخ (33). ألا ترى أنَّه ميَّز بَيْنَ مَا هو

(30) المقدمة ص 287
(31) أنظر ما كتبه برانشفيك
(32) المقدمة ص 419
(33) أنظر ما كتبه « برانشفيك »

دين وما هو غير دين أي ميدان العقل، وقد بين "تياى" (Tillet) ذلك بوضوح في فصله "تفكير ابن خلدون الفلسفي" المترجم في مجلة "الفكر" (34) فإنّ ابن خلدون أوّل من نادى في ميداني التاريخ وعلم الاجتماع بوجوب تحرير العقل من عبودية الدين.

على أنّ العلامة التونسي يدهشنا في "كتاب العبر" بما يحوي كتابه من أباطيل وخرافات بينما نادى باجتنابها في "المقدمة" فمن ناحيّة نرى في "المقدّمة" بصيرة حادة وفكرا ثاقبا، ثم نتصفح "كتاب العبر" فنجد ما يناقض ذلك كله أي تراكم الاخبار بدون تسلسل وربط الاسباب بالمسبّبات. كما نجد الخرافات والاباطيل. إلاّ أن العقم مغفور له إذا سلّمنا بأنّه لا سبيل الى كتابة التاريخ الصحيح إلاّ بوثائق ثابتة. وهذه الوثائق لم تكن دائما في متناوله.

ولكنّ هذا العقم الذى أصاب في ملاحظته المستشرقون والباحثون كـ"برانشفيك" و "إيف لاكوست" وغيرهما لا يوجد في القسم الذى يعتمد فيه ابن خلدون في "كتاب العبر" على خبرته الشخصية، إذ أصاب في تحليل المجتمعات البشرية التي عرّفها ولاحظ ما يجرى فيها عن كثب، فأصاب في تحليل تاريخ الحفصيين وبني عبد الواد وبني مرين وملوك الطوائف. ولولا "كتاب العبر" لبقيت جوانب كبيرة من تاريخ هذه الدول مجهولة. فعذره إذن أنه طبق القواعد التي ضبطها في "المقدمة" كلما استطاع ذلك أي كلما وجد الوثائق الكافية أو اطلع على أحوال دول ومجتمعات بشرية تقلب فيها. فلا سبيل الى مؤاخذته إذا اعترفنا بأنه لا يمكن كتابة تاريخ صحيح بدون وثائق ثابتة. وهذا ما انتبه اليه "ايف لاكوست" (35). أضف الى هذا العذر عذرا آخر هو أن معاصرى ابن خلدون أعرضوا عن المقدمة كل الاعراض وكذلك الخلف من المسلمين في عصور الجمود ...

احمد خالد

(34) أنظر الفكر ـ السنة 6 العدد 6 ـ مارس 1961 • « تفكير ابن خلدون الفلسفي » لبيار تياى ، ترجمة المرحوم فريد غازى ص 82 •

(35) أنظر : Ives Lacoste «La grande Oeuvre d'Ibn Khaldoun in La Pensée n° 69 septembre - octobre 1956

من حديث أسرة الفكر

بقلم : البشير العريبي

كان النادى (*) حافلا والمتكلمون يتناوبون فيه الحديث مع كل مقال يقرؤونه ويتناقشون حول المضامين حينا والقوالب حينا آخر والالفاظ باعيانها مرة ثالثة٠

وكان المقال الذى يستعرضونه تاريخيا قديما ، واذا النقاش يتركز بالذات عند علم من الاعلام التى يتكرر ذكرها فى المقال ٠

قال ١ ـ لم لا يستعمل الكاتب اللفظ الذى اصطلح التراجمة العرب على استعماله فى هذا العلم ؟ ٠

2 ـ الكاتب حر فيما يستعمل من الفاظ ٠

١ ـ صحيح ولكن اذا كان اللفظ مترجما عن لغة اخرى فمن اضاعة الوقت ان يترجم عند كاتبين فى لغة واحدة بلفظين مختلفين ٠٠ فحرى بنا ان نقتصر على الترجمة الاولى ، والحرى فى الاعلام ٠

2 ـ ومن ذا الذى وضع اللفظ الاول للعلم الذى نتحدث عنه ؟

١ ـ اخوانكم فى الشرق ٠

2 ـ اليس لنا حق الاشتراك معهم فى التعريب ان لهم عقولا ولنا عقول مثلها فلم نتحجر ونقف عندما قدموا للعربية من خدمات ؟

1 ـ ربحا للوقت وسعيا لتوحيد الاستعمالات بين المشرق والمغرب العربيين ٠

3 ـ لقد كتب علينا يا اخى ان نصل بعد اخواننا فى الشرق قليلا ٠ وكان تاخرنا هذا بحكم تخلفنا عنهم تحت كابوس الاستعمار وكان من حسنات ٠٠٠ هذا الاستعمار انه كثيرا ما يحول بيننا وبين الانتفاع بما كان اخواننا ينتجونه من كتب ومطبوعات، فكان طبيعيا والحالة هذه ان لا نبقى مكتوفى الايدى كلما احتجنا الى استعمال او تعريب لم يصلنا بعد من اخواننا فى المشرق ومن هنا عملنا فيما يخصنا عملا قد يكون مختلفا عما عمله اولئك الاخوان ولكنه لم يكن يهدف الى مخالفتهم بل ان قصاراه انه سدد الفراغ الذى كنا نجده فى بعض الميادين ولا نتمكن من تسديده بما انتج اخواننا هناك فى المشرق ٠

(*) انظر الفكر السنة 3 ـ ص 975 ٠

2 ـ وهب اننا خالفناهم عن عمد اترانا جنينا جرما ؟

1 ـ كلا ولكن لا باس بالوحدة فى هذا المجال وخاصة فى تعريب الاعلام •

2 ـ حتى ولو كان التعريب خاطئا •

1 ـ لا اعتقد ان المشارقة يستعملون من المعربات ما فيه غلط •

4 ـ إنهم قد يفعلون ذلك بحكم ما يضطرهم اليه من سرعة •• ان الفكرة التجارية قد طغت على كثير من المنتجين فى المشرق•وزاد فى طغيانها كثرة المطابع ووفرة الرغبة فى الطبع مهما كانت قيمة الانتاج حتى كان الكتاب لا يستقر به المقام فى السوق حتى يكون قد عرب وانتشر ولكنك تقرأ نصه الفرنسى او الانجليزى وتقارنه بالنص العربى فتلاحظ اختلافا كبير او صغيرا بينهما ، لا شك ان داعيه الاول هو ما اتسم به انجاز التعريب من سرعة •

5 ـ على ذكر الفرنسية والانجليزية اود ان ننتبه الى ان تاثر المعرب باحدى هاتين اللغتين المنتشرتين كثيرا ما يعمل هو الآخر عمله فى انتشار لفظ معين فى التعريب واظهار غيره من الالفاظ فى مظهر المخالف •• فاخواننا المصريون يعربون الشهر الاعجمى الاول باسم يناير ونعربه نحن فى تونس باسم جانفى وكلانا متأثر باللغة الاوربية التى هو اكثر اتصالا بها ، هم يتأثرون باللهجة الانكليزية ونحن نتأثر باللهجة الفرنسية •

2 ـ ومع ذلك فان الاخ يريد منا ان نعتبر انفسنا خاطئين اذا لم نتبعهم فى ترجمتهم •

1 ـ انا لا اقول انكم خاطئون ، ولكننى ارى اختصار المراحل والاقتصار على ترجمة واحدة ما امكن ذلك •

5 ـ لا يمكن ذلك الا اذا اتفقنا على ما نعرب به او نستعمله من الالفاظ وخاصة منها ما يتصل بالاصطلاحيات العلمية •

3 ـ انا لا اؤمن بان فى الامكان الاتفاق مع بعض اخواننا فى المشرق على الفاظ ••• وكلمات ••• وتراكيب وقوالب ••• لان امر الاختلاف بيننا اعمق• ـ والحق اقول ـ من ان يمس هذه القشور •• انه اختلاف جوهرى يمس الروح •••

1 ـ وكيف ذلك

3 ـ لقد لمست ذلك يا أخى مرات •• لمسته عندما اصطدمت لدى بعضهم

بمركب العظمة والتعالى ٠٠ والشعور بالسبق علينا ٠٠ والاحتقار لما قد نقدم من مجهود حتى لقد وقفت مرة مع احدهم فى جنيف وكنا فى وفد تربوى يمثل تونس وكان هو فى وفد يمثل مصر فرأى وفدنا من اللياقة ان يطلعه على بعض ما انتج التونسيون فى الفترة التى كان الاستعمار يسيطر عليهم فيها ٠

ولم يكن القصد الاشهار ٠٠ ولا نحن من الاطفال الذين يهزهم الشكر او يبحثون عن كلمة التشجيع ولكن كان احد افراد وفدنا قد انتج كتابا قيما فى الحسابيات بالعربية وكان الحديث قد تطرق الى شيء من هذا وكان الاستاذ المصرى الذى نتحدث اليه من المحترمين فى نظرنا ، فلم نر ادل على ما نحن بصدد الخوض فيه من تقديم نسخة من انتاج استاذنا اليه ليطلع على مدى تغلبنا على الصعاب رغم ما كنا نلقاه من عناء فى تثقيف بنينا وتربيتهم ٠

وامسك الاستاذ بالكتاب ٠٠ وفتحه حيثما اتفق فوقع نظره على اصطلاح حسابى غير الذى عهد المصريين يستعملونه فثارت ثائرته والقى بالكتاب من يده لم يمنعه من ذلك حياء ولا صدته مجاملة لنا ثم صاح محنقا ؟

« ما هذا !! ما هذا !! ان الاصطلاحات الحسابية قد عربت فى مصر من اجيال٠ فما هذا العبث الذى ارى فى كتابكم ٠٠ ما هذه الاصلاحات الجديدة التى تبلبلون بها افكار الناشئة »

ولقد كنا نكبر الاستاذ لو ان الحق الخالص هو الذى دفعه الى الثورة فنحن احوج ما نكون الى الصراحة فى معالجة قضايانا ٠٠٠ ولكن الدوافع التى لاحت لنا والمظهر المزرى الذى ظهر به الاستاذ وهو يعلن كلماته ويحسبنا أطفالا نعبث امامه والقاءه الكتاب من يده والتسرع بالنقد قبل ان يمهل نفسه حتى يطلع عليه أو يتأمل فيما احتواه من معلومات او اصطلاحات قد تكون موافقة لما يعرفه عند مواطنيه كل ذلك وامثاله جعلنا نؤمن بان فيه مركب عظمة يعسر معه اقناعه بشيء٠

وليس الاستاذ اول اخ من الشرق بدت عليه هذه الظاهرة ولا آخر من تظهر عليه ، فقد كانت مشاركة الوفد التونسى فى بعض المؤتمرات الاخيرة فى المشرق حافلة بالمواقف من هذا القبيل ٠٠ أفمع هذا يبقى امل كبير فى ان نصل الى توحيد مصطلحاتنا حتى بعقد مؤتمر ٠

1 ــ انا لا انكر ان فى بعض اخواننا المصريين شعورا بسبقهم الثقافى ٠٠

5 ــ وقد كان هذا السبق حقا لولا انه اغرى بعضهم بالتزييف فيما يقدم من انتاج واخراجه فجا فطيرا فى اكثر الاحيان اعتمادا على ما لمصر من سمعة او ماله هو ذاته من شهرة ٠

4 ـ بيد ان هذا كله لايعنى انه لايمكن الوصول الى حل مشترك او توحيد فى الاتجاه فى التعريب او غيره ما دام ان ذلك سيقع عن طريق مؤتمر ·

3 ـ انا متاكد من ان مؤتمرا تسيطر عليه الروح التعاظمية التى ذكرتها لن ينتج اية نتيجة · ولعله يقنعنا بما عندنا ويغنينا عما عند اخواننا فى المشرق بل ويجعلنا نصر على عدم استعمال ما يستعملون ما داموا يريدون منا ان نستعمله ولا نناقش فيه كانه تنزيل من حكيم حميد او كاننا اطفال غير رشداء لا يحق لنا ان ندلى معهم براى او كاننا كبار ولكن فقدوا عقولهم فاستحقوا الحيلولة بينهم وبين الادلاء بآرائهم ···

5 ـ يبدو ان تاثرك بالمواقف الماضية قد اغضبك واطغى نفسك الغاضبة على نفسك اللينة الهادئة والا فلم لا تذكر ان هذا الاختلاف بيننا وبين اخواننا المشارقة له اختلاف يماثله بين بعض اساتذتنا وبعض ·· الم تر كيف عرب احدهم الاصطلاحات العلمية تعريبا فرديا وكيف ان بعض زملائه هنا لم يكتفوا بمخالفته الراى بل زادوا فخالفوه فى الاستعمال حتى ان التلاميذ اذا كتب عليهم ان يقرؤوا فى سنة ما على احد الاستاذين ثم يقرؤا فى سنة اخرى على الآخر اضطربت احوالهم وتشتت معلوماتهم بسبب اختلاف الاصطلاحات التى تلقوها عن هذا وذاك منهما ، ولو ان احد التلاميذ زاد فخرج الى المشرق او الى الغرب الاوروبى لتلقى دروسه فى احدهما لرأى ان اختلاف الاستاذين له اثر سيىء على معلوماته وقد يشعر بان كليهما على ضلال ·

4 ـ فى وسعى ان اعبر بالتفاؤل فيما نحن بازائه من امر ، فلا شك عندى فى ان العمل لتوحيد المصطلحات بمؤتمر او مجمع لغوى ناشط او صحف محترمة يقع فيها تبادل الآراء فى هذه الموضوعات لا شك عندى فى ان العمل بمثل هذه الامور بطريقة مركزة يعطى ثماره ويخرج الناشئة العربية مما يتولاها من بلبلة بسبب ما تجد من اختلاف فى استعمالات الكتاب او اصطلاحات الاساتذة ·

البشير العريبى

أبـــــوة روحيـــــة

بقلم : البشير الزريبى

من الحقائق البديهية (*) فى ميادين التربية الحديثة القول بضـرورة اتصـال وتعاون دعائم الأسرة العائلية مع المعلمين والمربين عمومـا ، اذ على مثـل هذه العلاقة وعلى قدر أهمية هذه العلاقة تكون الفرص المواتية أو غير المواتية وتتهيأ



الظـروف المساعدة او غير المساعدة على بلـوغ الاهداف التربوية التـى نتقصدهـا ونعمل على تحقيقها فى الطفل ان آجلا أو عاجلا ذلك أن الطفل المدرسى مهما تكن تأثراته بالمحيط التعليمى أو التربوى فى هذه الأجواء النظامية المدرسية ؛ فانه لمن الخطأ الشنيع الزعم بأوحدية تأثراته تلك أو بانعـدام ما عداها من المؤثـرات المحيطيـة الأخرى أمثال الاسرة والجـوار وحتى الشارع والسينما والملعب الـرياضى وما الى ذلك مـن العوامل التى لا يجحد تأثيرها البالغ على الطفل ـ ولعل الحق الذى ليس فيه شك أن يرى لمجموعة هذه العوامل الآنفة الذكر فعالية لا تدانيها أية فعالية أخرى وحتى تلك التى يبالغ من الاعتداد بها مما ينسب الى المدرسة مـن عظيم القدرة على صقل العقول وبعث الملكات وتهذيب الخلق ٠

على أنه اذا كان صحيحا ما يرى من أن المعلم بامكانياته التربوية الفنية لعلى اقتدار وعلى تأثير بالغ لا يضاهيه أى تأثير فى جانب من جوانب شخصية الطفل وهو الجانب العقلى فانه لا مجال لمزاحمة اقتدار وتأثير الوسطين العائلى والعـام على ميول وعواطف الطفل وبالتالى على أخلاقه وتوازنه الوجدانى الاجتماعى ـ هذا الى ان كلا من الوسطين المدرسى والعائلى له نـواح ينفـرد فيها بتفـوق التأثير نسبيا لمقابله من بقية العوامل المؤثرة الا أن كلا منهما لا يمكنه الاستغناء

(*) انظر الفكر السنة 7 ص 335 ٠

عن الآخر بل هو محتاج مفتقر الى مؤازرته ومعاضدته في سعيه التربوى وفي هذا التكامل العاملي نفع الطفل وانتفاع المجتمع بأسره ، كما أنه في الوقت نفسه يخشى ويتجنب مصادمته ومعارضته لأن هذه الحال تؤدى حتما الى عرقلة الجهود وبعثرة المساعى وضياع الطفل ضياعا زهيدا أو خطيرا وبالتالى ضياع المجتمع الذى سيؤول اليه كوحدة من واحداته ـ

من أجل هذه الأعاذير جاء القول بضرورة قيام رابطة مثمرة بين المعلم المربى وبين الوسط العائلى للطفل يتم عن طريقها توحيد المواقف وتظافر الجهود لفهم الطفل ومتابعة تطوره متابعة حصيفة وموجهة وانك لتجد ضرورة ملحة تدعو هذه الأوساط المستنيرة بالأبحاث التربوية الى عقد اجتماعات دورية وكلما قضت الحاجة بأولياء الأطفال للأخذ منهم ما قد يفيدنا فى عملنا المدرسى من معلومات نستأنس بها ونزداد بها قدرة على مجابهة العقبات فنتغلب عليها فى النهاية • هذا من ناحية ومن أخرى تنظم هذه الاتصالات بأولياء التلامذة لارشادهم وتوجيههم بما يجمل بهم توجيه أبنائهم به فى عقر بيوتهم عندما يعودون أدراجهم الى تلك البيئة التى تكون خلوا من الرقيب المدرسى •

هذه هى المدرسة الحديثة الرامية والحالة هذه الى أن تكون مواقف الأباء والأمهات غير مخالفة ولا مناقضة لمواقف محترفى التربية والتعليم من معلمين ومدرسين، بل هى كما نرى تسعى جهدها فى أن تكون تلك المواقف متممة لبعضها بعض متناغمة متثازرة ـ كل هذا نرى له وجاهة واهمية قصوى نظرا للغاية التى نصبو الى تحقيقها به وهو ابعاد الطفل عن هوة التناقض وذبذبة الاتجاهات وهذا ما كان ليكون لولا أن يستتب حيال الطفل هنا بالمدرسة وهناك ببيته معايير مطردة وقيم موحدة وخطط توجيهية متفقة يتم فى ظل الاهتداء بها كل من التوازن العقلى والوجدانى بله الجسمانى والاجتماعى •

وانه لمن شر ما يبتلى به الطفل فى مراحل نموه الأولى أن يكون والده فاقدا العناية بولده وبنشاطه داخل الوحدة المدرسية أو جاهلا بمستواه وبمدى ضعفه وقوته اجمالا أو تفصيلا فى المواد الدراسية • وانها لبلية حقا أن يكون والده هذا أميا وتزداد خطورة الأبوة على حاضر طفله وبالتالى مستقبله اذا كانت مليئة بالتعقيد مأزومة بواحد أو بكثير من شتى ضروب الاضطراب النفسى والعقلى أو الخلقى وكم هو صحيح هذا التشابه الذى يرى بين عدوى الأجسام وعدوى النفوس اذ كم من آفة جسدية ، يفسر وجودها فى الطفل على أساس عائلى وراثى وكم من آفة عقلية نفسية أو خلقية اجتماعية عدت وليدة تكوين عائلى وبيء انحدرت الى الطفل فى ظل توجيهه تلقين عائلى فاسد أو فى ظل انتصاح عقيم ومضلل جد على يد ولى غير كفء •

ههنا نلحظ مدى مسؤولية المشرفين على ميادين التربية فى الأمة فليس عملهم موقوفا على تخير الأساليب والطرق البيداغوجية لتأدية رسالتهم المهنية على الوجه الأكمل بل تجتاز مهمتهم هذه الحدود الى ما وراء أسوار المدارس والمعاهد التى بها يعملون ٠ وهكذا تصبح عنايتهم بالطفل دائبة مستمرة تلاحقه حيثما حل وأينما سار فى الطريق العام ، فى المنزل ، فى المكتبة ، فى الملعب ، فى دور السينما ، فى المسرح ، فى الرحلات ، فى النزهة القصيرة ٠

ولقد تذهب ازاء هذا الاطلاق فى المسؤولية التربوية الى أن هذا الاهتمام المنشود من المربى يستلزم المحال والا فان المعلم سيصبح فى طاقته ومقدوره أن يكون شمسا تطل على عالم الطفل فى كل مكان ومن هنا فليس بمستطاع القيام بشرائط هذا العمل التربوى البالغ فى مثاليته حدا اجتاز حدود نظيرتها عند كل من أفلاطون وهيجل ، ونحن بودنا أن نكون مع المثل العليا فى تبعية الطاعة للاستطاعة بحيث لا نطلب من المربى ما لا تبلغه طاقته وما لا يدخل فى امكانه ٠٠ قلت هى التربية ابداع وخلق مستمر ، هى موهبة وسعى لا يعرف الونى ولا يتطرق اليه الفتور هى عمل دائب لا يسأم مواصلة الجهد بل يشوقه اتصاله وتلاحقه هى حمية دائبة وصبر متجلد ـ هى جناح سلام يكلا الطفل برعاية هادفة مؤثرة ليس فيها طمع أو أنانية ٠٠ ولا بها نوايا خفية أو أرباح تجارية هى انسانية منبعها الانسانية وغايتها الانسانية ـ ومن هنا كانت وتكون امكانياتها لا تحد بالأقيسة العرفية والحدود المنطقية بل هى فوق هذه وتلك تبهرك هيبة وجلالا وتخشع لذكرها القلوب والضمائر وتخفق لوقعها الاحاسيس والمشاعر ٠٠ وهى أولا وآخرا من جسامة الاعتبار ومن خطورة الرسالة التى لا يولاها الا ذو فضل عظيم ٠

البشير الزريبى

الشـــــباب والثقـــــافة

بقلم : البشير بن سلامة

هى خواطر (*) لم تأخذ حظها من التفكير والنظر العميق ولم تقطع من طريق المعرفة واليقين الا بعضه ، تارة دؤوبة متحسسة هيفى وطورا لجوجة مشبوبة هوجاء عمادها العقل والمنطق حينا ونسغها العاطفة والشعور حينا آخر . أليست هى خواطر تتنـاول الحيـاة وشؤونها وتـدعى الاهتمام بما أوتى الانسـان من عجـز وقـوة وسعادة وشقاء وفناء وخلود ؟ أليست وليـدة هاتين الكلمتين : **الشباب والثقافة ؟** فهل يجوز لمن يذكر الشباب على حدة والثقافة على حدة أن يسكت عن شؤون وشؤون وهل يجوز له أكثر من ذلك أن يقرنهما بواو هى فى الظاهر أوهى من خيط العنكبوت ؟



كلها اسئلـة تعتمل فى النفس ويتجاذبها الخاطر وتثيرها الحيرة لان مفهوم الشباب ومفهوم الثقافة أوسع من أن يحدا ولان مدلول الشباب هو حسب المتعارف أبعد من أن يكـون للثقافـة نسيبا وبها لصيقا . فاحرى بهما ان يتنافرا ويتباعدا كأشد ما تكون النفـرة والتباعد وحقيق بكل منهما أن ينفرد بعالمه وينكمش على نفسه معتـزا بملكوته منصرفا الى شؤونه .

أليس من يذكر الشباب يلمح الى الزمن فى قصر المدة وقرب المدى وانقضاء الساعة ووشيك الرحيل وهل أقتل للانسان وأبعث لحيرته وقلقه من الزمن : سراب خدعه عن وجوده ومعنى وجوده وطلسم ضاعت كلمة السر فيه فلا نداء ولا جواب ؟ أما الثقافة فهى انتفاء الزمن بحدوده واجزائه وهى المدى يمتد ولا انقطاع : فيها الطمأنينة والخلود الى راحة السؤال تتبعه رقية الجواب .

الشباب يكمن فيه معنى الزوال والبهـرج والعرض بينمـا بالثقافة يضمن الانسان خلوده فى أعز ما يخلق وأسمى ما ينشىء من منظر جميل وصوت رخيم من سامى الاحاسيس وأقوم الافكار .

(*) انظر الفكر السنة 9 ص 304 .

الشباب هو الخطأ فى تقييم الحياة وهو الاندفاع بلا ادراك نحو الزلل فى قوة دفاقة وعزم جارف أما الثقافة فهى الصواب الاصوب والفهم الصحيح لمظان الحياة وهى الوقوف عند مكنوناتها تستجلى الاسرار وتختبر الاحوال ٠

الشباب عبث عابث ولهو ومرح ولا مبالاة والثقافة جد ومنطق وفكر ورأى ٠

الشباب جهل وضحالة معرفة أما الثقافة فهى العلم وامتلاء المعرفة ٠

الشباب يهدم والثقافة تبنى والشباب يندفع بذاته يبلوها فى خضم الحياة فيستأثر بها وينكمش فيها بينما الثقافة تبتعد أكثر فأكثر عن الذات وتصبو الى ما يشترك فيه بنو الانسان ويجمع بينهم ويوفق بين آمالهم وآلامهم ٠

كل هذه خواطر متعارفة أقل ما يقال فيها أنها تضع حدا فاصلا بين الشباب والثقافة فتبعد بينهما الشقة وتنفى عن كل شاب الاتصاف بهذه الكلمة السحرية التى أصبحت مضغة الافواه على رغم غموضها وتعدد ألوانها وتضارب الآراء فيها ٠ لذا يجدر بى قبل كل شىء أن أضع حدودا لهذه الكلمة وأن أوضحها حسب ما أراه وأعتقده وان كان هذا الرأى انما هو خاطرة لم توضع على محك الحياة ولم تختبر نتائجها اذ هى ترمى قبل كل شىء الى فهم الحياة فهما تعتقده خاصا أو تظن أنه هو الحق ٠

فالثقافة عند الكثير هى النظر الصحيح والتحليل القويم والتعمق فى الامور برصانة وتؤدة وانقطاع عن خضم الاحداث حتى يتمكن المثقف من أن يزن الاشياء بعيدا عن المؤثرات وهى عند بعضهم جملة من المعارف والمعلومات يتصرف فيها صاحبها تصرف الماهر الذكى أو هى القدرة على الخلق والاستمرار فى الخلق أو هى الاستقامة أو غير ذلك ٠ بينما كل من انعم النظر فى هذه الكلمة وأرجعها الى أصلها فى اللغة تبين له المعنى الحقيقى للفظة الثقافة او على الاقل فطن الى مفهومها الاول وهو بسيط ٠ يقول أهل اللغة: ثَقِفَه ظفر به وادركه وثَقَّفَه بالرمح طعنه وثَقَّفَ الرمح: قومه وسواه حتى يطاوعه عند الطعن ، فالثقافة هى قبل كل شىء **اصابة الغرض** ولكن هذه الاصابة لن تحصل الا بالاستقامة والتقويم والتهذيب ولا يتأتى هذا كله الا بالجهد والمعرفة والعلم ٠ فاصابة الغرض والوصول الى الهدف وطلب الغاية هى العنصر البارز فى الثقافة قبل كل شىء ولعلها هى التى تخضع الانسان ، وهو فى طريق جهاده ، الى أن يقوم من فكره ويهذب من آرائه ويتزود أكثر فاكثر من أعمق أعماق الحياة ٠

فالثقافة هى عندى اصابة الغرض من الحياة والبصر بشؤونها والنفاذ الى اعمق أعماقها مع الاستقامة ٠ فلن تكون الثقافة ثقافة اذن الا بالحركة والقفزة أى بالعمل وفى العمل المغامرة والمقامرة والخطأ والصواب والعجز والقدرة ٠

ولكن يقول القائل اذا كانت الثقافة هى اصابة الغرض من الحياة ٠ فما هو

الغرض من الحياة وما قيمة هذه الثقافة اذا كان الغـرض ليس له قيمة فى حد ذاته واذا كانت حركـة الانسان هى « عبث » والحيـاة « عبث » ولا جـدوى . الا يصح ان تكون الثقافة عند ذلك هى النظر الى الامـور من بعيـد ومحاولة فهمها والاقتصار على تحليلها فى رصانة ولا مبالاة ؟ وأى غـرض تعنى اذا لم يكن هناك غرض ؟ بل والحياة نفسها هى بلا غرض . هنا يجدر أن ننظر فى معنى الحياة وكنهها ونقول لمن يرى أن كل شىء فيهـا « عبث » وأن لا منطق يوفق بين شؤونها وليس هناك طريق واضحة للانسان حتى يسير فيها ويأمن كل الغوائل . الجواب بسيط وهو أنه لو وجد منطق وطـريق واضحـة لكانت مأساة الانسان وهل يوجد عند ذلك الانسان اذ هو سيبقى بهيمة بين البهائم فاين انسانيته ؟ انسانيته هى فى أن يجد المجال ليختبر قواه وليصيب من الحياة ما يقدر عليه ويخلق منها ما يقـوى على خلقـه . « فالعبث » ليس فى أن يلقى الانسان فى خضم الحياة بدون طـريق واضحـة ولا حـدود معينـة بل يكـون « العبث » عند تضييق الخناق عليه وقتل انسانيته وكل اسباب الخلق فيه .

فاصابة الغرض من الحياة هو ان يكتمل الفرد انسانيته بالخلق ولكن هنـا تكمن مأساة الانسان اذ كم عجز وأخفق وتألم وحزن وشقى لانه لم يظفر بسر الحياة الذى يمكنه من الخلق أى من اكتمال انسانيته وهو لعمرى تتضمنه كلمـة ربما يستنكف منها الكثير من القـراء وينسبون اليها اخفـاق الانسـان فـى أعماله وآماله هى كلمة « اللهـو » وليست هناك كلمـة تجنى عليهـا النـاس وحملوها تبعة مأساتهم مثل هذه الكلمة فيجـدر أن نرجـع بها الى معناهـا الصحيح القويم الذى هو فى حقيقة الامر حياة الانسان وكنهها لانه لا يمكن أن يتصور الخلق أى خلق الانسان لانسانيته الا « باللهو » وقديما سمت العرب ولدها **لهوا** جمعا بين معنى مفهوم الخلق ومدلول الاشتغال والشغل ففى « **اللهو** » نجد **الحركة** التى تشعر الانسان بوجوده وعملية **الخلق** التى تتطلب الجهد والجد أى طلب الجديد . فلمـاذا اذن أصبحت كلمـة « اللهو » تحمل معنى الهـزل والعبث واللاجدوى ذلك لان الانسان عندما يريد اكتمـال انسانيتـه فيخلق و « يلهو » يقع فيما له « الها » ويطغى عليه ما نسجه هو بنفسه فيتحول عندئذ من حالة الخلق والتفتح والحركة الخلاقة والتقدم الى الانغلاق والانكماش . فبقدر ما تكون فى عملية « اللهو » من قدرة على المضى قدما والانطلاق فى براءة واستقامة واحياء للمواهب بقدر ما يكون فى الاشتغال «باللهو» العجز والتفسخ والانحلال. هذه هى مأساة الانسان أن يعجز عن الخروج مما نسجه هو نفسه كدودة القز أو العنكبوت تموت فى حبائلها .

وهل هناك عاطفة أعلق بالانسان من عاطفة الحب وهى كما يعرف الكثير اولها « لهو » أى حديث وأنس وقد قالت العرب : لهت المرأة لهوا بحديث الرجل : أى انست به وأعجبها ومن معنى الانس اشتقت كلمـة الانسان ولكن أيـن الخلق هنا ؟ نعم ان الحب مخلوق خلقه الانسان وليس من الغريب ان وجدنا أن الكثير

من الباحثين فى عاطفة الحب عند أهل فرنسا فى القرن العاشر وما بعده ميلادى يثبتون أن : (L'Amour Courtois) نشأ عن طريق التروبادور (Troubadours) أى بواسطة بعض الاغانى والاناشيد ومن الثابت أيضا أن الحب بهذه الطريقة لم يكن معروفا فى الغرب قبل ذلك التاريخ ولا عند أهل اليونان بل أن العاطفة المتداولة هى الصداقة · ومن الواضح اذن أن التأثير لن يكون الا عربيا وأن العرب انفسهم أو الحضارات القديمة التى ورثها العرب عن أهل المشرق هى الخالقة لهذه العاطفة لتكمل انسانيتها اذ اخفقت فى احكام الصلة بين الاخ واخيه (ارجع الى ماساة قابيل وهابيل) · لـذا فنحن لا نجد صدى فى الشعر العربى للصداقة بين الرجل والرجل بل كثيرا ما يتنكر ابن العم لابن عمه أما عن الصلة بين المرأة والرجل لا الصلة الجنسية فهى الغالبة والوفاء بينهما والهيام ببعضهما بعض هو المتداول وخصة العلاقة بين الرجل وحبيبته لا زوجته ولعله السر فى أن لا يتمكن العاشق من التزوج بحبيبته أبدا · لهـذا نجد عند كثير من شعراء الجاهلية حبا هو أقرب الى المحبة والانس رغم ما يظهر لنا من مادية فيه لان هؤلاء الشعراء عرفوا كيف يتخلصون من عاطفتهم التى خلقوها بينما نجد شاعرا مثل جميل او قيس ليلى يقع فى حبائل حبه فتكون ماساته ·

أكاد أجزم أن عاطفة الحب هى من خصائص ثقافة الانسان العربى وبقيت هذه العاطفة تطبعه بطابعها وتجعله لا ينسجم مع العناصر المتشبعة بثقافات أخرى فمن تحدث عن الصداقة فى الادب العربى وأبرز خصائصها هو على ما أظن عبد الحميد الكاتب وقد هلك من أجلها ؟ وابن المقفع ألم يخصص صحائف وصحائف من رسائله تمجيدا للصداقة وألم يترجم كليلة ودمنة وفيه ما فيه من التعمق فى هذه العاطفة ؟ ألم يهلك هو أيضا فى ظروف غامضة ؟ والجاحظ نفسـه ألم ير بنفسه الموت واختفى « مخافة أن يكون ثانى اثنين اذ هما فى التنـور » كما قال ؟ كل هذا يجعلنى أميل الى أن الصراع بين العرب والثقافة العربية وبين العناصر الجديدة يرتكز على فهـم كل منهما للحياة فهمـا خاصا به · ولا أريد أن أقول ان العرب ربما ظفروا بالعاطفة التى تميز الانسـان عن غيره وتكمل انسانيته اكثر من أى شىء آخر ، وهى الحب، العاطفة التى عمت البشرية اليوم وأصبح كل منا يظن أنها غريزة · فتأثير العرب على الغرب كبير جدا من هذه الناحية وان انكر الغربيون ذلك ·

نرى من خلال هذا أن «اللهو» هو سر من أسرار الحياة عليه ترتكز انسانيتنا ويكمن خلقنا لمقومات انسانيتنا فان حدنا عنه ووقعنا فى حبائله كان عجزنا وشقاؤنا وخوفنا · ولعل اخفاق «غيلان» فى سد المسعدى اتى من أنه أراد أن يخلق من دون أن «يلهو» فكان خوفه من العجز فعجز ، وكان ايمانه بقدرته على الخلق فخاب : لم يظفر بكنه الحياة فعصفت به الحيـاة وأراد أن يكون شخصا بعيدا عن ميمونة امرأته ولكنه بقى مثيلا لها فى جوهره اذ هى « دودته وداؤه »

وليس سد غيلان الا عائقا دون اكتمال انسانيته ظنه الخلق فقتل به انسانيته . وحتى فى اسطورة سيزيف أين المأساة ؟ هذا سيزيف يدحرج الصخرة الى القمة وهو ما حكمت عليه به الالهة ولكن لنتصوره اثناء جهده أليس هو يلتذ بذلك الجهد وخاصة عندما يصل قمة الجبل . فهل ينتهى دوره عند ذلك بمعنى موته ؟ لا ! لابد وانه يقذف مرة اخرى بهذه الصخرة الى السفح حتى يرجع من جديد الى عمله ولكن هل سيكون كشانه فى اول الامر ؟ ان الاسطورة تسكت عمن يدحرج الصخرة الى الاسفل ولا اخال الا سيزيف هو نفسه الذى يدفع بهـا بدافع « اللهو » حتى يضمن الدوام لانسانيته .

كذلك أن من بين أساطيرنا الشعبية أن آدم عندما نزل الى الارض أخذ يلهو بشىء من القمح يدقه على حجر ثم صنعه خبزا وأخذ يلتقفه فافلت منه القرص وأخذ يتدحرج نحو السفح فجرى وراءه آدم كالطفل يجرى وراء الكرة فكتب عليه من ذلك الوقت هو وابناؤه أن يبقى الى أبد الآبدين يجرى وراء قوته . فحتى قوت الانسان سببه « اللهو » فماذا يكون من أمر بنى آدم لو لم يجر أبوهم وراء هذا القرص ؟

ثم ان أخص خصائص الانسان اليوم هو العلم . وبربك كيف نشأ العلم ألم يكن « لهوا » من الذين يبحثون عن الكيمياء ؟ ألم يضع أول العلماء أنفسهم سخرية بين الناس ؟ ألم يكن العلم مغامرة ومقامرة وانطلاقا نحو المجهول ؟ ثم هو أليوم أصبح من متممات انسانية الانسان وأصبح أيضا سببا فى مأساته وخوفـه ؟

لذا فالانسان ليس ملاكا لانه عند ذلك يفقد أخص خصائص انسانيته وهو « اللهو » أى بما فيه الخلق وهو ليس أيضا شيطانا اذ هو بذلك يفقد براءة « اللهو » وانطلاقته فاختار اذن أن يكون « بهلـوانا » و « مهرجا » أفلا نعجب له ونضحك ونتجاوب معه فى الملاعب ؟ وبعد كل هذا يمكـن أن نمضى الى أبعد حد فنقول ان الرياضة وهى « لهو » هى من الثقافة أى من العناصر المكملة لانسانية الانسان .

فلم يبق اذن الا أن أقول ان الثقافة ترتكز على عنصر « اللهو » الخلاق اذ هو الذى تقوم عليه انسانية الانسان وانها تبتعد بهذه الصفة عـن الصـورة التى يحاول الكثير من الناس أضفاءها عليها وهى صورة الوقار الحاوى والنظر العميق الذى لا يؤثر لا قليلا ولا كثيرا فى الحياة . فالثقافة اذن تقترب أشد القرب من الشباب وتشاطره هذه الخاصة التى طالما اتصف بهـا دون غيره وظلت عيبـه الوحيد ولكنه ليس بعيب ولعل السبب فى ميل الكثير من الفلاسفة وخاصة « روسو » الى السذاجة والفطرة هو ما وجده فى الحضارات والثقافات من زيغ عن طريق الحياة الحق وما لمسه من تنكر لمعين الحياة الاصلى وهـو « اللهو » . كذلك وجدنا شاعرنا الشابى يعنون ديوانه بـ « أغانى الحياة » وهل أقرب الى « اللهو » من الاغنية كما نجد عدة قصائد تتردد فيها كلمة الحياة وخاصة لفظة

اللهو وكأنه قد سئم « ثقافة » القوم فى ذلك الوقت وزآها بعيدة عن كل حياة فقال :

وأرى ابن آدم سائرا فى رحلة العمر القصير
ما بين أهوال الوجود ، وتحت أعباء الضمير
متسلقا جبل الحياة الوعر كالشيخ الضرير
دامى الاكف ، ممزق الاقدام ، مغبر الشعور
مترنح الخطوات ما بين المزالق والصخور
هالته أشباح الظلام ، وراعه صوت القبور
ودوى اعصار الاسى ، والموت ، فى تلك الوعور

هذا هو الوجه الذى عرفه الشابى لابن آدم وقد أثرت فيه الدهور وأشباه الثقافات وزيفها وهو لا يريده هكذا بل يريده ويريد منا أن نكون متشبعين بكنه الحياة :

« واللهو ، والعبث البرىء الحلو مطمحنا الاخير
لا نسأم اللهو الجميل وليس يدركنا الفتور
فكأننا نحيا بأعصاب من المرح المثير
وكأننا نمشى بأقدام مجنحة تطير
أيام كنا لب هذا الكون والباقى قشور »

وليس معنى هذا كله أن نرجع الى طفولتنا بل المهم ، أن نحافظ على نسغ الحياة فنزكيه وننميه حتى لا تتحجر ثقافتنا .

هذه خواطر خطها القلم تحتاج الى زيادة فى التمحيص ومزيد من البحث ولعلى سأرجع الى بعض منها بالدرس ان سنحت الفرصة .

البشير بن سلامة

نماذج من القصة

حـديث الغيبة تطلب فـلا تدرك

بقلم : محمود المسعدي



« هناك ، في ملكوت الليل الكلي الواسع الارجاء ، حيث لا يصيب الانسان من العلم الا وحيدا أوحد هو النسيان الرباني الخالد القديم »

(شوبنهور)

« فقد عرفت ان سعادة النفس وكمالها ان تنتقش بحقائق الامور الالهية وتتحد بها كانها هي ...... »

الغزالي

حدث* مكين بن قيمة السعدي قال : حدثني هشام بن ابي ضمرة الهذلي قال :

كانت ظلمة الهذلية من راهبات دير العذارى. تنصر ابوها في بعض عمره فنشأت على النصرانية. وكانت مع حر جمالها نفورا شـرودا تابى الانوثة وتتصنع طبائع الرجال. فلما بلغت من السن ما يطغى فيه الدم ويفيض الماء، تمردت فترهبت ودخلت دير العذارى. فذهب لها به ثلاث سنوات. فهي به اذ نزل بهم ابو هريرة. فاقام فيهم زمنا. ثم انصرفا معا وقد ارتدت وفجرت فامعنت في ذلك. ولم يكن فجور كفجورها نية ومعنى. وكانت تقـول : فجوري من الطاعة والاذعان. آمنت من يوم آمنت بالجسد وكفرت بالروح. ثم أسنت وفنيت. فاشترت تيسا. وكانت تقـول : ارتاح لنبيبه.

* * *

(*) انظر الفكر السنة الأولى عدد 6 ص 2 .

قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

اول عهدي بابي هريرة يوم طرق علينا باب الدير. وكان قليلا من يطرق علينا لمنعة الجبل وشدة الدير وعسره وانفصاله عن الارض.

قال : تريد دير العذارى. وهو الذي على الجبل فوق اثاية العرج يراه الحاج في طريقهم ولا يبلغه الا النسور ولا يعلم احد كيف يرتقي اليه رهبانه ولا كيف ارتقى اليه ابو هريرة ولا ظلمة — قالت : وكنت صاحبة المفتاح. ففتحت له وسالته ما حاجته. فقال : حاجة الفار الملتجيء. فحسبته متزهدا مترهبا. فقال واشار الى ظله : هروبي من هذا. فرايته يلوح الى ذنوب اعتلقت به فقلت : ان كنت تطلب محوها فادخل، فدخل وتقدمته الى راس الدير.

ونحن بدهليز الدير اذ قال ، وقد راى مسبحتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنت نسيت النور وعيني لشدة ما كنت اصرفهما الى الغيب. فلما سمعت كلامه ثنيت بصري اليه. فاذا هو من اوضح واضوى واحسن من رايت عينا، واذا عينه اشد ما رايت شوقا الى ما لا تراه غيرها من العيون، فكانها تنشيء مرئيها انشاء وكان روحه البصر. وكانت مشيته لا تكاد تستقيم كان به خمرا او نصبا فقلت : ما بك ؟ قال سؤال اطلب جوابه. اريد ان اعرف ايهما اصدق وجودا الله ام الشيطان. فقلت واستغفرت : استغفر ربك يا هذا وطهر نفسك من الدنيا. فصاح : لا تستغفري ولست بمستغفر. اريد ان اعرف هل انا خالق الله ام الله خالقي. واردت ان امسكه عن كفره فابى وسرنا على شبيه بذلك حتى وقفت به عند راس الدير. فاخبرته بما كان من امره. فاقبل عليه يسائله. فكان ابو هريرة ينظر الينا نظرة غريبة ولا يجيب. ثم قال : الرهبان اينسون ويموتون عن انفسهم ؟ قال الراس : نعم. ولقد نسي المسيح من قبلنا. ان كنت تطلب لدائك دواء فانت اخونا.

ثم احملنيه الراس اعلمه واروضه. فانصرفت به يرمي عن جسده ثياب اهل الدنيا. فوجدت لثيابه ريحا كريح الدنيا هزت نفسي. وكانما ادركها ابو هريرة مني فقال : الا تذكرك ابل الحي تكون ضباعي ؟ ممن انت ؟ هذا انفك يرمع. وكان كذلك. فكرهت ان اجيبه. ثم لبس الصوف ومكث فينا ستة اشهر يكد نفسه في رهبنتنا، فلم ينزل من الدير الابي.

* * *

قالت ظلمة :

وكنت اختلي به كل ليلة في محراب اعلمه الاخلاص واعلمه الادعية فانا به اول ليلة اذ اقبل علي واخذ بيدي وقال : هل بلغت من الصلاح ما تحملين معه فتلدين ولا فحل ؟ فنفضت يده واقشعر دمي. قال : ان لم يكن فالصلوات اقل من الخمر جدوى. كيف تتخلصون من الاجساد والارواح ؟ قلت : نمزقها تمزيقا حتى ننسى الالم. واما الارواح ففي الله والمسيح فناؤها. وكان من طريقتهم تعذيب الجسد حتى يفنى. ثم قمت فاتيته بسوط. فدفعه وقال : بيدي لا بهذا وكنت اقول : دم المسيح ولحمه يمحوان ذنوب المذنبين. فيقول : الا سبيل الى تعليمي ما ينسى ؟ الا سبيل الى غير المعقول ؟ علميني الحمل والولادة وسر توارث الارواح او غنيني واريحني. اليس فيكم من يحذق صنع الاصوات تحضر الآلهة وتكسر الزمان وتشيع المحدود. فاقول : اللهم ارحمه. ثم علمته دعاء ليلته ودخلت غرفتي فبكيت الى فجري.

ولما اصبحنا جئت الصلاة. فاذا ابو هريرة قد شق لحمه بظفره، فهي على جسده كالخيوط الحمراء، وصوفه مضرجة كجلد السليخة. ثم اختفى عنا واختلى بمحرابه. فبقي به شهرين او اكثر لا ينفذ اليه بصيص من النور. وكنت اذهب اليه بطعامه فلا يفتح لي باب محرابه ويقول : ضعيه على الباب. فاضعه وانصرف واعود اليه بعد ذلك فاذا هو يصوم اليومين والثلاثة ولا يطعم ولا يشرب حتى خشيت عليه. وصرت بعده كالخاوية القفر وبكيت كثيرا. ثم انكرت ذلك وتمردت. فخلوت اياما بمحرابي. وبكيت شوقا ودعوت خشية ولعنت الشيطان وابا هريرة وقلت : لا يغلبني. ثم لم يلبث ان وهن عزمي وكرهت ليالي يذهب بسكونها ابو هريرة. فخرجت من معزلي. فكنت اجيء باب محرابه في جوف الليل واقنع بنفسه اسمعه كنفس الريح الحيرى او بنبرات بكائه اسمعها كالدلو. فابكي ويخفق قلبي ثم لا يطيب منامي.

* * *

ثم خرج الينا فجانبته. وكان كالذاهب البال، لا يكلم احدا ولا يسال عن احد ويكثر من الجلوس في مقبرة الدير، ولم اصبر عنه فاتيته. فقال : هل نسيتني ؟ قلت : لم استطع – قال : وتطمعين بالموت، قلت : وهل انستك العزلة فابتسم وقال فاذا ابتسامته في وجهه الناحل

الشاحب كالفجر الطاهر : لا ادري لعلي نسيت الالم. اما اللذة فلا ادري. فكانه اثبت فيّ سهما، فالقيت بنفسي وكدت اقع على وجهي، لولا انه اقامني واحتملني الى محرابي، وقد غلبت غلبة لم يكن لي بعدها شدة ولا عزم. فلما افقت اذا هو على راسي يقول : كذا المراة، لا تكون الا واهنا مقطاع الجهد. فاذا همت ان تشتد او اشتدت بعض يوم اذا هي رماد. ثم بقينا اياما بمحرابي، والدير يحسبنا نتعبد ونبتهل وانما كنا في الشيطان. وكان ابو هريرة يقول : الان علمت وعلمت ان اللذة لا تغلب. فسالته : او كانت في منذ الصغر ؟ قال : نعم. وفيّ. وقد كرهتها لما فيها من تواضع الى امثالك من الخلق وكنت من ايام تيقظي الى محاسني ونعومة لحمي ادفع الجود بها على الرجال والوقوع تحتهم والاستكانة اليهم. فكنت اتناساها وانفيها حتى جاء ابو هريرة وقال : انه لا يتناسى الجسد انسان الا اكلته الخيالات. وسالني : هل وجدت في تعبدك امتلاء ؟ — فامنت بانسانيتي ووجدت من حياتي ملئا لم اجده قبله واتسعت حتى علوت حياتي، وكنت من قبل خاوية ذليلة مستكينة مستضعفة. وكانت لنا ايام ..

* * *

ثم اهملني فكان لا ياتيني الا كالمرغم الكاره. فبقيت ابكي ويطول بكائي وكان قبل لربي — الى ان اعتزلنا جميعا عزلة ثانية، وبقي اياما لا يسمع ولا يرى ولا يطعم ولا يشرب. فلما اعتزل دعاني راس الدير فقال : احذري ياظلمة ان يهبطك الارض. فزادني ذلك وحشة على وحشتي وشوقا على شوقي. ولكني كتمت ضلالي واردت ان ابلوّ نفسي. فاعتزلت ودعوت صلاتي ان تعاودني وربي ان يبرز لي. فبقيت كذلك اياما ابتهل واصلي متبتلة نازعة عن غوايتي منيبة الى الله. فلم يجدني ذلك اكثر مما يجدي الطاوي مضغ الحصى. وبقيت خاوية فارغة وقد هوى ربي، اصلي فاجد صلاتي كالشهدة الهنف، وادعو فاذا جوارحي ترتعد وتختلج، كان ابا هريرة قد لبسني وخلف الله في قلبي

* * *

ثم خرج من معزله وخرجت، فجئته فاذا هو فاتر الجسم شاحب الوجه منهوك ساهم مدنف. فجزعت وقلت : وما كان جزاء هذا ؟ فاخذني الى محرابي وقال : اني اقص عليك يا ظلمة الغيبة تطلب فلا تدرك. وكانت نفسه تعوي كالذئب ولكن كلامه كالريحان تذروه

الريح فيمرج ويفوح. وقال : انه يا ظلمة اذا اقوت السماوات انهالت على الظهر. قلت : حدثني عن الايمان. فاطرق ساعة كالمصيخ الى ليلة من ليالي الصيف هادئة قمراء خالية، ثم قال : نعم ...

* * *

كنت ياظلمة ارى المؤمن مرتاحا كاطمئنان الجمال تطوى المراحل طيا ولا نصب يبدو ولا شكوى ولا عصيان. فاشتهى ان اكون مثله وان اعضد هذه الحيرة من قلبي كما تعضد النخل العقيم. وكنت ممن ذهب ايمانه فجئت هذا الدير وقلت : لعلي اروض النفس على الايمان.

وقد انتهى اليوم جهادي وعلمت ان الآلهة لا تقام اذا هوت.

* * *

قالت ظلمة : فقلت : وهؤلاء يا ابا هريرة ؟ اعني الرهبان. قال : انهم خليط كسويقاء المرق.

فيهم الهوائيون عبدة الخيالات اصحاب الاحلام. الذين يريدون الارض ان ترتفع الى السماء والحقيقة الى الوهم والذات الى الظل. وقد حدثني بعضهم يوما فقال : انظر الى السماء فاراها نورا والارض فاراها ماء ونفسي فاراها شعاعا. ويقول : النجوم الحوتي وزهر الارض وسادي والشمس طعامي. هل اكلت من الشمس ؟ انا طائر او صخر او سحاب في السماء. فقلت له : فاذا تيقظت قال : لا ادري في اي بلد وقعت وليس من همي. وطلبت مثل احلامه. فاذا صاحب الاحلام اذا ذهبت به قتل الدنيا وانقطع الى الفوق فليس في الكون غيره وان هو الا خيال. وليس اكره من الخيال عندي.

وفيهم الارضي يلعن ربه ان ليس من طين، ويطلب المغالطة كالذئب يتصنع جزة الغنم. فكانه يقول : يا رب نزعت طيني فانزع روحانياتك. ولست ممن يحب الطين ان يرتد اليه كل شيء.

وفيهم يا ظلمة الاعرج الضعيف النفس، يحب الكامل السالم ويكبره فيعبده ويكره ضعف نفسه فيريد ربه ان يقرضه القوة.

وفيهم صاحب الشوق يحن الى ما يوسوس في صدره من ذكرى القدم.

وفيهم يا ظلمة الكفرة مثلك ايمانهم خدعة وقد جهدوا ان يعلموني ايمانهم. ثم نظرت اليهم يركعون ويسجدون لله ويكثرون من ذكره ويجعلونه في السماء يرفعون اليها الابصار، فلا يذهب بشيء من كفرهم. فان اكثرهم يلحون في ذكر الله الحاح الشاك او المنكر. وبعضا منهم يلحون في ذلك اكثار من ذكر الله ولما يعرفه فلما خاف ان يجده سكن اللسان. انهم يخلقون ما يعبدون. ويطلبون الغيبة. ولكنهم لم ينجوا من انفسهم. بل تفرد بهم شيطان الروح وماتوا ميتة غريبة. احياء في بواطنهم نيام عن الدنيا، قد اتسعت نفوسهم فغطت عليها. اولائك قوم تاهت قلوبهم واعينهم وغرهم ما غرني من امر البراهمة بالهند يظل الرجل منهم عامة دهره يتعبد حرا او قرا ولا يغير من ثيابه ولا يحرك من طرفه، كانما ذهبت حياته وذهب جسده فكانه الفناء او الاطمئنان الكامل — وليس كذلك. كذا رهبان الدير سكون ولا اطمئنان.

وقد ارتضت رياضتهم وتلوت الادعية وصليت الصلوات وامسكت نفسي ان تكابر الله. فلما انتهيت فقدت نفسي. ففرحت وقلت : فنيت في ربي — وقلت : هو الله. ثم طلبتها فاذا هي حاضرة لم تغب وانما انقلب الشكل؛ واذا روحي لغو من الاناجيل وعقلي نسيج من الحروف وقلبي من الظلمات وربي وهم من ذلك وليد، واذا على لساني لعنة ذي المسغبة يطعم الزقوم.

ونظرت اليهم على اختلاف مذاهبهم، فرايتهم يخدعون انفسهم يعلمون اولا يعلمون ما يفعلون، او يكونون ادخل من الملائكة في الروح يطلبون محل الآلهة ويقولون لقد تاله المسيح من قبلنا، وهم على ذلك لا يتخلصون من الحاجة تنزلهم الى غائط الارض ولا من الطعام يحرك فكوكهم كالابل تجتر، ولا من الشهوة يركب بعضهم بعضا، فقلت : سحقا لآلهة كالقردة والحمير. وقلت : سحقا لرهبنة لا تكون الا تالها مستحيلا او غرورا مؤلما.

ثم خرجت عنهم وعنها

* * *

قالت ظلمة : فقلت : وقد اخرجتني، فاذا لجسد مس الجديد المعاد الخلق. فلم يقل شيئا وضمني اليه.

* * *

ثم هبطنا الارض

محمود المسعدي

فرحـــــــة الاولاد

قصة : بقلم : الطيب التريكي

اعتادت* خديجة في ايام رمضان، بعدما ينصرف زوجها الى عمله واولادها الى كتابهم انتضطجع على فروة ضان قرب عتبة البيت وتستسلم لغفوة تجد فيها راحة لبدنها المتعب لانّها قليلة النوم ليلا في شهر الصيام



الا انها هذا العام كلما تقدم رمضان كثرت هواجسها وهجرها النعاس وقد كانت في السنين الماضية تسر لمقدم العيد وتعد له عدته .

عرفت خديجة بين مثيلاتها بحسن التدبير والاقتصاد فهي تجمع على ممر السنة كميات قليلة من الزيت والفاكهة والسكر وغيرها وتدخرها وتراها تنقص من الزيت مقدار فنجان كل يوم ومن السكر ثلاث كعيبات عند الزوال ومثلها عند المساء وترى زوجها، وهو محب في شرب الشاي بعد الفطور وبعد العشاء، كثيرا ما يؤنبها :

– تعلاش ها التقسيط

– اهاه ! في سيدي رمضان وفي العيد تلقاه كيف العسل.

وتخرج خديجة ذخرها فتسرف العائلة في شرب الشاي والقهوة وتسرف خديجة في صنع « المقروض » ألوانا وألوانا، ويقضي كلهم عيدا كأسعد ما يعرف اهل الغابة اي مجموع الاجنة في ضواحي المدينة.

وان احتارت خديجة في امرها هذا العام فلان السنة مجدبة. وربح زوجها فلم تدخر الا الشيء اليسير ويشق عليها ان يقال عنها انها لم تصنع « المقروض » فتكتب لها فضيحة بين اهل « الغابة »

– لاحيرة معاك ياربي ! يامدبّر دبّر ! الشفاعة يا رسول الله صغيراتي يعيدوا مكبوبين ها العام !

(*) انظر الفكر السنة 1 ـ العدد 2 ـ ص 39 .

وقد تهتدي خديجة الى الراي الصواب وتحدثها نفسها ان الشيء اليسير الذي ادخرته من سميذ وزيت وسكر فيه كفاية وتتردد على اذنها كلمة زوجها :

— كل عام وقسمه

ولكن سرعان ما تثور ثائرتها فتقفز على قدميها وهي تتساءل كيف لا يفهم زوجها ان لها من الاطباق ثلاثة طبقا كبيرا وطبقين صغيرين وان السميذ الذي ادخرته لا يكفي « لتعمير » طبق صغير واحد، وكيف لا يفهم ان النوع الابيض من « المقروض » نوع محتقر :

— باهي والله ! آش قال لك وآش قلت لك، خديجة تريكية بعثت للكوشة قدام الناس اربع كعبات مقروض بيض متلغين يطنطنوا في طبيق قد الكف، عاد بلاش خير.

وتفضل خديجة ان تعدل عن صنع « المقروض » على ان تظهر بهذا المظهر المزري بين الجيران، ويضيق صدرها شدة فتخرج من البرج وتبقى تجيل بصرها في « الجنان » حتى يقف عند « طابية الهندي » وهي خط الافق لرقعة الارض التي تعيش فيها.

وان يقف بصرها عند « طابية الهندي » فخيالها يجتاز هذا السور المنيع الذي يفصل عنها الدنيا ويصل بها الى زوجها فتراه يعمل مجهدا نفسه منهكا قواه متصببا عرقا فتراف به وتحنو عليه وتغرورق عيناها دموعا وتقول :

— مسكين ولد الناس يجاهد علينا جهاد.

ولكن حنان الام على اولادها يغلب رافة الزوجة بزوجها فتنهمر دموع خديجة وترتعد فرائصها عندما يمر بخاطرها ان اولادها سيقضون عيدهم محرومين مما تبتهج له الصغار.

— عاد ! وفرحة اولادي يا سيدي ربي ! يدبر راسه الليلة كيف يجي نتفاهم معاه.

جبلت خديجة على ان تقوم بشؤون زوجها اتم القيام مهما كانت تضمر في نفسها من الرضى او من الغضب وعاد زوجها عشية ذلك اليوم منهوك القوى مما يقاسيه من شدة العمل وعناء الصوم فاعدت له فراشا في ركنه المعهود وقدمت له ماء ليغسل اطرافه وشرعت تهيء

مائدتها، وكانت خديجة لسنة فكهة تملا الجو حولها كلاما وضحكا مما جعلها عزيزة عند زوجها محبوبة عند صديقاتها وجارتها وكان زوجها كلما راح مساء الى المنزل بادرته بقولها : « الله يعينك » ولاقته بكلمات الترحاب والسؤال عن حاله وبقيت حصة قائمة بين يديه تعينه على ابدال ثيابه وعلى غسل اطرافه واذا انصرفت الى عملها في مطبخها فلا تغيب الا قدر قضاء حاجتها وسرعان ما تعود بجانبه تتم حديثها وتقص ما سمعته عن جارتها وتشرح ما بدا لها من راى في تدبير شؤون منزلها وزوجها مرتاح الى حركتها ونغمات صوتها الى ان تنقضي السهرة وتستسلم الاسرة الى النوم.

واما في ذلك اليوم فلم تخل خديجة بواجب ربة المنزل الا انّها كانت مقتصدة في كلامها ففهم زوجها ان في نفسها شيئا تتهيأ للافصاح به وظنه امرا تافها لا يصعب علاجه فقال لها كما اعتاد ان يقول في مثل هذه الاحوال

– ايّ طرشق تراه ! خلينا نتفرهدوا !

– محصّنة مضمنة ! اعلاش تطرشق في ياسيدي ؟

– امالا آش بيك ؟

– ما بي شي

احس زوجها « صادق » ان الامر ذو خطورة فلم يلح عليها وانقطعت خديجة عن الكلام الى وقت السهرة.

– ياخي تقول لي طرشق ! ما عندي علاش نطرشق، الاولاد اولادك وما عندي فاش مطلوبة.

– ءاش بيهم اولادي ؟ ءاش صار ؟

– ما صار وما كان ! انا ما ننجمش نخزر لاولادي يعيدوا مكبوبين! اقعد انت وإياهم وانا ماشية نعيد في دار بويّ.

– علاش مكبوبين ؟ اليّ عندنا فيه البركة.

– ما بركاش !

نهضت خديجة في عنف وارتمت على فراشها وانتشر الاولاد في

زوايا البيت بعضهم بلا وساد وبعضهم بلا فراش وبات صادق في حيرة يفكر في حل يخرجه من هذا المازق الشديد.

خرج صادق من غده مبكرا وبقيت خديجة في منزلها متكاسلة متمارضة حتى سالها صغير اولادها :

– يامّي وقتاش ماشية لدار حناتي ؟

– اسكت يطرشق عينك !

ولا تسل عن امر صادق في ذلك اليوم. قضى نهاره محتارا كئيبا لا لانه يخشى كلام الناس ولا لانه يصعب عليه ارضاء صبيته بالشيء اليسير واشغالهم في العيد بالقليل من الحلوى والفاكهة ولكنه يشق عليه ان تغضب خديجة ويخرس لسانها الحلو وتفتر ابتسامتها مصدر سروره وزينة الحياة عنده، خديجة زوجته الصالحة الامينة الحاذقة، فقصد كثيرا من اصدقائه يستعيرهم بعض النقود وطلب من مستاجره تسبقة ولكن بلا جدوى فتملكه الياس وضاق صدره حتى خطر بباله ان يمر عند رواحه بتاجر شيخ كان جارا له فلما شكا له حاله فرج كربته وقضى له حاجته.

عاد صادق الى المنزل بعد وقته المعتاد فوجد اطفاله ينتظرونه عند مدخل « الجنان » وبان له راس خديجة يطل من كوة في المطبخة ففهم انهم احتاروا لتاخره عن موعده فحمّل الاولاد ما كان عنده من قراطيس وتركهم يسبقونه الى البرج وتباطا في خطوه وراءهم حتى يصلوا قبله الى امهم وتفهم هي ان الله فتح عليهم ببعض الشيء، واما الاطفال فاسرعوا الى البرج متعثرين وهم يفضون القراطيس من طرف ليعلموا ما بها، فدخلوا على امهم يتصايحون :

– يا امّي درع !

– يامّي سكر !

– يامّي ...

– كبوه ! كبوه ! يكب ايامكم ! وانت يا منطّر سيب من يدك !

وما وصل صادق الى فناء البرج حتى راى خديجة تجري نحو المطبخة بعد ان اودعت القراطيس في مقصورتها فصاحت له من بعيد « الله يعينك » واشتغلت بقدرها تحركها وتضرم النار من تحتها وما هي الا ساعة حتى كانت الاسرة حول المائدة تستسيغ الطعام وتتبادل الحديث.

— انا قلت نعمل شوية مقروض اسمر وشوية غريبة، وجيب لنا كعيبات عضام نعمل شوية ملبس، صار لنا عامين ما ذقناهش .

— يزي عاد ! الي صار فيه البركة،

— يزي انت ! ديمه وانت تسكر فيها، ربي ينوب. وانت يا طفل غدوة تمشي للكوشة ترحي لنا الدرع وتحوّر السميد... ان شاء الله الليلة الجاية نتوكل على الله.

انتصبت خديجة وسط البيت بعدما وضعت بجانبها كل ما تحتاج اليه وجثت على ركبتيها امام قصعة الخشب التي ورثتها عن ابيها ثم صبت الزيت وجعلت تدير يدها في القصعة وهي تصب السكر حفنة حفنة حتى يذوب باكمله ثم صبت قطرات من العطر وبعدها دقيق الدرع وكونت عجنة ذكية الرائحة فدنا منها الصبية وارتموا على القصعة فصاحت في وجههم :

— ابعدوا علي ! ءاش ها القوم ؟

— يامي يحّييك نخبز معاك ! يامي يحيك !

— يديكم سحاق كيف حماش العافية ! قلت لكم ابعدوا !

وبعد ذلك جذبت القصعة الى جانب ووضعت المائدة مكانها وشرعت تاخذ العجين لقمة لقمة بين يديها مجموعتين ثم تضعه على المائدة وتمر عليه باصابعها وتربت عليه من فوق ومن جانب ومن ءاخر حتى يصير في شكل مكعب مستطيل قليل الاعتلاء ثم تاخذ القالب وتضرب به المكعب من جهة ضربتين ومن جهة ضربتين ثم تضعه فوقه وتضغط عليه بجمعها ثم تاخذ السكين وتقص ما زاد من العجين على طرفي القالب وعند ذلك تمتد اليها ايدي الاطفال لتاخذ ما تسقطه السكين :

— يامي نذوق ! يامي نذوق !

– يذوقكم العلقم ! مليح خوذ انت ! خوذ انت، اي براو ارقدوا ! هنيبوا على نقص المقروضات !

– يا امي نرصف معاك في الطبق ؟

– لا ! اذهبوا ارقدوا ! احشموا !

– انا ماشي ندّي المقروض مع بويَ.

– وانا زادة ...

– والفرخ الصغير ماهو يمشي يرقد.

والفرخ الصغير هو عبد الوهاب او كما يسميه اهله « وهاب » لا يبلغ من العمر الا اربع سنين يلبس سراويل قصيرة تشد الى كتفيه برابطات وتبرز في مقدمها بطنه الكبيرة « تبزمت » لما حشيت به من « كسكسي » ولحم لما كان رضيعا.

انزوى « وهاب » في ركن من البيت لما نهرته امه وبقي واقفا مسندا ظهره الى الحائط وهو ينوح :

– ايبيد ... ايبيد .. نحب ندي المقنوض مع بوي.. ايبيد

– اسكت وهو يغرد علينا ! اللطف ما اركله ها الدحش.

بقيت خديجة الى منتصف الليل وهي تصنع « المقروض » وتصارع اولادها وهم يرتمون على المائدة يلتقطون فتات العجين حتى اتمت شغلها وحملت الاطباق زوجها واولادها ورافقتهم الى باب البرج توصيهم برد البال والحرص على « الكواش » حتى لا يغفل على اطباقها فيحترق « مقروضها » ثم رجعت ترتب البيت وتغسل المائدة والقصعة والسكين والقالب، وبعد ساعة اتتها الاطباق تنشر روائحها الذكية فاخذ زوجها يداعبها :

– بتشي على غلبك –

– مانيش ماشية نحطه في قصريتي ! ما هو شوية آش ما جاء فرحة الاولاد قدام الجيران .

الطيب التريكي

خليفة الاقرع

قصة ـ بقلم : البشير خريف

دفع الخبزة الى الكواش(*)، واخذ فى طريق العودة الى كوخه حزينا كئيبا ، لينظر فى سبب تنكر الناس له فمنذ مدة ، شعر بتبدل الايام ٠ واليوم تحقق من ابتداء طور تعيس فى حياته الحقيرة ٠



الم يبادر سى المختار الى اعطائه ـ بنفسه ـ الخبزة فى السقيفة ؟ وكان قبلا يدخل حتى المطبخ ، فيجد للا فاطمة ، زوجة سى المختار ، وصلوحة الارملة ، سلفتها وابنتيها حنيفة ودليلة ٠ فيهارشنه ويضحكن منه ساعة ويأكل مما بين ايديهن من فضل عشاء او مما يصنعه من حساء او سلاطة مشوية ٠ اما اليوم فقد كفاه ، صاحب الدار ، مشقة الدخول ٠

ثم ان سعيدا الكواش ، عوض ان يدعوه بخليفة الاقرع ، كالعادة ، ويمازحه ويحاول كشف رأسه ثم يناوله كأس تاى ، دعاه بسى خليفة ، ولم يناوله كأس تاى !

« سى خليفة » ٠ ما اسمج هذا النداء ، وما اثقل عليه اداة الاحترام ٠ فما هذه الكارثة ؟

مر فى طريقه على دار عم الحاج الفلاح ، فدق عليها دقا خاصا فانشق الباب واطلت عليه امرأة بدينه سمراء ، عيونها كوميض السيف ، فلما رأته ، ابتسمت واستبشرت ٠ اعطاها قرطاس وقال لها :

ـ حله له فى القهوة والا فى التاى ٠

فاستلمت ذلك بلهفة وقالت :

ـ يعيشك يا خليفة ٠ استنانى هانى جيتك ٠

وغابت ثم اقبلت ونفحته بمصروف ٠

(*) انظر الفكر السنة 6 ـ ص 33 ٠

ومر على حمودة النجار واعطاه حقة لطيفة بها لبانة ممضوغة · فاخذها وسأله :

ــ من فم حنيفة ؟

ــ امالة من فمى · قالت لك · نهار الاثنين فى ثنية السيدة ·

ــ تعيش يا خليفة الغول · استنانى · وادخل يده فى جيبه ونفحه بمصروف · ثم قال له :

ــ خوذ ، يعيش خويا ، وصل القفة للدار ·

ذهب الى الدار ودخل فاعترضته العجوز أم حمودة واخذت من يده القفة وخرجت معه الى السقيفة · وهناك قصت عليه منامة طويلة ليعيدها على بوبكر الدقاز ويأتى لها بتفسيرها ·

وبينما العجوز تهمس وقد تهلل وجهها وانصرف عقلها الى ما رأت من خير فى المنام ، اقبلت من خلفها ابنتها محرزية ونظرت اليه نظرة رجاء ، فأشار بالنفى ، فولت مكسورة الخاطر واتمت العجوز منامتها ثم قالت له فى تردد وحياء ، كأنها تعتذر :

ــ وليدى ما تتغششى ، خوك حمودة قال لى ناخذ من عندك القفة من السقيفة ·

فبلع ريقه وانصرف ·

دخل الى كوخه ، وعمد الى مخلاة ، فاخرج منها فرنا مختلفا : اوراقا وخرقا وصورا وعلبا ومقصا ومحفظة نقود ، الى ان وجد شقفة مرآة ، فأخذها وقابل الباب وجعل ينظر · فعرف بليته ···

نكت طويلا فى الارض ثم لاح له خاطر · فقام واصلح بعض شانه وتوجه الى حانوت عم بو بكر الدقاز المغربى ·

* * *

رفع الملحفة ودخل ، فوجد المغربى جالسا وبين يديه كتاب اصفر مفتوح واوراق ودواة واقلام قصب · فلما رآه ابتدره ·

ــ تعالى هنا يا ولد الـ ··· واش اعطاتك السيدة مرت عمر ؟

وتقدم اليه بوجه مغضب ، وكان شاربه خطا رقيقا فوق شفته ، امر عليه ماكينة المزين وعفى عن طرفيه ، فتدليا على جانبى فمه كجناحى خطاف ، وجنتاه بارزتان وحنكاه غائران ينتشر عليهما ككل مغربى محترم نفسه ، عارضان خفيفان · عثنونه طويل هزيل مخطط بالشيب ·

بهت من هذا الاستقبال وسأل :

ــ جاتك ؟

لم يجب الدقاز واعاد سؤاله مهددا ٠

ـ قول واش اعطاتك ؟

ـ نسيت ٠

حملق فيه المغربى ثم قال ساخرا :

ـ مسكين خليفة الاقرع ينسى واش خذا من فلوس !

ثم اقترب منه ٠

ـ انا نفكرك : اعطاتك واحد الالف ٠ وانت تتفكرشي واش عطيتني والا نسيت ؟ اعطيتني مائة ريال ٠ هكذا قال لك ربى ، تسرق يا واحد القران ؟

احس الاقرع بجفاف فى حلقه وقال مستلطفا :

ـ ما تتغششى ، عم بو بكر ، يمكن تخلطت على الفلوس ٠ حليمة اعطاتني باش نردلها فردتها من الرهنية وكانت عندى فلوس الطريزة متاع ناناتى صلوحة واعطاتني دليلة نشرى لها الغبرة والحمير وعندى فلوس محرزية ٠٠٠

ـ خلاص ، خلاص ، خلاص ٠ عندك البانكا ديال الحومة ٠ ودابا الكل ما تغلطشى فيهم ، ما جيت تغلط كان فى فلوس عمك بوبكار !

ـ والله يا عم بوبكر ٠٠٠

ـ ما تحلفشى ، ما تحلفشى ٠ واش بيك ما جيت تغلط كان بالنقص ؟ واش بيك ما غلطشى بالزايد ٠

ـ والله يا عم بوبكر ٠٠٠

ـ اصبر ، اصبر ، وتزيد تأخذ مائة فراك من عندى ٠ صوار انت حصلت ستمائة وانا اربعة ٠ هكذا حلل لك ربى ؟

ـ شوف عم بوبكر ٠٠٠

ـ ما كانشى عمك بوبكار دروك ٠ والسردوك الاسود ، وعدة رفيقة فى عرسها ؟

احس كمن نخزه فى قلبه ٠ انه جاء مستجيرا بالمغربى عسى ان يجد فى حكمته مفرجا لما اصابه فاذا به يقع فى حساب عسير ٠

ـ آه السردوك ؟ اعطاته لى باش نبدله ، على خاطر مهوش سمين ٠

ـ راك بدلته ؟

وقام المغربى الى الرف فامتدت قامته فى جلابة رمادية اللون تنتهى الى بلغة صفراء تغم رجليه واخذ ضمة من الريش الاسود ومدها فى وجهه ٠

ـ والريش دابا اللى لقيته قدام الحانوت ديالك ؟

آه الريش ! لعن الله الريش • لقد نسيه يوم احتفل بذبح الديك واعداده • أخذ يحلف ريثما يجد دفاعا •

* * *

لقد دعته النسوة فى ذلك اليوم ليملأ لهن الماء من الماجل لغسل ثياب العروس رفيقة ، والحقيقة ليضحكن منه • دخل الى وسط الدار وكان على نصفين ظل وشمس فوجد حنيفة ودليلة بنتى سى المختار وحليمة البدوية الشابة التى تزوجها الحاج الفلاح وربيبتيها اللتين تقاربانها سنا ورفيقة العروس وجليلة وكلثوم • ووجد السيدة زوجة عمر ومحرزية اخت حمودة النجار •

ملأ لهن دلاء • ونضحن عليه الماء واشتد سرورهن لما بسط الفرش على الرخام ورفع غطاء النقرة واخذ يملأ منها مباشرة ويصب ، وعلا الفرش دلكا برجليه • فاعجبن بهذه الطريقة وانضممن اليه فى رقصة صاخبة والارجل تعمل فى انفراش وفضيض الماء قائم ، ثم انهن تغامزن عليه واوقعنه على الارض زاعمات ان دور غسله هو قد جاء وصببن عليه الماء واخذنه من يديه ورجليه يعصرنه كالثياب •

فكان سعيدا بمصارعتهن ، سعيدا بمقاومة جهدهن اللين اللطيف : فيحتمل فوزهن عليه ويمتع النفس بالنظر الى المحاسن الخفية والارفاغ •

تملص مرة ، وحبا وامسك محرزية من حيث لا ينبغى ، فدفعته ، فوقع فى الماجل ، ففجعن وجثون يطللن عليه ويندبنه ، واخذت محرزية تتبرأ من فعلتها وهو يطفو على الماء ، يتظاهر بالموت • ثم تعاون على اخراجه بالحبال والسلوم والتفغن به وهو يقطر ماء فاصبحت ثيابه شفافة وزاد ضحكهن •

ثم جعلن يجردنه • وحاولت حنيفة الخبيثة ان تخطف عمامته فتكشف قرعه • وتفطن لاغتنامهن الفرصة ، فجسسنه من مواضع شتى ، وخاصة محرزية فانها امرت يدها على جسمه بشره لا يقل عما كان يفعل لو كان الجسم جسمها واليد يده •

ثم طفقن يعتذرن اليه بما شابه الغزل ، ثم جاءت كل واحدة بقطعة ثياب ، والبسته اياها • فجاءت دليلة ببنطلون ابيها ، ورفيقة بجيب قديم وساميجة وادخلت حنيفة فى عنقه حصارة عمتها وكبست رأسه بتقريطة ، وهو يصيح ويمانع ـ شكليا • ودق الدربوكة طاغ على صوته • واقبلت جليلة بقشابية فكبتها عليه وحشته فيها • وهكذا مجهزا ، حملنه ووضعنه على صندوق فى النصف الظليل من وسط الدار واطلقن زغردة ارتجت لها الحومة •

وبعد ذلك تسلم الوعدة ـ اى السردوك الاسود ـ ليؤديه الى عم بوبكر الدقاز ، لكن رأى ان يتمم به نعمته ذلك اليوم •••

ـ قول ، كليته وحدك ؟

ـ هـرب لى ...

ـ هرب لك واعطاك شويه ريش باش كيف تستحق له تبخر له .

ـ جيت نشد فيه تقلع ريشه .

ـ ادروك وآينه السردوك ؟

ـ توة نشريلك واحد آخر .

وظن نفسه تخلص ليشرع فيما جاء من اجله . لكن المغربى لم يمهله .

ـ وهذا الحرز ، يا واحد الساقـوط . واش اللى كتبت فيه ؟ وانقـذف الريش الاسود من يد الدقاز الى ركن الحانوت وحل محله ورقة بيضاء مطـوية على اربعـة .

ـ تدلس على الحروز وتأخذ الصوارد ، انت تلعب بكلام ربى !

... نعم ، اهتدى ، منذ مدة الى هذا المرتزق السهل لقد ابتل له حرز كان يوصله الى احدى نساء الحومة فاراد تجفيفه ففتحته فرأى فيه مربعات مخطوطة بالسمق ورموزا ليس من العسير تقليدها ... لكـن ما السبيـل الى دفـع هذه التهمـة ؟

ـ يا عم بوبكر ، وقتها لقيتك راقد . ما حبيتش نحيرك .

ـ ياخى رقدت بنوم اصحاب الكهف ؟ ياخى ما نضتش عند العصر ؟

ـ الحقيقة كنت حاجتى بالفلوس ...

ـ قول هكذاك ؟ وانت واش تدير بيها الفلوس ؟ ما يكفيك اللى نعطيك فى كل مرة تجيب لى الصوارد ؟

حاقت به الحجج وثار على انانية الدقاز وبدا له ان يهاجم هو الآخر .

ـ عاد قداش من مرة عم بوبكر ، نمدلك الفلـوس تأخـذ وتغمض عينيك آشنهوة واش نديربيها . آنا ما نيش عبد ؟ كان انت تدير بالفلوس ؟

اغتاظ المغربى وحرق اسنانه وصاح .

ـ واش راك تهدر ، واش راك تهدر .

ـ يزى عاد عم بوبكر ، محسوب انا بهيم شى ما نعرف .

اوجس المغربى خيفة . فرفع عمامته المكورة ، وجـرش رأســه المحلـوق بالموسى ثم كب طياتها المتقاطعة على جبهته فبقى قفاه عاريا محلوقا ثم قال فى قوة تخفى تراجعا .

ـ واش راك تعرف ؟ قول ٠

فاندفع الاقـرع ٠

نقول اللى خذيت من عند المـرا الفين بـاش تبخرلها بالبخـور العجمى ٠ بعثتنى لقطت لك بعر المعيز وخذيت وحدك الالفين ٠

ابتسم الدقاز ابتسامة صفراء واجاب :

ـ يعطيك عصيدة كان انت تعرف تشرى ! مانى شريته وحدى ٠

ـ وكيف نجيب لك عشاء الموتى بـاش تقـرأ عليهم تبعثنى نشـرى لك الشراب ٠ هى تجى قراية بالشراب ؟

انكمش المغربى ،مكرها ، فى دور المدافع وقال :

ـ بركاك يا ولدى ما تكفرشي٠ هذاك الحمر نصبه فى بيت الماء لبابا جاطو٠

ـ بابا جاطو يحب كان النحلي البارد ؟ والطفلة الحبلى الى جبتها لك باش ترمى سقطت لها صغير وعملت لها صغير آخر ٠

استفدح المغربى الداهية ٠ فرفع يديه وتشنجت اعصاب وجهه وصاح ٠

ـ سكت يا ولد الـ ٠٠٠ هاذيكة عندها الراقد ٠

ـ ما زالت فى دار بوها ، قداش من راقد ؟

رشقه المغربى بنظرة ساحقة ، من تحت حاجبيه الكثيفين وعض لسانه ، وحسر كم جلابته عن ساعد مشعر ، معـرق ورفـع جمعه كانه يريـد نسفه بواحدة ٠ ثم كظم غيظه وقال :

ـ تهدر ، تهدر ٠ واش تحوس على انت ٠ انا ما نحوس عليك ٠ بقى انت دابا ربى باش تحاسبنى ٠ ما اقبحك وما اصح عينك ، داير روحك مرابط ٠ من هو الى حبلها الاول ؟ قول ٠ تكلم ٠٠٠

تراجع الاقرع ٠ وما كان يحسب ان الفتاة تبوح بسرها وسره ٠٠٠

لقد تعرف اليها فى الصيف ، زمن العولة ٠

ففى يوم شديد الهاجرة لجأ الناس الى حجراتهم الباردة النـدية يقيلـون ٠ وعاد هو الى كوخه ، بعد ان تغدى فى دار سى المختار ، حيث اعان على نشر الكسكسى والمحمص ٠فغط وحمى فرأى ان يطلب الروح فى السطح ٠ فطلع وتسلق الحافات وصعد ونزل فى مجاهل السطوح حتى اهتدى الى ركـن فيه ظل وروح حسبه فى آخر الدنيا ، باعتبار وسطها فى كوخه ٠

وجد فوشيكة من العاشوراء الماضية وكرة طاشت للصبيان وقطعة نقـود

صغيرة · ازال السحالة بيده واصلح لنفسه مجلسا بين السيكران والاقحوان الجالى ولبث يستمتع بنسيم رقيق صاف ويتجول بفكره فى آفاق بعيدة غامضة ·

وكانت الابنية البيضاء تنوء تحت شمس لا ترحم المآذن والقباب ومربعات اوساط الدور وباقات اشجار نفذت من بين الجدران وسطوح ناصعة وسطوح مهجورة برصاء ، قد اكلها الحشيش ·

وكأن الحياة غادرت المدينة ، فرقص فوقها ضياء زئبقى منعش تحت سماء لا لون فيها ·

ومن حين الى حين ينفخ بائع الكريمة فى زمارته نفخته المتموجة ، فيقوم ضجيج الصبية الذين افلتوا عن امهاتهم ثم يعود الصمت كاملا كثيفا ·

وكان خليفة ، قد نسى نفسه فى غيبوبة من الهدوء والطمأنينة واذا به يشعر بوجود احد قربه ، فانتبه فسمع بكاء خفيا ·

من هذا الذى فر بنفسه الى ملكوت السافيات ، ليطلق العنان لدموعه فى مثل هذه الساعة ؟ قام بحذر وطفر على حافة وانقلب على سطح آخر ·

واذا بركن فيه ظل وروح كركنه ·

واذا بصبية فى روبة قديمة ، مادة رجليها ورأسها فى يديها وشعرها متهدل على وجهها واكتافها واذا بها جليلة بنت الحاج ·

ارتاعت وهمت بالفرار · ولما عرفت خليفة الاقرع لم تبال ، واكتفت بان همست :

ـ اسم الله العظيم ! من آين جيت ·

وغشيتها حمرة من وجد يقترف ذنبا فردت ذيل ثوبها على ركبتيها الناعمتين واخفت منبت نهديها · اجابها ·

ـ مالقيت وآين نمشى فى هالقائلة ـ ثم سألها ـ وانت آش تعمل هنا ؟

ـ حتى انا مالقيت وآين نمشى ·

ـ وآين تحب تمشى ·

ذهب روعها وشعرت نحوه بما يشعر به الطفل اليتيم عند ما يسكن الى قط او كلب فيجعل منه صديقا يبثه ما يملا قلبه، مفترضا انه يفهم شكاته واجابت:

ـ نحب نقطع برور وبحور ونمشى لبقعة ما يعرفنى فيها حد وما نعرف فيها حد ·

ـ علاش ؟

ـ الى نعرفهم يزينى منهم · قلبى فد ·

ـ تحب تولى غريبة ، هكه كيفى انا ٠٠٠ اللى عندو ناس يقول ياليتنى بلا ناس واللى ما عندو ناس يقول ياليت كان عندى ناس !

رفعت فيه عينيها الدعجاوين ، الواسعتين ٠ ليس هو قطا وليس كلبا ولا حاجة لان تفترض ، انه يفهم شكاتها !

تبدلت فيه نظرتها ٠ الا يجمع اليتم بينهما ؟ بلى والسن ايضا ٠

عدلت من جلستها ، كأنها تدعوه للجلوس ٠ وافتر ثغرها افترارا حزينا جميلا وارتعشت وجنتاها الورديتان وتساقط الدمع من اهدابها الطويلة ٠

رفرفت عصافير متنقلة من عش الى عش وزقزقت زقزقة خفيفة ٠

لم يدر خليفة سبيلا الى مواساتها غير البكاء معها وما كان بكاؤه الا حنينا اليها ودخولا فيما هى فيه ٠ دموع المرأة سلاح مصيب ، فى غالب الاحيان لكن دموع الرجل سلاح يصيب ابدا !

قال لها ، بعد هدأة :

ـ انت عند بوك وعندك اخوتك وعندك ناسك ، اما آش نقول انا ٠

ـ ياليتنى انا زادة ما عندى حد ، ياليته ربى كيف هزلى امى ، خلانى وحدى ٠ اما هذه مرت بابا شواتنى وقلاتنى ياوخى ٠

افترقا عن غير موعد والتقيا من الغد فى نفس الساعة والمكان ، ونشات بينهما رابطة خفية ، حلوة على احساس مشترك فى التعاسة ، فانقلبت هذه التعاسة الى سعادة ، واى سعادة !

وحل الحديث محل الشكاة وحلت الضحكات الخافتة محل البكاء وحلت المداعبة محل السكون ٠

وكانا ، من العمر ، ابان تهب الطبيعة بدائع الشباب فكانت جليلة ، كلما خلت الى نفسها ، تتطلع لاكتناز جسمها ونعومة بشرتها واستدارة ساعديها ولولبة فخذيها وخصب جسمها ٠ وكانت تعجب لقبتين بضتين لينتين فاض بهما صدرها ونفج وسط كل قبة برعوم فى درهم من جنس الشفاه ، فتقور عليهما يديها وتحاول تقريبهما من بعضهما بعض او رفعهما ولها معها العاب وملاطفات فتشعر شعورا لذيذا تضطرب له ويغشاها دبيب النمل ٠

وكان خليفة يعجب لقوته النامية وتصلب عضلاته وتدفق دم الشباب ، فوارا عاتيا ، فى عروقه ٠

بلغت بهما الصداقة الى ان اطلع كل منهما صاحبه على ما يشتمل عليه من بدائع ، ثم قارناها ، ثم الفا بعضهما ببعض فتالفت ٠٠٠ الى ان طغى الوجد

مرة على الحذر ٠٠٠ فغرزت اظفارها فى وجهه ٠٠٠

* * *

بلع خليفة ريقه وتمادى فى مرائه مع الدقاز ٠

ـ انا عم بوبكر ٠

ـ امالة اشكون يا واحد القرآن ؟ وعدل سير الجلد الذى يمر قطريـا على قميصه يحمل جبيرته ، وكر عليه ٠ من هو اللى خسر عرس كلثوم ؟ من هو اللى يربط بين حمودة النجار وحنيفة ؟ من هو اللى يبيـع القمـح اللى يسرقه الحبيب ولد الحاج من باباه ؟ ومن هو اللى يرهن الحـلى ديـال حليمـة ؟ ووآين تروح نهار الاثنين كيف تهز صلوحة انهجالة للسيدة المنوبية ؟ ومد فيه لحيته الهزيلة ٠ فظهرت من تحتها رقبته المحلوقة محببة كجلدة الدجاجة ٠

فتح الاقرع عينيه مبهوتاً ٠ باكيا كالفار الذى انحصر ـ امـام قـط ـ فى زاوية لا مهرب منها ٠ فما كان يظن الدقاز مطلعا هـذا الاطـلاع ٠ وحضرته اعماله ، فانحز قلبه لا ندامة ولكن حنينا لها وأسفاً عليها ٠

الارملة صلوحة ! اين يجد كمثلها رفقا وحنانا ؟

انه ليذكر ليلة فى آخر الصيف ، عند عودة الحلايعية ، اذ ارسله سى المختار ليبيت معها على بقية ادباش فضلت عن حمولة الكميونة ٠

وكانت صلوحة الارملة هذه ، معروفة بالشراسه ، والحرص وتبغضه بغضا لا مزيد عليه ٠ على انه ، لا ينكر جاذبية غامضة ، ملحة ، تجذبه اليها وتحببه فى التقرب منها ٠

ترملت منذ عشر سنين ، عن زوج لم تلبث تحته الا عامين ٠ فغدا لها مثل الصلاح والتقى والكمال الزوجى وترجو بفـارغ صبـر ايـان اللحـاق به ، لاستئناف حياة لم تعمر لديها الا عمر الوردة ٠

ولبثت تنتظر ذلك عند اخيها ٠ ورفضت عدة عـروض للـزواج ، وفـاء للراحل العزيز ٠ وكانت تشغل وقتها بالسيطرة على بيت اخيهـا ، بيـدها مفتاح بيت المونة وتقوم بدور الحماة بالنسبة لفاطمة ، امراة أخيها ، فتذيقها الوانـا من المضايقات وتـراقب حركاتها وسكناتها لتشعرها بقلـة رضاهـا عما تفعل وتبدى اشفاقها على اخيها ، مرددة :

« ها الطيحة المسودة ياوخى » وتهيب ببنات اخيهـا الا يشبهن امهـن ٠ وتضرب المثل بحياتها الزوجية القصيرة وتتنهد ٠

وكانت تأخذ على اخيها اباحة داره لخليفة الاقرع وتنكر هوسه مع البنات

وتنهره كلما تقرب اليها • فكان يجتنبها ويخشاها • فلما ارسله سى المختار ليؤانسها امتثل ، مستثقلا هذه المهمة متطلعا لنتيجتها •

وكان الحر ، تلك العشية ، شديدا والغيم كثيفا والجو ثقيلا محموما والرعد يجرجر على بعد كأنه عجلات ثقيلة بعيدة واسحم السحاب غربا وبقى مضيئا ورماديا من شرق ينفذ الضياء بين اردينه المتراكمة • وطيور الخطاف تسف ، تكاد تلمس وجه الارض بصدورها البيضاء •

دخل الدار وسلم على « ناناتى صلوحة » فخزرت اليه شزرا ، فلم يأبه بها ونزع ثيابه وذهب يغتسل ويتبرد • فلما عاد ، سألته :

ــ واينه سى المختار ؟

اجابها بانه سيبيت معها يؤنسها وغدا يأتى سى المختار ويوسقون بقية الادبــاش •

فقامت فى وجهه • ورفضت انسه • واجبرته على العودة حالا ، الى تونس ، لينادى لها اخاها • حاول ملاطفتها ، دون جدوى ، ثم اذعــن وذهب يرتــدى ثيابه ، فسقطت محفظة نقــوده وانفتحت وخــرجت منهــا صــور واوراق • فاسرعت صلوحة الى اخذها ونظرت ، فوجدت صورة دليلة ابنة اخيها وصورة الحبيب بن الحاج ، فضمت المحفظة اليها وسألته :

ــ يا غلبتك ! آشنية ها التصاور وها الكواغد ؟

ــ لا ، شى ، هذوكم تصاور آش اسمه ، اعطانى نطلع له فيهم • هاتهم •

ــ نعطيك ؟ نعطيك عاطيه وضربة خاطيه• هذوما من يدى ليد سى مختار•

ــ متاع الناس ناناتى ، يعيشك لواه ؟

ــ اما ناس ؟ تصويرة بنت خويا يا اللى ما تحشمش اخــرج على • تــوة تنادى لى خويا ، يا رهدان •

ــ مليح هانى خارج • اعطينى ، الاخرة ، الفلوس باش نركب •
رمت اليه بالنقود ، وحشت المحفظة فى شونها وشيعته بقولها :

ــ اذهب ذهبــة !

تردد لحظة فى عتبة الباب ثم توجه الى المحطة •

سمع قعقعة رعد بعيدة • فتخيله نذير ما ينتظره غدا من شر • كان يتوقع كل شىء من الارملة • السب واللعن والدعاء والسخــرية وجميــع لطــائف

الشراسة ، حتى الضرب • اما هذه ، فلا • سوف يفتضح امره ، سوف يطلع سى المختار واهل الحومة على تصرفاته سوف يرون الصور ووصولات رهن الحلى واحراز بوبكر الدقاز ورسالات غرام هو موزعها فى الحومة على الشبان والشابات •••

ولولا الصورتان ، لما انتبهت الارملة الشريرة ولما وقع فى هذه الورطة •

وهما صورتا محبوبين تجنيا على بعضهما بعض وشاء كل منهما ان تكون الخطوة الاولى من الآخر ، ثم ، شعرا مع المطرب عبد الوهاب ان « الهوان واياك معزة ••• » فارسل كل واحد صورته لحبيبه • كعربون للتصالح ، فاجتمعت الصورتان عند الاقرع فاحتفظ بهما ولم يؤد الامانة • لا لشىء سوى ان يستمتع بحرقتهما ويشعر ان مصيرهما فى يده ان شاء رحم وان شاء نقم • لكن ها ان الصورتين تتسببان فى افتضاح امره • ندم على هذه المداعبة ايما ندم وقال فى نفسه « انه يجب فعل الخير حتى فيما يسمونه شرا » •

برق البرق وارعد الرعد وانفطرت السماء بعارض من عوارض آخر الصيف العنيفة • فنزل المطر سجفا وجرت الشوارع فى لحظة وديانا تجرف القشور والاوراق والكواغذ وفوجىء الناس ، فادخلوا رؤوسهم بين اكتافهم وجروا وثبا على المياه • وخلا الشارع وتضوعت من الارض العطشى ومن المغانى والبساتين رائحة التراب الذى اصابه الغيث •

دخل حانة ، قد فر منها روادها وانهمك صاحبها فى ادخال الكراسى وتكويمها على بعضها بعض • فطلب زجاجة وشواء ولبث ينظر •

ليس امامه الا الفرار بنفسه • فما تكون عاقبة امره ان اطلع القوم على الصور والاوراق ؟ فكر فى الرجوع الى الدار لعله يجدها قد هدا هيجانها ، او يجد فرصة لاختلاس المحفظة ، وان تمكن من ذلك ، يسهل الامر ، يبدل الصور بغيرها ويغالطها امام الناس ، معتمدا على ما اشتهرت به من بغضها له او يفتكها منها بالقوة ويهرب •

مر من الليل جانب ، وفرغت الزجاجة واضاعت الاشياء فى عقله قيمها ووجد فى نفسه قوة تهد الجبال • خرج فضربه المطر على وجهه ولفت المعصرات اسماله وغاصت رجلاه فى الماء والوحل ودار دمه ، حارا نشطا ، واتجه الى الدار •

وصل يقطر ماء • ففتح الباب ولم تشعر به من تهاطل المطر وعويل الريح وصخب البحر •

دخل يمد رجليه مد القط •

لم يبق فى الدار الا جراية وبساط ونصف خزانة وبعض الماعون ، نقلوه

من المطبخ الى ما كان بيت نوم . وارتفع مواء قط كان يدخل حجرة ويخرج من اخرى يبحث عن مواليه ويحتج عما رأى من تغيير .

وجدها لاصقة بجانب الشباك ، تنظر الى السماء الغضبى ، الى السحب التى بدت داكنة ، شهباء كالدخان تكللها من حين الى حين ومضة برق تنير امواجا متراكبة متلاحقة ، مقصدرة الاطراف وتتفرقع فيها زمجرة مدويه ، فتمسك الشباك وتسرع شفتاها بتلاوة سورة الاخلاص مقطعة بطلب اللطف والستر .

احدث حسا لتنتبه . فالتفتت مذعورة ، فزعم ان الماء غمر قنطرة وادى مليان فتعطلت المواصلات .

ـ ووه ! ريحتك بالشراب . اخرج على .

تراجع ، بينما رفعت رأسها تكلم نفسها :

ـ كيفاش نعمل يا ربى ها الليلة ؟

اشفق **عليها** ، فتقدم وتوسل .

ـ ما تهبلش يا ناناتى يعيشك .

فعرشت كالدجاجة التى تحمى افراخها وصاحت به .

ـ مانيش ناناتك ، سبع دقات على قلبك يا سكارجى . مشيتش من قدامى والا نكسر لك راسك بها الطاولة .

واخذت المقلاة من يدها وبهزت فيه .

ـ ياللا هانى خارج عليك . الفيراندة زادة ما نباتش فيها ؟ ها الليلة المبروكة !

انسحب ، ولبث ساعة فى الفيراندة ، صحبة كلب مبلل كريه الرائحة ، واخذت منه النشوة ماخذها وجالت فيه افكار ، عجب كيف لم يفزع لها . غدا يفتضح امره ويطرد ويفقد كل شىء ويذهب ، الى اين يذهب ؟ لا يدرى ، سوف يخزيه الناس جميعا .

اقترب منه الكلب ورحب به ولحس اصابعه . فعجب من هذه الملاطفة وخطر له ان ليس كل البرية ضده . وتمثلت امامه الارملة صلوحة تهجم عليه بصدرها المفعم ... الشهى وفوطتها المنفرجة وعيناها ترميانه بشرر من الكراهية والبغض . لكن الذى يعذب نفسه ويقطع قلبه حيرة هى رأرأة يدركها ، نادرا فى ملامحها ، فتبدو له حبيبة تدعو .

انقطع التيار الكهربائى • فباتت المدينة فى ظلام دامس ، حالك ، وكشرت من فوقها السماء • فدخل يتلمس واشعل عود وقيد وعمل فتيلة بالزيت ودخل بها البيت • فألفاها وجلة ، ممتنعة • قد اتسعت عيناها • وتغيرت تقاطيع وجهها فاكسبتها فتنة غير مقصودة •

عاد الى الفيراندة ، حذاء الكلب حينا ، ثم رجع :

ـ توة ماكش عاطيتنى السطوش ؟

ـ تمشى من قدامى والا نلفك بكف !

ـ آش ثمه على امك ، ينعل والدين بوك •توة ولى‌لى عفريتة سيدنا اسكندر •

وانتظر القيامة مستعدا لخوضها • فنظرت اليه ، كأن الخطاب لغيرها • بل بدا له كانها ممنونة اذ تخلص من صفة الخديم الى صفة رجل عربيد •

تقدم الى وسط البيت وتابع :

ـ انا ماشى ، ماشى • وغدوة باش تطردونى ، انا نهردها الليلة وغدوة نصبح فى بلاد اخرى •

ـ يا عماك وصماك ! والله توة نقول ووه ونفزع لك الجيران •

ـ واينهم الجيران الى باش يسمعوك فى ها الليلة فى ها الشتاء • بينك وبينهم جنينتكم وجنينتهم وآش حاجتك بالجيران • انت خايفة منى ؟ والله تراب صباتك نكحل بيه اهيكه السكينة حذاك • ها هو صدرى • اقتلنى كان تحب • مسامحة فى الدنيا والاخرة •

وعرى صدرا معضلا ، املس ، تقاطيعه حسنة متناظرة ، قد صهرته الشمس واقترب منها •

اشتد الغط فى الحجرة وكأنها فرغت من الهواء وجالت عيونه فى محاسن جسمها ونعومة لحمها وبدت له حاجة ذلك الجسم الى التعريك والمصارعة •

اختنقت انفاسه ، ونز جسمه عرقا •

ـ ابعد على ما اخيب عينيك • يعطيك عمى فيهم •

ارتجت الدار جيئة وذهابا واز زجاج الشبابيك وقصف الرعد قصفة صماء ، انبثت عقبها رائحة كبريتية • من صاعقة نزلت • فارتمت ، دون ان تشعر ، لائذة به • فغشى شعرها وجهه فتنفسه وملا قرارة نفسه من رائحته ثم ابتعدت عنه نادمة عما بدا من ضعفها • فتابع :

ـ نحب نعرف علاش تكرهنى • آشنوة ربحك كيف يطردونى ونمشى

تهمل ؟ واين عندى نمشى ؟ انا يتيم وغريب · عملتكم اهلى ونأسى ونخدم فيكم باللى نقدر ، باش ضريتك ·

فأجابت دون ان تنظر اليه :

ـ انا تضرنى ؟ لا يوصلك ·

ثم رفعت عينيها وقالت له كانها تطلب منه حجة مقنعة :

ـ ها التصاور وها الجوابات ؟ يا اللى ما تحشمش !

ـ آش عندك فى ها الحسابات ، متاع الناس للناس ·

ـ تصويرة بنت خويا يا غلبة !

ـ بنت خوك والا بنت عمك · ما تحبهاش تعرس · انت قل لى ها الشوم والشرادة وآين وصلوك ؟ الناس الكل تكرهك ، الناس الكل ترد بالها منك ، النهار الكل وانت لاهية بالحلق وتحمص وحدك · كيف التبيب ما عندك حبيب · تبدا الناس تلعب وتضحك · انت تدخل والسكوت النبوت ··· حد ما يعطيك سره · خسارتك ! شربة ماء ما يجيبوها لك الا ما يبداو ينترو ويشنترو ·

ترقب جوابها · لكنها لبثت صامتة ، جامدة · ورأى دمعة تنزل من وجهها المسبرت ، فاستمر :

ـ تحبنى نمشى · اقعد فيها وحدك · حزز · ابكى على روحك · اما انا قدامى الدنيا بكلها ·

وخرج · واطبق الباب · فاخذت فراشا ولحقته الى الفيراندة وقالت له :

ـ خوذ ·

ـ لواه ؟

ـ ماك بايت فى الفيراندة · خوذ باش تفرش ·

ورجعت الى الحجرة وقالت له :

ـ زيد خوذ الزربية كان تحب ·

لحقها وبيده الفرش · فوضعه وقال :

ـ زعمة سخفتك ؟ انت فيك قلب وتسخف · آش نعمل بفرشك وآش نعمل بزربيتك ؟ انا ماشى على روحى · ماوهكه تحب · اما نزيد نقلك قبل لا نمشى والله لو كان تعمل مليح مع روحك تنحى ها الشوم وتتلهى بنفسك وتنحى الغش اللى قارنلك عبستك وتزهى · والله لا ثمه وحدة كيفك · الكل

الّي ترى فيهم ما يجيو فى ظفرك ، عمرى ما ريت وحدة قاتلة نفسها كيفك والله عندك فدنكة ما احلاش منها ، بزايد كيف تبدا تعايب فى النساء الّي يجيوكم ، ماكش فاطنه على نفسك يا مغبونة · والله مرود كحل ···

فقاطعته ، وقد ذبلت عيناها وتزيتتا وابتل ريقها ·

ـ كيف عجبتك ما خل ربى ما اعطانى ·

ـ تعجب سيد الناس · وقدك اشكون كسبه وشفتك المسوكه من عند ربى ···

ـ يا عماك وصماك ·

ـ ··· انت غلة فى عز وقتها ·

اجابت بصوت فارغ :

ـ هيا وفيتش والا غدوة والله والله خويا يحطك فى الحبس ·

ـ الحبس والا جهنم · مد السطوش لا نفريكك ·
واخذها من صدرها ، حيث خبأته · فحاولت دفعه وفتحت فمها لتستغيث ، فسده بفمه واسندها وسواها على الفراش ···

مر العارض · وامسى الرعد كزئير اسد عجوز · لا يقصد من زئيره الا اشعار الناس بوجوده · ثم يعود الى احلامه · ناسيا نفسه · وامسى البحر يزفر زفرات جهورية بطيئة كزفرات حطاب مجهود ·

ومن الغد · اصبحت الارملة صلوحة تطارد القط لتذر خليفة ينام · ورمت على راسها رداء وخرجت تشرى الحليب ، لتعد له وجبة افطاره ·

* * *

ـ تكلم يا واحد القرآن ، داير روحك تتصهمم ؟
اخفى خليفة رأسه فى ذراعه وطفق يبكى · ثم قال :

ـ عم بوبكر · انا حسبتك كيف بابا ، وجيتك فى قضيه لى وانا عمرى ما طلبتك فى حاجة ، تصبح تشعل فى كالفتيله · على كل حال سامحنى · وهانى ماشى على روحى · ما عادش ترى خليقتى ··· وانا لى ربى وزاد بكاؤه ·

امهله المغربى حتى يفرغ من بكائه ، لكن زاد نشيجه واخذ البكاء يخض جسمه · فاشفق عليه وسأله :

ـ واشنهو القضية اللى جيت عليها ؟

فرفع وجها ، احمر ، مخلوطا بالدموع وقال بصوت متقطع :
ـ ما • ما عادش • يخليونى • نـ • ندخل لديارهم •
ـ واش من كاينة عملتها ؟
ـ ما •• ما عملت حتى ••• كاينة •
ـ امالة دابا آش بيهم ؟
ـ راسى برى •
واخذ يمسح عينيه ويشهق • نظر اليه المغربى طويلا ثم قال :
ـ احمد ربى على العافية •
فرجع الى البكاء ، وعادت دموعه تنهمر وقال :
ـ سى المختار ما عادش يحبنى نقابل بناته •
ـ ايـوه •
ـ والنساء ما عادش تلعب معايا •
ـ واش دابا نديرلك ؟
فاقترب منه وانفتح وجهه المبلل :
ـ احسبنى كيف ولدك عم بوبكر رايت قـداش من حـاجة جبتهـا لك • وتوة انا جاى ووصاتنى خالتى دوجة على قدوة لبنتها •
ـ واشنية حاجتك •
ـ شوف راسى عم بوبكر •
ازال الدقاز عن رأس خليفة المحرمة والشاشية ، فظهرت سفيفـة شعـر تحيط بقمة ملساء ، حمراء قد ارتسمت بها مناطق تختلف فى حمرتها فمنها ما ذهبت الى الصفرة او البلق او الصهب • وتطايرت من بعضها قشور وبدأت شعيرات رقيقه بيضاء تكسو اكثر المواضع برءا •
ـ نشبح ، نشبح • راسك برا •
ـ كيفاش نعمل عم بوبكر •
ـ احمد ربى وخلاص •
ـ باش يهزونى نخدم عند طبيب سنين •
ـ الله يسهل لك •
ـ ما عادش نرى حنيفة وزكية ونانانى •••
ـ واش عندى منّ قدرة ليك ؟
ـ عم بوبكر • براس الى يعز عليك • اعمل لى حتى دمالتين والا ثلاثة •

البشيـر خـريف

طرنـــــــنو

قصة ـ بقلم : محمد رشاد الحمزاوى

انه عبارة عن شبح(*) · يفر منه من يراه ليلا · تجده ببطحاء تربة الباى متكئا على حائط كانه يشد ازره · يدور مع الشمس كالصدع ، يكمد جسمه الذى يكاد يتكسر الى نصفين من شدة الضعف · فكلما عاش يوما ازداد ضعفا كانه يأكل من نفسه · يقضى الساعـات بالبطحـاء يقلب رأسه الكبير الذى استـوت على احـدى قرنيه ـ احتجاجا ـ شاشية شهباء · ولا يكلف الله شاشية الا وسعها · شغله راحة وفراغ · يبيع الريح للمراكب ويـراقب بعينيـه كل ما هب ودب · فيحيى مبارك بن سعدة عندما يمر به وهو يسوق قطيعا من الاطفال الى المـدرسة ويقف عند الفحام فيشاهد ما بعربته من فحم وميزان · يزور من حين لآخر عم الحاج المغربى ، حارس المدرسة الزيتونية او يتردد على الطاهر العطار لعله يجد شخصا يمتص حلوى او يأكل خبزا فيناوله قطعة ويقفـز متطفـلا ليشـاهد



معركة بين طفلين او يستمع بزنقة الولى الى مشاجرة عم على الخضار اليومية مع زوجته · لقد وجد فى محيطه مخرجا لحيرته وسلوى لقلقه · ليس له سن فهو صديق الصغير والكبير يمشى مع كل بهواه ويندمج فى كل ثقبة · اتخذ من بطحاء تربة الباى مقرا وموعدا يترقب فيه اصدقاء للعب الكـرة وتقتيـل الوقت · فيقبلون عليه زرافات ووحدانا من الربط الآخر وباب الجديد وبطحاء رمضان باى · فيظهر حمادى « الفطايرى » وعبد الستار « الروفلين » ومنصف « جايمس كانى » ثم يصل البوهالى الملاكم واصحابه « القزادرة » ذوو السواعد المفتولة والاسنان الذهبية الصفراء ، يجرون احذيتهم المنقوبة ، مالئين الطريق ضجيجا وقهقهة وصفيرا وغناء مضطربا · ويلتحق بهم بائعو السجائر وتذاكر الحافلات وحبوب القرع والبطيخ · فينتهى مطاف الجميع بالبطحـاء فتتـلاقى الاحباب وتتبادل التحيات بالمصافحة او بلكمة على الصدر يصوبها البوهـالى الى ادنى الواقفين منه · فاذا ضاع صديق ولم يدرك المكان نادى :

ـ يـا طرنـنـو هـاى ·

(*) انظر الفكر السنة 4 ـ ص 730 ·

ـ فيطلقها طرننو صيحة طرزانية تشق الفضاء :
ـ هـوى ، هـوى ، هـوى ٠

فيقبل الصديق الضائع مسرعا مدركا المكان لان افراد الزمرة يعرفون تلك الصيحة التى تعلموها مع طرننـو عند مشاهـدة افـلام « طـرزان » وقردته « شيتـة » ، والسارق والصحيح من رعاة البقر بامركا وذلك بسينما «راكس» الموجـود بآخر نهج سيدى السوردو او سينما « بيجـو » بباب الجديـد الذى يترددون عليه يوم الجمعة اذا توفر المال او كثر الازدحام وغفل صاحب المحل عن مراقبة الداخلين والخارجين ٠

فاذا وصلت الاغلبية يقفز عبد الستار « الروفلين » الى منزله بزنقة الولى فيأتى بكرة ويتوجه مع الرفاق الى بطحاء سيدى زهمـول للشـروع فى لعب الكرة ٠ فتنقسم الجماعة الى فريقين يدعيان عادة التـرجى الريـاضى والنادى الافـريقى ويتوكلان على الله فى اللعب ٠٠٠ لعب يعتبر فيه كل لاعب حكمـا فتتصادم فيه السواعد المفتولة من صنف البوهالى والاشباح الهزيلة من شبه طرننو ٠ فتتلاقى الارجل الحافية بالاحذية وتدمى الاصبـع ويخـر على الارض كثيرون مغشيا عليهم من جراء ضربة كان فى الظن توجيهها للكرة ٠ فلا يسلم من الكرة احد حتى المارة ٠ فمن كان معمما رأى عمامته تحزمه كانه يستعـد لرقص « الهولاهوب » او مطربشا شاهد طربوشه يحلق فى الهواء كأنه صحن طائر او طفلا قبل الارض رغم أنفه ٠ ويا ويل من يحتج لان وابلا من الشتـم واللكم ينهال عليه فيتخلص شاكرا الله عما سلف ٠

يستمر اللعب ساعات طوالا وطرننـو ينادى ويصيح ، يجرى وراء الكرة وتجرى وراءه ٠ انه لا يلعب بل يتظاهر باللعب مطلقا رجليه فى الهـواء دون ان يصيب الكرة ويبتعد بمهارة كلما رأى البوهالى او أحـد الصنـاديد مقبلا عليه ٠ فان نشب نزاع حول تسجيل هدف فان المشكل يحل دائما بواسطة معركة حامية الوطيس يكون الحق بعدها فى جانب السواعـد المفتـولة الذين يؤيدهم طرننو فى الحق والباطل ٠ لا ينبس طرننو ببنت شفة فى لعبه الا شتم الله الذى لا يعرف عنه شيئا سوى انه موجود فى جهة من السماء ، سعيـدا يحمد نفسه ويشكرها على سعادته ٠ انه يشتمه ليروع أمـه العجـوز عندما ترفض فتح الباب لاخذ الكرة من فوق السطح ٠ فشتمة بصوت عال غاضب تكفى ليفتح الباب كما يفتح سمسم ابواب الكهوف ٠

عندما ينهك العدو والصدام القوى ويقبل الليل فيـؤمن الجمـع ان شبـح الفراغ والقلق قد رحل باقبال الظلام والنوم ، يتوقفون عن اللعب ٠ فيجرى طرننـو قبل غيره الى عين الماء بالبطحاء ليشفى غليله ويـروح عن النفس من لفحة الحرارة التى اصابته ابان اللعب٠ ويرى بعده كل اللاعبين بالعين٠ وبعد استراحة ومناقشات حول المباراة يتجمعون ويتحرك ركبهم نحو صباط عجم يتقدمهم طرننو وهو يغنى بصوته الرخيم مع الجماعة :

ببيـرا ، يـا ببيـرا يـا محلـه لعب الكـورة
لعب الكـورة للشبـان متعه وصحه للابـدان

فيندمجون فى النهج المظلم القذر ويتفرقون على بنـات الهوى لمغازلتهن او للضحك هنيهة معهن الا طرننو فانه لا يستقر عند واحـدة منهـن كأن كتب عليه زيارتهن جميعا لانه يعرف « اسمهـان » السمراء السمينة ، و « دلنـدة » صاحبة الوشام الذى وشح يديها وصدرها ووجهها ، و « ليـلى مـراد » ذات الخد المحروق · انه صديقهن الروحى · فلا يجسر على مسهن او تقبيلهن رغم تشجيع الرفاق على ذلك :

ـ شلغمهـا عـاد يـا طرننـو ، شلغمهـا يـا سى الفـرادى ·

انه يود فعل ذلك لكن يخشى العـاقبة منذ ان تجـاسر على « اسمهـان » التى قالت له :

ـ اذهب ! انت لا ترضى بيك لا عـزوزه ولا حتى بهيمـه ·

فيصول ويجول بينهن يمتص باقى سيجارة يمدها رفيق او يختطف فطيرة من بائع فطائر صغير فيلتهمها وهو يقهقه رغم الاحتجاجات والبكاء · يقضى هناك ساعات ثم يفـارق المكان عائدا الى منزله مارا بشارع باب الجديد ونهج الحـدادين المظلـم ·

تشرق الشمس فيعود طرننو مع زمرته للكرة · فيتحدثون كرة وياكلون كـرة ويعيشـون للكـرة حتى يقبل يوم الاحد فيقومون بهجـوم منظـم على الترامواى والملعب البلدى بالبلفدير · فاذا بطرننـو جالس فى احسن مكان بالملعب يرمق بعينيه اللاعبين واصحاب الجاه الجالسين بالقرب منه · انه من انصار « التـرجى الريـاضى » المتحمسين العاشقين له ، يهتز لانتصـارات ذلك الفريق ويحزن لانهزاماته · فكم مرة كلفه حماسه مغامـرات ومشـادات مع الشق المعارض يتقاضى فيها قسطا وافرا من الضربات والكلمات التى تهدم له سنا او تزرق عينـه او تمزق اشـلاءه · لكنه لا يبـالى فان كتب النصـر للتـرجى عاد طرننو الى الربط مسرورا سعيدا فيشرح فى طريق العودة صدر الجميع · فيشنف اسماعهم ويثيـر حمـاسهم مستهـلا ذلك بـرقصة وسط الطريق ، بحديقة البلفيدير فيصفق له الحاضرون مرددين :

يـا ببـح ، يـا ببـح ويـاببـح

فيلتوى ويلتوى دقائق طوالا حتى يخر على الارض · ثم يقف بعد هنيهـة فيغنى مع المجموعة نشيد الرجوع الى الربط :

الشـربـه وحـده وحـده
والشـــربـه عصـره قـارص

فتدوى الاماكن المجاورة من صياحهم ثم يقفزون فيهجمون على الترامـواى ويتعلقون بمؤخراته وابوابه وشبابيكه ، يغافلون بائع التذاكر وينزلـون فى

كل محطة ليعودوا للترامواى كلما تابع سيره من جديد الى ان يصلوا الى الربط حيث يترقبون أيام الاسبوع ليعودوا لجهادهم فى الحياة ، للكرة ٠

واتى يوم لم يذهب فيه طرننو الى البطحاء لترقب الاصدقاء ٠ لم يظهروا ولم تظهر الكرة ٠ لقد اصبحت البطحاء خطيرة يدوى فيها رصاص البوليس ويصفر ليرد هجمات جماهير غفيرة غاضبة انبثقت من كل نهج ومن كل فج كأنها سيل عارم متجهة نحو مسكن صلاح الدين البكوش ٠ فكانت تفر وتكر وامتلات البطحاء نشيدا وصياحا وانفجارات يحتلها البوليس تارة ويفتكها المتظاهرون اخرى ٠ لقد افتكوا منه غصبا بطحاءه واصبح متفرجا ٠ فظل يتفرج اياما وكاد القلق ان يخنق انفاسه ٠ فخرج من منزله واتبع المظاهرات من بعيد وهو صامت ثم اخذ يندمج فيها شيئا فشيئا حتى وجد نفسه فى مقدمتها يهتف مع الهاتفين ، يرمى الحجارة وكل ما تستطيع يده الحصول عليه من قشور القرع والبطيخ والقوارير المهشمة على البوليس والحافلات ٠ لقد ضحى بشاشيته الشهباء فرماها لعلها تلطم بوليسا او تمس شقة من جدار مسكن البكوش ٠ وكان يردد بكل جوارحه :

حمى يا حمى ،٠٠٠ يسقط استعمار ٠٠٠ يحيا بورقيبة ، يحيا بورقيبة ،

الاستقلال ٠٠٠ الاستقلال

فاذا جهل النشيد وغاب عنه صاح :

يا ببح ويا ببح ، ٠٠٠ الشربة وحده وحده

فكان يتصيد المظاهرات فى كل مكان من المدينة يدركها تارة وتفوته اخرى٠ فعدا ونادى وغنى وصاح حتى كاد يجن من الصياح ٠ لقد ربط فرحته ونشوته بتلك المظاهرات التى كانت تسعده رغم الدماء التى تسيل والموت الذى يحوم٠ فكان يهرب منه كما كان يهرب البوهالى فى لعب الكرة ٠

وبغتة غابت المظاهرات واضمحلت بالسرعة التى كانت تنفجر بها كأنها اختفت فى ثقبة ٠

فسمع طرننو الناس يرددون فى شوارع المدينة ان الشعب التونسى قد نال الاستقلال وان فرنسا خرجت من البلاد وعاد الزعماء ٠ فطار طرننو لهم لكنه عاد بعد ايام الى تربة الباى آملا رجوع الاصدقاء اليها وجمع الشمل بها٠ لكن انتظاره طال ولم يظهر احد حتى الفحام ٠ لقد انتهى كل شىء ، الكرة والاحباب وحتى المظاهرات والبوليس ففارق المكان بدوره وتسلح بقفة كبيرة ثم وقف امام السوق المركزية يترقب زبونا مثقلا يحمل متاعه ٠

محمد رشاد الحمزاوى

نخلة المجنون

قصة ـ بقلم : محمد فرج الشاذلي

لا يعلم* احد بالضبط متى نبتت هذه النخلة ولاكيف نشأت غريبة في هذه الربوة؛ فالنخل بهذه الارض نادر قليل والنادر القليل منه عقيم غير ذي طلح وهو في وجوده هذا كانما يشكو العقم والغربة ويحن الى «الحمل» ولا يجد السبيل وكانما هو لا يعدو ان يكون صورة... ولنخلتنا هذه السامقة العقيم، اخبار مشهورة وقصة بين الناس، وذلك منذ ان التجا اليها «عبد الحق» واصابه الجنون عندها

قال «ابو المدارك» وكان صديقا «لعبد الحق» : «هي قصة ما ذكرتها الا احسست برعشة المقرور واجهدت الى النسيان ووجدتنى كانما امزق السجف وانظر الى الغيب، فانا الى الحنان والرأفة ...

... لقد كان صديقي «عبد الحق» جميل المعاشرة، رقيق الاحساس، حلو الحديث وكان يعيش مع الناس : فمعهم يعمل واليهم يتوق... وكان كانما يحمل اثقالهم ويسع آمالهم ويقول : نحن الى الخلق والابداع وبعث القيم ويقول هي الطريق، تتسع وتمتد وتترامى ولا تنتهي وانه للسير المضني والجهد ! .. وكان كلما لمس اعوجاجا او راى زيغا من القوم وحيرة، عمد الى النصح وشرح المبهم وتسلل الى النفوس برفق، يقوّم منادها ويكسر اغلالها ويدفع عنها الظلمة والياس ويبعث فيها النور ومعسول الامل ويستحثها على السير والاقدام ويقول : حتام التواكل والانكسار وحتام تفرون فرار الجبان وتخادعون، فتُخدعون ؟ ويقول: اين السواعد والايدي فتمسك بعجلة الزمان وتنطلق احد من السهم، فلا ياخذها الدوار ؟ وكان يقول كلاما غير ذلك كثيرا وكان ذلك شانه ودأبه ...

(*) انظر الفكر السنة 1 ـ العدد 7 ـ ص 24 ٠

قال ابو المدارك : « وافتقدنا صاحبنا يوما، وكنا خمسة من الاوفياء الخلص نجتمع اليه، ففتشنا عنه فلم نجده وكانت به بقايا حنين — من عهد الصبا — الى التامل والانفراد... وانتظرنا به يومين كاملين وطال انتظارنا ونفد الصبر، والحيلة، فقمنا الى الااليف من اماكنه فلم نعثر عليه وسالنا والحفنا، فما اجدى السؤال بنا والالحاف وكنا نجد لافتقاده فراغا في نفوسنا كالخلاء وسقيم الشك وكنا نقول : كيف يقوى على البعد والهجر ويضمر لنا الفراق والبين ؟ انه إذن لكفور !

وضربنا في الارض يوما وقد احتدمت الهاجرة واشتد القيظ فكانما الى جهنم مسيرنا ومسنا اللغوب والعطش وكاد الياس يتسرب الينا لولا ان قال احدنا : « بقاؤنا بعده كعجز اليائس نموت او نعثر عليه وسرنا صدر يومنا وليس منا الا عرق يسيل وغبار ولهاث الكلاب ونحن من عطشنا نتمنى ان لو تجمع العرق فشربناه واننا لعلى بعض الطريق اذ بصرنا برجل كمشار النقع يمشي، فقفوناه ساعة حتى اذا لحقنا به واحس بنا قال : فيم سيركم ؟ فقلنا نبغي صديقا قد ضل، فما اجدى التفتيش ولا اغنى الطلب وقد انقطعت بنا الطريق، فنحن على وجوهنا ولا ندري المصير ! فاوما الرجل بيده وقال : صاحبكم اشعث، اغبر، طريح، يتلظى الى جذع نخلة وهو الى الموت اقرب فوقع كلامه في نفوسنا كشديد النار، فملنا الى النخلة وكانت تبدو من بعيد وكان منبتها السماء فما اشرفنا الا وقد هدنا الاعياء فصبرنا وقلنا : « نحن قاب قوسين او ادنى » ... فلما انتهينا اذا « عبد الحق » كخلق الثياب مرمى واذا به بقايا نفس كذبالة سراج واذا عنده ماء وفاس! فتعجبنا وخاطبناه فما رد الكلام، فشفقنا عليه واخذتنا الرافة وارسلنا الدمعة، ثم اذا هو قد تحامل على نفسه فاستوى على رجليه وحد جنا بنظرة من عين قد غارت فكانما كان ينظر من وراء الكون ! وتقدم من الفاس فاخذه فتجمعنا للوثوب فقهقه وقال : الا تستحون ؟ فنزلت كلماته فينا كوخز الضمير وقلنا ننتظر ما هو فاعل ! فطفق يحفر الارض ويحثو التراب ويقول : سترون المعجزة ! حتى اذا ما تهيات له حفرة أخذ صلصالا فعجنه ولينه وليق به الحفرة ثم ملأها ماء ونحن اليه ننظر ولم يسكن روعنا ثم قام الى خشبة فرمى بها في الماء ورمى بخاتم كان باصبعه وصاح : هلم انظروا الى الذهب قد غاص والى الخشب يطفو على الماء ! فقلنا صاحبنا قد جن ثم قلنا اننا لم نفهم عنك يا « عبد الحق ».

قال « ابو المدارك » : فشخص عبد الحق ببصره الينا والعرق منه ينضح ثم جعل يدور حول الحوض كانما يمشي على ايقاع ويحرك الخشبة ويقول : كذا انتم يا بني الانسان لا يطفو الا الخفيف، الخفيف، منكم، اما من ثقلت موازينه ففي الاعماق، تلك سنة الكون يا بني الانسان ! فمتى تقلبون الاوضاع وتعيدون الخلق ! ثم صاح بنا صيحة شدتنا الى الارض شدا وما منا من يجرؤ عليه ثم حملق وقال:

يا اخدع من سراب
يا احقر من ذباب
يا اطمع من ذئاب
يا انهش من كلاب
يابني الانسان ...

تتهافتون على المناصب كالذباب على النتن. وتعشقون الالقاب وتعبدون « الطواويس »، وتمتطون ظهور العباد لغاياتكم، وتهوون الزائف من الامور، وتقبلون على القشور، وليس منكم الا شاهد زور، او ساذج مغرور، او فاجر كفور، او فاسق في ثوب راهب ! الا مزقوا السجف، واهتكوا الاستار، وازيحوا الاثقال عنكم، ثم انفذوا بالبصر والبصائر الى الاعماق... الى الجوهر...

وانظروا الى نفس عارية كيوم الحساب، بعين الحق ! فالام الرياء، والخداع، وحتام النفاق والسير الى الهاوية يا بني الانسان !

اني لاراكم تمشون على رؤوسكم، فكانما الارض شظايا زجاج، وكانما هي كلما ادمتكم ازددتم لها جريا كالحمار به دمل تراه يجري فتحسبه سليما، وفي جلده الصديد، والنتن !

ذباب يطن
وصوت يرن
وكون عفن
وطرف رنا
لدور الخنا
كذا انتم يا بني الانسان

قال « ابو المدارك » واخذته رعشة، وما منا الا وجل، محتار، ثم صرع صرعة حسبناها الاخيرة، واخذ يئن انين الراز ح تحت الاثقال،

فكانه كان من الابعاد يسمع ! فقمنا فنضحنا وجهه مـاء، وظننا انه الموت، ولكنه فتح عينيه كالميت يبعث، واطال النظر الينا، فزادت دموعنا، فقال : حتى دموعكم هذه، ضعف الجبان ! يا بني الانسان ! فقلنا : هو السباب قد عاد إليه، او الحمى تعاوده !

وتحامل على نفسه ثانية، وجعل يحرك الخشبة، ويردد : هي الخشبة تطفو، وكذا انتم يا بني الانسان لا يطفو في الحياة الا الخفيف الخفيف منكم ! ... ثم رفع يديه، وشخص ببصره الى السماء، كمن يتلقى وحيا يوحى، وصاح :

مدارسكم خلاء
واعمالكم رياء
وظاهركم طلاء
واقوالكم هباء
يا بني الانسان ...

تعلمون الصدق وتكذبون، وتدعون الايمان وانتم كافرون، وتظهرون ما لا تضمرون ! ألم يئن ان يتحد الظاهر بالباطن، ويخلص القول للعمل ام انتم لا تفقهون !

قال « ابو المدارك » : واشتد الجنون « بعبد الحق » وطفا عليه، فجعل يصفق بيديه، ويهز كتفيه في شبه رقصة ويقول : كذا كتابكم ! انهم كالراقصات، لا يكتبون الا على دقات الطبول والمزامير !

وكالراقصات، ينتظرون جميل الشكر، ومعسول الاطراء !
وكالراقصات، يتغزلون بانتاجهم !
وكالراقصات، ينافقون !
« افلا ترون كيف يفرون من الآفة وهم اليها سائرون !
« افلا ترون كيف يضحكون ولا يبكون ؟ ام انتم لا تبصرون ؟

ثم رفع صوته فقـــال :

« الا اين نـار بهـا تتطهـــرون ؟

« واين صيحة بهـا تبعثـــون ؟

« واين فاس بهـا تهـدمـــون.. فتَتَبَنُّـــون !

« واين اجنحة بهـا تحلقـــون !

« يـا بني الانســـان ...

* * *

قال « ابو المـدارك » وهوى صاحبنا بين ايدينا، وقد خارت قـــواه، فكان الارض بنا ارتجت، وزلـزلت منا القلـــوب !

ثم قـال : تلك قصة نخلة المجنون، وذاك سبب انتسابهـا ...

اما « عبد الحق » فمـا زال - من يومهـا - بمستشفى المجاذيب، وما زال يهـذي كمـا كـــان ...

محمد فرج الشاذلي

عبـــــــــث

قصة ـ بقلم : الحبيب ابراهم

قال لها الطبيب بأن مخاضها قريب *

قال لها ان المسألة مسالة أيام قلائل، فعادت الى "الادارة" تحمل الى زميلاتها الراقنات بشرى الحدث السعيد.

قالت لهن كلمات كلها أسرار : « سألزم منزلي ابتداء من الغد شهرا ونصفا ».

واتجهت صوبها عيون ثمان محدقة فيها من جديد. واستقرت النظرات فيها استقرارها على كائن غريب. وامتلات العيون بغير ما كانت مشحونة به كل صباح ومساء.

وبدت "مريم" اليوم غير مريم الامس. من وجهها يتدفق نور جديد. بسماتها الرقيقة تبعث راحة في النفس وامنا. في نظراتها ثقة وعزة وكبريـــاء.

مريم الامس لم تكن الا زميلة. لم تكن الا فتاة مثلهن. لم تكن الا طفلة كبيرة. لم تكن الا كلمة ... كلمة.

حقا انها متزوجة. ولقد حضرن حفلات زواجهـا. نعم. انها متزوجة. لكن مريم العزبـاء لم يقتلها الزواج. لقد بقيت هي هي. بقيت زميلة. زميلة وكفى ـ بقيت طفلة كبيرة. بقيت فرعـا طريا.

(*) انظر الفكر السنة 9 ـ ص 230 .

لقد أضيفت الى الكلمة كلمة أخرى. لكنها بقيت. بقيت اسما . بقيت كمريم العزباء تماما.

أما اليوم

فكل شيء فيها قد تبدل .

ستموت اليوم مريم الامس. سيموت الامس كله. سيتحرك فيصبح الفرع أصلا ويصبح الاسم فعلا.

مريم دشنتها الخليقة. ابواب البقاء مفتوحة أمامها. ستقوم برسالة الانوثة. ستعيد الامانة الى أمها. مشيئة الله فيها تتحقق ستكون جديرة بأن تكـــون.

ألم يعلن لها الطبيب في همس السحرة أن مخاضها قريب ؟

بكل هذا تحدثت العيون. وارتفعت الى السماء دعوات صامتة بأن يتحقق فيهن ما تحقق في مريم.

وامتدت الى يد المحظوظة يد أخرى، يد زميلة أخرى، يد " فردوس الام ...

لقد هزها الحدث هزا. أختها الصغيرة ترتفع الى عرشها الباسق. فمدت لها يدها مليئة بالفخر والاعتــزاز.

ثم حان وقت الخروج. وسارت مريم صوب الباب وئيدة الخطى تتهادى – وافسحت لها زميلاتها الطريق. وهمست احداهن :

مريم هذه لن تعود ! »

وتساءلت أخرى :

مريم الام كيف ستكـــون ؟ »

وتنهدت ثالثـــة :

ستولد من جديد. هنيئا لها ! »

.

واحتضنتها أمام الباب ذراع زوجها.

لم يعد يطيق فراقها منذ أن علم الخبر. لقد كانت زوجته فقط.كانت. كائنا آخر يشاركه العيش الاجدب ويعينه على رفع أثقال العصور

لكنها اليوم تقاسمه الكون الرحيب. كانت نصف دنياه المحدودة فاصبحت نصف الدنيا بإطلاق. كانت امرأة تحمل اسمه لاعوام قد تطول وقد تقصر. لكنها اليوم تكتب اسمه على أفق الخلود.

كيف يفارقها لحظة ودين الرجولة بين جنبيها ؟

كيف لا يحرسها وفيها مفتاح بقائه وبقائها ؟

كيف لا يعبدها وهي التي بها سيقهر الموت ويصفع الفناء ويسخر من مرور السنين ؟

قال لها :

سيكون ولدا، سأنفق عليه من تجارب دهري بلا حساب. سأدخله المدرسة كي يجول فيها جولات الغلبة والانتصار. سأشد ازره حتى يستقيم عوده. لاجعلن منه طودا عملاقا لا يشق له غبار. لا جعلن منه بطلا رحيما افتخر به فيفتخر الكون بما صنعت ! »

وقالت :

سيكون بنتا. سأرضعها الاغراء ثم ادخلها المدرسة كي تتعلم فيها اصطياد الحياة. لاجعلن منها زهرة فواحة تهز الصدور. سأكون من ورائها كي تمزق الفخاخ. لاجعلن منها ملاك الجمال والرحمة والبر. لاجعلن منها ربة في كل مكان. لابعثن فيها حواء حية تسعى! »

واستمر كلاهما يسبق الايام. تحققت الاحلام كلها دفعة واحدة فضاق لها الصدران. وكيف لا تضيق الصدور بروعة الجمال ان رسمه الامل على جبين الحق.

⁂

وجاء اليوم الموعود

وغصت قاعة الانتظار بمستشفى التوليد. وساد سكون وجال. وما هو في الحقيقة الا مخاض يقابل مخاضا ينتظر الجمع ختامه.

في كل نفس منهم مخاض. لصراخ المرأة فيهم صدى وامتداد.

وانزوى الزوج في ركن قصي. وانتصب على كرسيه كالصنم السكران. لو كانت أمامه مرآة لهاله ما يرى. لقد تشابكت اصابعه وارتعشت حتى لتخالها كائنات فظة منفصلة عنه.

واستوى ظهره حتى تحسبه محنطـا. واصفر وجهه وتجعد حتى تحسبه من خشب قديم. لكل صرخة في كيانه رجـات. لكأنه غدير يلهو على جوانبه الصبيان برمي الحصى.

وبدأ همس العجائز المجتمعات في ركن مقابل. وتسابقت الحناجر حتى تحول الهمس الى ضوضاء.

لكن الزوج لم يكن يسمع شيئا. لقد كان مشغولا بدقات قلبه يخيل إليه أن ما يحيط به صدى أبواق وان الدقات تثقب أذنيه. لولا هذه الدقات التي تدكه دكا فتعصر أحشاءه وتمتص دمه لانفجر صارخا في تلك الوجـوه :

دعوها ! دعوها ! ألا تسمعون ؟ لكم أن تأكلوا لحم اخوانكم ! لن أسمح لكم بتمزيق طفلي أو بتعذيب أمه ! حرام أن تعذبوه وتعذبوها ! أبي ! قل لهم هذا ! إني وحيدك ! انك تنتظره كما انتظره ! قل لهم ! »

توالت الدقائق والساعـات

واستقر نظر الزوج على عقارب ساعته. إنها عقارب رهيبة ما تنفك تكبر وتكبر حتى ليخيل إليه انها تشق عينيه وتغوص في دماغه المتعب.

وارتسمت على معصمه صورة راقصة. وبانت خطوطها وردية كالشفق. رأى صبيا عاريا متعلقا باحدى العقارب. وكبر الصبي فاصبح شابا وكبرت العقرب فأصبحت سيفا ثم رأى الشاب يرفع سيفه كي يهوى به على اعنـاق الشرثارين.

وفجأة

جمد السيف معلقـا في الفضاء

وفتح باب داخلي دخلت منه ممرضة تمضغ "اللبان" اعلنت بصوت يشبه الصرير :

الرجاء إلتزام الهدوء ! لقد ولد الطفل ميتا ! »

الحبيب ابراهم

نماذج من الشعر



ذكرى الاستقلال

شعر : مصطفى خريف

عيدك الميمون ياخضراء اخضر* ذو هلال خافق الاشعاع أحمر
رفرفت راياته من شفق أودم. أو لهب قان مسعر
رابضا في ظلها يحمي الحمى من بني افريقيا الجيش المظفر

* * *

عيدك الميمون سعد ورخا وبشارات حسان لا تقدر
عيدك الميمون ذكرى أمة بعد موت ترفع الرأس وتنشر
دب كالنشوة في الاوصال من خمرة الفردوس. نبعا يتفجر
عيدك الميمون ميلاد فتى أغيد الجيد أغر الوجه أحور
أهيف الطلعة مفتول القوى شامخ الرأس أشم الانف أزهر
جاءنا اثر كفاح فائزا بالمنى. نشوان بالنصر المؤزر
عيدك الميمون روض معشب طيب النفح جني الطلع مثمر....

* * *

....يا بلادي، يابلادي. حدثي عن بطولات لمدى الايام تذكر
واكتبي في جبهة الشمس لنا قصة تروى وتاريخا يسطر
وانشريها صحفا براقة من مداد العز والفخر تحبر
عن اباء الضيم عن عشق العلى عن هوى الحرية الحمراء يؤثر
عن جهاد دموي باسل ضربت امثاله في كل معشر

(*) انظر الفكر السنة 2 ـ ص 509 .

سار في الناس حديثا شائعا ... يبعث الروعة في من يتدبر
عن رجال ملؤوا الدنيا بما ... لم يسجل في كتاب منذ اعصر
أنفوا الذلة في اوطانهم ... ففدوها بالدم الغالي المطهر
صمدوا للبغي فانـدك بهم ... كهشيم بدد تذروه صرصر
يا دم الاحرار. قدست دما ! ... ولك الرضوان والذكر المعطر !

* * *

يا بلادي يا بلادي خبري ... عن بطولات مدى الايام تذكر
وانشري في الجيل علما طارفا ... هو للكون وللانسان مفخر
سيرة فتحا تراثا خالدا ... لكنوز الحق. للانصاف مصدر
مذهبا جزلا لمن يدرسه ... وطريقا في السياسات مقرر
رشحت آياته عن منهج ... خطه للامام الرأس المفكر
الحبيب العبقري الكامل الـ ... ـماجد الشهم الزكي المتخير
طاف في الهامه وحي السمآ ... قائلا : يا ابن المعالي. قم فأنذر !
يا ابن ام المجد هذي امم ... هدها ظلم وجور وتجبر
رصد الغاصب منها هدفا ... ورأى فيها ارتجاعا وتأخر
عاث فيها جائعا فاستسلمت ... فهي في مخلبه لحم مجزر
لج في طغواه محموما بها ... نهما يمتصها غصبا ويعصر
ويحه ! كم صال فيها عابثا ... بالكرامات وبالاحرار يغدر !
هذه البيضاء تشكو بغيه ... وهي جرح من دم المغرب يقطر
كيف يحلو عيش من في صدره ... كبد حرى وقلب يتفطر
كيف يحلو عيش من في صدره ... كبد حرى وقلب يتفطر
كلما مر بذكرى طيفها ... هاج في الحس شجونا لا تعبر
وبدا كل مذاق عندها ... ذا مرارات. بلا طعم. مكدر
جاش ما بين ضلوعي جاحم ... كلهيب الاطلس الآشب يزفر
كليوث فيه كانوا للعدى ... نقمة نارا. واعصارا مدمر
من بني مازيغ او من يعرب ... عرفوا النخوة من عهد مبكر
بدمي أفديهم من فتية ... في بناء المجد كانوا خير عنصر !

* * *

يا بلادي مرحبا مرحى. فذا ... عهدك الزاهر. والمقبل أزهر
فاعبري الشوط وفوزي واسلمي ... وخذي من دهرك الحظ الموفر

مصطفى خريف

أنا والشقيق



شعر : **احمد اللغماني**

تفضل فخامة الرئيس ـ اثناء رحلته بتركيا ـ فامتعنا بحديث عن تنكر بعض اخواننا العرب لطريقة كفاحه فى قضية فلسطين ٠

وهذه الابيات اوحاها لى حديثه الممتع(*)٠

يبقى الشقيق لى الشقيق فوده ... باق ، ولو غالى وأسرف صده
لروابط الارحام أرفع أمره ... ولرشده ، ان كان يرجى رشده
ماذا أقول ؟ فانه منى ، ولى ... سبب اليه يشدنى ويشده
تبعاته تلقى على ، وعاره ... يندى له وجهى ، ومجدى مجده
ولكم شكوت من الاحبة ظلمهم ... وامر ظلم ظلمهم واشده
احسانهم دين على أرده ... متضاعفا ، والشر كيف أرده ؟
أ أخون أهلى ؟ هل اشتت شملهم ؟ ... أ أدك ما عليته وأهده ؟
حاشا ! أتسمح لى بذلك ذمتى ... والحر تعصمه الذمام وعهده ٠
يبقى الشقيق لى الشقيق فانه ... عضدى ، وانى ساعداه وزنده
اتخير الاحباب ، انقد طبعهم ... وأخى ! ايمكن فرزه او نقده ؟
ولربما فككت عقد صداقتى ... وربـاط أهلى لا يفكك عقده
فهم هم عندى ، ولست بمنكر ... أحدا ٠ أروم ودادهم وأوده ٠
أنا لا أجارى فى الهوى متجبرا ... مهما تشامخ او تصعر خده
أو زائفا لبس المحبة برقعا ... وأنا العليم بما يخبى برده
أو أخرقا ملأ الفراغ دماغه ... ضعفت مداركه وقصر جهده

(*) انظر الفكر السنة 10 ـ ص 702

متأرجحا بين التعقل والهوى   لم يتضح بين المقاصد قصده
متذبذبا لم يستقر فجزره   لهوى الظنون ، ولتنطع مده
فاذا تجنى ، او تطاول وآدعى   وسعى لكيد كان وهما كيده
يبقى أخي : أدناه منى قربه   وصفاه ، أم اقصاه عنى بعده
ولعل ـ يوما ـ حين يبلغ رشده   ويجد فى ضم الشتائت جده
يدرى بأنى كهفه وملاذه   وبأن سعدى مبتغاه وسعده
ربى اهده ! فاخى الصغير مضلل   ومدلل ، ما زال غضا جلده
هذا الكلام سمعته فأذعته   ولكم أذيع على المسامع ضده
لابلغن عظاته لسلائلى   بعدى ، ليحفظه الحفيد وجده
قول قد انبثقت اشعة نوره   من نور عقل لا يحجب وقده
خلصت من الاهواء كل حروفه   العقل منهجه القويم وبنده
ما اعتاد قومى مثله فكلامهم   مهر شموس لاعقال يصده
ان اللسان ـ ولا عظام تشده ـ   أنكى عدو للفتى وألده
فاذا تحرك فى اللهاة فربما   قدح الشرارة فى البيادر زنده
هذا اللسان المستبد بأهله   أولى بقومى قطعه او قيده

* * *

انى لارثى للذى اراكه   لهوى العواطف والظنون مرده
الزور والبهتان كل سلاحه   فلمن ترى هذا السلاح يعده ؟
ألمن بنى بجهاده وعناده   مجدا ، فغطى كل مجد مجده ؟
ألمن يصون العقل من فتن الهوى   فيبين منهجه ويظهر حده
ألتونس فى رمزها وحبيبها   هذا السلاح الفوضوى وحشده ؟
الانه خط الطريق وسنها   لخلاص شعب قد تفاقم نكده
فاتى فلسطين الحريجة آسيا   يجتث مبضعه الأسى ويقده
وينبه الافكار من أحلامها   فاذا المدى قفر ترامى بعده
واذا « بعودتنا » تعلة واهم   واذا بواعدنا يكذب وعده
واذا « بأفيون » التمنى ينجلى   عن واقع يفرى الحشاشة حده
ان العليل اذا احس بدائه   فهو الشفاء وان تمادى فقده
ولقد اعدت الى العروبة حسها   يا من يعيد المستبى ويرده
فتنفضت ، والطفل ان عالجته   يحتد من ألم ويرعد رعده

احمد اللغمانى
اسطنبول 65/3/28



أنا الانسان

شعر : أحمد المختار الوزير

أنا الانسانُ، لمْ يَخمدْ* بِقلبي، جاحِمُ اللَّهَبِ
وَصَلتُ مِتانَ أسبابي بِمُبتَعدٍ وَمُقتَربِ
فما كَونٌ، مِن الاكوانِ، عَزّ مَداهُ عنْ طَلَبي
قَهرْتُ، بِما بَنَتْ كَفّي، عُتِيَّ اللُّجِ، والهِضَبِ
وَحلّقَ، بي، جَناحي فوقَ عَليا الانجُمِ الشهُبِ
وَضاء بمشعلي الزاهي، ظلامُ حَوالِكِ الحُجُبِ

* * *

سأجهدُ – لايني جهدي لابلغَ منتهى الرغَبِ
فأطفيءُ جذوةَ الحقدِ، وأحطم باتِرَ القُضُبِ
وأحفظُ، من أخي، دَمَهُ، بِحُبّي الدائمِ الحَدِبِ

احمد المختار الوزير

64/10/21

(*) انظر الفكر السنة 10 – ص 12 .



نداء الارض

شعر : محمد العروسي المطوي

« ... وتنفست قمم الاطلس من أقصى شماله الشرقي الى اقصى غربه الجنوبي، تنفست عن ندائها الخالد، فاهتزت جنبات المغرب العربي. وكانت التلبية ... »

أرْضِي أنَــا، *
منْهَــا أتَيْتُ إلى الـوُجُـودْ
وَعَلى ثَراها أيْنَعَتْ زَهَراتُ أجْدادِي الكرام
أفَــلاَ أقُــوم بـِردِّهَــا ؟ !
أفَــلاَ أجدِّدُ مَجْـدَهَــا ؟ !
إنِّـي لَهَــا،
مهْمَا ادّعَاهَــا الغاصِبُـونْ
وَتَطَــاوَلَتْ بهِمُ السِّنُـونْ.
إنِّي لَهَــا،
مَهْمَــا قَسَتْ أحْكَــامُهُـمْ
وَتَنَكَّرَتْ أفْعَــالُهُـمْ
سَأُعِيدُ أرْضِي منهُـمُ »
وَأثِيرُهَــا حَـرْبا عَــوَانْ ،
لاَ أرْهَبُ الظُّلْـمَ الغشُـومْ
لاَ أرْعَــوِى ...
مَا دمتُ أنْبُـسُ بالحَيَــاةْ

(*) انظر الفكر السنة 1 ـ العدد 6 ـ ص 12 .

أرْضي أنـــا.
سأُعيدُ أرْضي منْهُمُ
مَهْمَا تَكُنْ تلْكَ «الرسُومْ»
تلْكَ التي كُتبَتْ بدَمْ،
وَدُمُوع أبْنَاء الوَطَنْ
مَنْ أطْرِدُوا ظُلْماً وَغَصْبَا
حتَّى «يفُوزَ» الظالمُونْ
بالارْض، بالحَقْل الخَصيبْ
بالمَنْجمِ الثرِّ الغَنيِ
بالمالِ، بالعَيْشِ «الهَني» ؟

* * *

ارضي أنـا
سأعيدُ أرْضي منْهُمْ.
وأذُودُ عَنْهَا الغَاصبينْ
مَهْمَا تَكُنْ أجنَاسُهُمْ،
فَالكُلُّ عنْدي غَاصبُونْ
فَلأحْرُسَنَّ جَبَلا لَهَا
في كُل آفَاق الدّنَا
وَلأوفيَنَّ بعهْدهَا
مَهْمَا قَسَا الزمَنُ العتي.
مَهْمَا قَسَا... سأعيدُهَا
سأعيدُ أرْضي منْهُمْ
مَهْمَا قَسَتْ أحكَامُهُمْ
مَهْمَا تَكُنْ تلْكَ «الرسُومْ»
مَهْمَا تَكُنْ طُرُقُ الفدَا
سأعيدُهَا.
سأعيدُ أرْضي منْهُمُ
أرْضي أنـا ...

محمد العروسى المطوى

الى هزار الصغيرة



شعر : عبد المجيد بنجدو

هَـزَارُ(*)يَا نَغْمَـةً رَنَّتْ عَلَى وَتَـرِي
وَصَاغَتِ اللَّحْنَ وَالالْـوَانَ فِي صُـوَرِي
هَـزَارُ أُغْنِيـةٌ مَا انْفَكَّ يُنْشِدُهَـا
قَلْبِي وَيَرْسُمُهَـا فِي مُهْجَتِي نَظَـرِي
هَـزَارُ يَا كَرْمَـةً مَازِلْتُ أَعْصِرُهَـا
خَمْـرًا فَتَقْضِي عَلَى المَعْمُودِ بِالسَّهَرِ
يَا بَسْمَـةً حَدَّثَتْ بِالفَجْرِ فِي فَمِهَـا
وَفِي ثَنَايَـاكِ تَبْدُو بَسْمَـةُ القَـدَرِ
غَنَّيْتُهَـا فِي فَمِـي لحنا وَفِي فِكَـرِي
مَعْنَى يَصُوغُ المُنَى فِي رِحْلَـةِ العُمُـرِ
مَعْنَى كَـإطْـرَاقَـةِ العُشَّاقِ تَقْـرَؤُهُ
إِنْ كُنْتَ قَارِئَـهُ فِي الجَدْوَلِ النَّضِـرِ

(*) انظر الفكر السنة 10 ـ ص 12 .

هَزَارُ يَا مَرْكَبَ الاحْلاَمِ سَابِحَةً
بِهَا نُجُومُ الدَّجَى فِي مَوْكِبِ القَمَرِ

فِي قَارِبٍ لمْ يَزَلْ بِاللَّيْلِ مَرْفَأهُ
فِي سُمْرَةِ الظِّلِّ فِي النِّسْرِينِ وَالزَّهَرِ

هَزَارُ يَازَهْرَةَ مَازِلْتُ أنْشُقُهَا
وَيَاضَمِيرَ الهَوَى فِي خَاطِرِ الضَّجَرِ

هَزَارُ يَادُمْيَةَ مَازِلْتُ انحَتُهَا
مِنْ خَاطِرِ الوَحْيِ لا مِنْ خَاطِرِ الحَجَرِ

حَوَّاءُ فِي قَلْبِهَا لما تَزَلْ حُلُما
وَثَوْرَةَ دَمُهَا فِي العِرْقِ لَم يَثُرِ

هَزَارُ قَلْبُ مَلاكٍ كَالصَّبَاحِ سَنِى
وَطَائِرٍ حَالِمٍ فِي العُشِّ لمْ يَطِرِ

عبد المجيد بنجدو



كوكب السلام

شعر : محسن بنحميدة

يا كوكبا خلقتك أفكار الرجال*
للسلم لا للحرب... للامل العظيم
لسعادة البشر الذين عليهم غضب الالاه
يا كوكبا بعثتك انوار العقول
لتفوز بالمكتوم من سر الوجود
ستمر من حول الكواكب والشموس
فاذا مررت قرابة البدر الجميل
خبرني عن احواله ... اني احن الى البدور
وابلغني منه رسالة تحيي النفوس
تحيي الرميم
اني مللت صراع اهل الارض من اجل الظهور
اني مللت حياتهم وسط الحماقة والصغار.
والانتحار...
والانتحار سبيل من زلت بهم قدم الحياه
يا كوكبا... ها قد مررت على القمر
ونأيت عنه... نأيت عنه الى الابد

(*) انظر الفكر السنة 4 ـ ص 723 .

جذبتك اجواء أخَرْ
والآن تسبح راقصا في العالمين ...
ستدور حول الشمس آلاف السنين
كبغالنا حول الطواحين الصغيرة
يَرْحَلُونَ من امل الرجال منى كبيره
أو يُسْعِدُونَ ...
وتعود من بعد التنكر للعدد ...
وتعود حتما اذ يعاودك الحنين
فتُخبِّرُ القوْم اليقين
أو لا تُخبِّرُهم بِشي
يا كوكبا قل لي لماذا أنت فضلت السكوت
ان انطلاقك في الفضاء رجا الشعوب
يا كوكبا أفْضِ إلي
بالسر... بالسر الرهيب ...
قد اخرستك يد الفضاء
أم أنت تكتمني الخبر
هل أن ما شاهدته أمر مريع
أم فيه تحرير البشر
ياكوكبا... ماذا الخبر...
ستعود حتما إذ يعاودك الحنين
من بعد آلاف السنين
فنخبر القوم اليقين
أولا تخبرهم بشي

محسن بنحميدة

قلبى



يمثل هذا القصيد مرحلة حاسمة من تجربتى الفنية مرت وانتهت وأنشره اليوم استجابة لرغبة عدد من اصدقائى كانوا قد أحبوا هذا القصيد . ع ـ ق

شعر : عبد العزيز قاسم

عَبْرَ*عَيْنَيْكِ كُنْتُ ألقَى شعَاعا   يُلْهِمُ الرَّدَّ قَبْلَ عَرْضِ السؤَال
وَصَدَى مِنْ كآبتِي وَأنَا لَمْ   أتأوّه وَمَا شَكَوْتُكِ حَالِي

***

فَإذَا بِي مَعَ الزّمَانِ شَرِيد   يَا لِقَلْبِي مِنْ ضَائِعٍ وَغَرِيبِ
جَفّتِ الكأس قَبْلَمَا أحْتَسِيها   وَأنَا من جفَافِهَا فِي لهِيبِ

***

وَشَبَابِي لوْ يَعْلمُ الفَجْرُ يَوْمَا   كَانَ فَجْرا لهُ عَبِير وَنُضْرَهْ
طَبَعَتْ مِسْحَةُ الغُرُوبِ عليْهِ   بَسْمَةَ عَانَقَتْ شِفاهِيَ مُرّهْ

***

أنَا أطْبَقْتُ مُقْلتَيّ عَلَى طَيْـــفٍ مِنَ الحُلْمِ وَالخيَالِ البَعِيد
أيْقِظِينِي مَعَ الصَّبَاح إذَا الافْـــقُ تَلالا فَوْقَ الرّبَى مِنْ جَدِيد

***

وَصَحا الصُّبْحُ وَالتَفَتّ حيَالِي   فَسَرَى البَرْدُ فِي الحَنَايَا وَشَاعَا
حَثّكِ الفَجْرُ لِلرّحِيلِ سَرِيعا   فَوَدَاعا يَا مَنْ نَسِيتِ الوَدَاعَا

***

(*) انظر الفكر السنة 10 ـ ص 915 .

ضَرَبَتْ بَيْنَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي لسْتُ أدْرِي مَا لِلَّيَالِي وَمَالِي
وَالامَانِي التي حَوَاهَا خَيَالِي قَدْ تَلاشَتْ فِيمَا وَرَاء الخيَال

**

صَبَوَات طَوَى الزّمَانُ رُؤَاهَا فَإذَا هِيَ أسْطُورَة وَسَرَابُ
وَإذَا الحُبّ لمْ يَعُدْ غَيْرَ ذكرَى وَإذَا العُمْرُ حَيْرَة وَاغْتِرَابُ

**

فِي ضُلُوعِي كآبَة ضَعْضَعَتْنِي وَعَزَائِي فِي ذَاكَ فَقْدُ العَزَاء
كُلَّمَا حَاوَلَ الظُّهُورَ صَدَاهَا أخْفَتَتْهُ عَلَى المَدَى كِبْرِيائِي

**

مِلْءُ نَفْسِي سَآمَة وَمَلاَل جَعَلاَ مِنْ غَدِي شَبِيها بِامْسِي
وَبِقَلْبِي بَقِيَّة مِنْ غَرَامٍ لَيْتَنِي مَا وَهَبْتُهَا كُلَّ نَفْسِي

**

وَكَحُلْمٍ مُسَافِرٍ أعْبُرُ الافْقَ وَأطْوِيهِ سَابِحا يَتَرَامَى
كَمْ وَكَمْ جِئْتُ وَاحَة هَبَطَ اللّيْلُ عَلَيْهَا وَمَا ضَرَبْت الخيامَا

**

كَانَ حُبِّي عَوَاصِفا مِنْ لهِيبٍ وَحَيَاتِي ظَلّتْ غُمُوضا وَحَيْرَهْ
وَصَبَاحِي تَأمُّلا وَسُكُونا وَلَيَالِي سَكْرَة بَعْدَ سَكْرَه

**

أمَل مُذْ ثَكِلْتُهُ تَاهَ رَكْبِي وَغَدَا الحُبّ غُصّة في ضُلُوعِي
وَإذَا هَاجَنِي الحَنِينُ إليْهِ عَاكَسَتْ بَسْمَتِي صَبِيبَ دُمُوعِي

**

رِحْلَة فِي سَبِيلِهَا نَفَدَ العُمْرُ وَقَصْدِي مَا زَالَ صَعْبًا عَصِيًا
وَالذِي يَمْلا الهَوَى أصْغَرَيْهِ أتُرَاهُ يَعُودُ يَوْمًا خَلِيًا

***

سَائِر سَائِرٍ مَعَ الفَجْرِ دَوْمًا وَمَضَى الفَجْرُ فاعْتنقتْ الظَّلامَا
وَغَدًا رُبَّمَا أحُطّ رِحَالِي حِينَ أهْوِي على الضفَاف حُطاما

***

وَغَدًا عِنْدَمَا تَعُودِينَ لِهْفَى أيُقظِينِي بِقُبْلَةٍ مِنْ هُمُودِي
فَإذَا كُنْتُ بَارِدَ الجِسمِ مَيْتًا اطْمَئِنِّي وَآمِنِي بِخُلُودِي

***

وَضَعِي رَأسكِ الجَمِيلَ عَلَى صَدْرِي وَنَامِي مَدَى اللّيَالِي بِجَنْبِي
وَإذَا شِمْتِ فِي الغَوَارِبِ طَيْفًا يَتَهَادَى لا تَجْزَعِي فهْوَ قَلْبِي

عبد العزيز قاسم



الجبل الاخضر

شعر : نور الدين صمود

على(*) قمة الجبل الاخضر   هناك نهيم بفضل الربيع
فنعبث بالشجر المزهر   ونمضى مع الوهم حتى نضيع

* * *

هنالك نغزل احلامنا   ونسبق بالوهم ايامنا
ونمضي مع «الاوف» و «الميجنا»   ونبعث في الجو سرب المنى

* * *

هنا ينشر اللوز ازهاره   فتبدو كسرب فراش جميل
ويستقبل الافق اطياره   فتشدو وترقص حتى الاصيل

* * *

هناك سمعت الفراش الانيق   يوشوش برعمة ناعمه
يقول : «هنا سوف يبنى العتيق   قصورا من الوهم للحالمه»

* * *

سنبني على الورد اعشاشنا   ونغزل بالعطر هذا الفراش
ونقضى الحياة لدى وكرنا   وحارسنا غلة او فراش

* * *

وحين تفتح اكمامها   هنا نلتقى بين اوراقها
فتسبق الطير احلامها   وتشدو السماء باشواقها

* * *

ويغبطنا البلبل الصادح   وتورق ايامنا المزهره
ويمضى بنا الامل السارح   فنحلم في ليلة مقمره

نور الدين صمود

(*) انظر الفكر السنة 5 ـ ص 273 (سنة 1959) .



الجهاد المظفر

شعر : منور صمادح

الوداع (*)

ودعت بالامس اهلي ومضربنا الحبيب
والخيمة السوداء والزوج الوفية في نحيب
والربوة الحمراء والاحباب والحقل الخصيب
والشاة والمرعى واطفالي ودمعهم السكيب
يتساءلون : ابي علام تركتنا ؟ اولا تؤوب !؟
وتقدمت امي تتوسل بالامومة والحليب
ملهوفة التسآل في روع وفي شك مريب

نادى الوطن

فأجبتها : اماه لا تخشى فقد آتي غدا
فلقد دعت أم الجميع لخوض معركة الفدا
وأهاب بي صوت الضمير الى مقاومة العدا
من للحمى ؟ والظلم ينشر في جوانبه الردى
من للحمى ؟ والاجنبي يعيش فيه السيدا
وانا ابن منشئه ألاقي ذلة وتشردا
يكفي البكا ! وادعي الاله عسى يمد لنا اليدا

نتيجة اليأس

ورفعت رشاشي وفي اذني نداءات الخلود
والبطش والشرف الملطخ والتنكر للعهود
والفتك بالنسوان والاطفال في امن المهود

(*) انظر الفكر السنة 2 ـ ص 669 ٠

صور كريهات تقوى الياس فى عـزمى الشديد
فمضيت أوسع فى الخطى اطوى الفدافد والنجود
الموت فى كفى جوعـاً الى صرع الجنـود
واليأس من عدل المسيطر كان دافعى الاكيد٠٠٠

ثورة الشبـــاب

اليـوم ينطلق الشباب لنجـدة الشعب الحزين
ويحرر الوطـن المقـدس من قيـود المجـرمين
ويثور جبـارا يدمـدم فى وجـوه الغاصبيـن
حتام والاحرار فى عسف وفى ضنك مشين ؟
ما بيـن جـدران السجـون معذبيـن مغلليـن
لا بـد مـن تحـريرهـم من قبضـة المتآمريـن
مهمـا طغـوا سنؤلب الدنيـا على المستعمرين

الهـدنـة

وتـلاحـم الجيشان وافتقـد التسامـح والهـدى
وانبت حبـل للاخـوة بيننــا وتبـددا
حتى استبان الحق وانتفض الضميـر المفتـدى
واستيقظت باريس عن جـرس الاخـاء المفتدى
واتى الرئيس الى اتبـلاد ديمد تلسلم اليـدا
ودعـا العميـد الى التهـادن فاستجبنا للنـدا
فاذا السلام يشـع فجـرا هازمـا ليـل العـدا

من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر

فنـزلت من قمـم الجبـال وهامتى فى المشترى
اعتـز بالعـلم المخضـب بالنجيـع الاحمر
والشـوق يدفعنى الى الحقل الخصيب الاخضر
وحليلتى ، والام ، والطفل الصغير « الانور »
والخيمة السوداء ، والاغنـام ، والكلب الجرى
نشوان بالنصـر المحقـق بالجهـاد الاصغـر
ويحثنـى امـل الحيـاة الى الجهاد الاكبـر

عيد الاستقـلال

ووجـدتنى فى الارض نشوان الخطى اترنـم
والنور ، نـور النصـر يجتـاح الجبـاه ويلهم
وعلى يمينـى صاحبـى لمـا يـزل يتكلـم
فضممتـه اهنيـه بالعيـد الـذى يتبسـم
والشعـب يهتف كلـه عـاش الزعيم الاعظـم
من شـاد دولتنـا ويبنى مجـدنـا ويرمـم
يـا رب سددها خطى نحـو الجلا تتقـدم ٠٠٠

منور صمادح

الجرح المتجدد : فلسطين

شعر : علي عارف

كان(*)اللقاء بمخبر(1) في بطن أرض مستترْ (2)
نظرت إليه وعينها توحي بالاف الفكرْ
فيكاد يقرأ في نقاء العين أسرار القدر
جمعت إلى لالاء وجه مشرق أحلى الحور
وتهدّل الشعر الكحيل غلالة ثم انتشر
يُضفي على كتفين عاريتين شيئا من خفر
والنهد كادَ يضيق حصرا بالقميص وينفجر
سهم تصيد به الرّجال إذا توثّب وانحصر
قالت : « أأنتَ رفيقُنا في سجننِا هذا القذرْ؟»
فأجابها متغزّلا : « يا مخبرا وسع القمر
إن كان سجنا نعم حارستي الجميلة والمقر »
ضحكت لتلهب في خفايا القلب نارا تستعر
وافترت الشفتان عن ثغر يتيه به النَّظر
لتقول : « منْ أي البلاد أتيتَ ؟ ». « أضناني السفر
أنا تونسي من بلاد قد نأتْ بحرا وبر
هل زرتِها ؟ شطآنها رمل تبرّج وانتشر »

(*) انظر الفكر السنة 10 ــ ص 7 .

سكتت وطال الصمت بينهما وأمسك ينتظر
وأراد سرّ سكوتها فألح يسأل في ضَجَــــر
« أأنا أغظتك ؟ سامحيني ما كان منّي قد بدر »
ـ كلا ولكن بيننــا فصلتْ حدود. »
ـ مهما ظننتِ ثبوتهــا إنّ الحدود لتندثر
هل أنت افرنجية ؟ للشرق فيك بدا أثر »
ـ من تلابيب أنا وأعرف كم تعادون اليهودْ
نحن اليهــود. »

**

وتبدّدتْ آماله سحبا تمرّ ولا مطــر
وأفاق مصدوما ليطرح ما تقدّم من هذر.

**

وتحرّكت بخياله في لحظة لمح مليئات من الماضي البعيـــــدْ
مازال يذكر كلّ شيء كان طفلا يافعا يلهو بقضبان الحديــد
ومدافع صنعتها أحلام الطفولة من بقايا الحرب لونّها الصّديــد
والعُــرْب تدفع في إباء جند صهيون وتفتك بالعدو كما تريــد
سمع الكبار يحدثون الاهل عمّن شرّقوا للحرب في فجر سعيــد
والناس في قلق بقريته القصيّة يسألون مضاضة : هل من جديــدْ
لم يدر أنّ هزيمة نكراء قد حلّت بهم فتشتّتُوا شعبا طريــــدْ
كم من ضحايا أقبرت بدمائها تُروي خلايا الارض من دمنا الشهيدْ!
رقدت على حلم بعزّ للعروبة وانتصارٍ كان مرماها الوحيـدْ

**

وتقول لي في جرأة : « من تلابيب أنا وأعرف كم تعادون اليهــود»
من تلابيب ؟ وهل سمعت بها حياتك قبل أن تحتلّهَــا زُمَرُ الجنودْ ؟
أوَلَمْ تكوني في فرنسا بين أهل لم يروا وطنا سواها من عهــودْ
وهجرتها وتركت فيها بعض أهلك قد تفرّغ للتجارة في العقــودْ
أو تدّعين الآن بشرقنا وطنا لكم ؟ يا منطق الفَنَنْد الوَقُــودْ!
جئتم إلى بلد أمين يا حثالات الشُعوب وتزعمون به الجدود !

وطردتم الشعب الذي لم يعرف الدّهر الطويلَ سوى فلسطين الوَدُود
وطنا له. لا تعجبي مازال ينتظر الرّجوع إلى الدّيار على الحدودْ
وحشدتم الباقين في بعض القرى فكأنّ « هتلر » قد أعيد إلى الوجودْ
يا يومَ ينقض الطريدُ على فريسته الشهية ناشرا أبهى البنود !
إني أكادُ أراه. يوم تستبدّ به المدافعُ قاصفات كالرّعود
والموتُ يدأبُ بينكم ما منكمُ إلا الكسيرُ ومن تدرّع باللحودْ
فترين حينئذ هزيمتنا القديمة تستحيلُ إلى مطاردة الوُعُودْ.
وتقول لي في ضحكة : « في غابر الازمان كنتم ــ لا أمانعُ ــ كالاسود » !
يا وصمة الدهر الغريب العرب تخضع للعدوّ ويستمر بها القُعُودْ !

∴

ولكم تخدّرنا بتاريخ مضى في حاضر يا وارثي المجد التّليدْ
ولكمْ سمعنا من كلام منذ أعوام ونسمع : « أرضنا يوما نعيدْ »
ومتى يكون اليومُ ؟ علمه عند ربك ! في قيام الساعة الامل الوطيد!
يا قمّة جمعت رؤوس العرب ليت كلامها فعل يزكيه الحديدْ
ما منكم إلا المجاهد في قضايانا ونحن وراءكم عدد عديد
كونوا لنا خير الرجال وبدّلوا ما انهار من بنياننا صرحا عتيدْ
ماذا يقولُ صغاركمْ بعد الفناء ؟ « جدودنا عاشوا وماتوا كالعبيد ؟ »
الحكمُ للتّاريخ يخلدُ من تفرغ للنضال وحكمه ماض شديدْ

∴

إنّي لاخجلُ يا فلسطين الحبيبة ليس لي إلا كلام لا يفيدْ
إني لاخجل يا فلسطين الحبيبة ليس لي إلا التستُّر بالقصيدْ

علي عارف

---

(1) كل تغيير فى عدد التفعيلات أو فى القافية متعمد .

(2) مخبر من مخابر فيزيا الاجسام الصلبة بمركز من مراكز البحوث النووية بفرنسا .
الفكر : نضيف أن مراسلنا الكريم طالب تونسي يزاول بحوثه هناك لنيل الدكتوراه فى هذا الفن .



الى الانســـــان

شعر : الهادى نعمان

قد خلقت * الوجودُ بضحايا الاملْ
فمُنِحْتَ الخُلُود فكرة وعمَلْ

* * *

أنْتَ كنتَ الرّجَا للاماني العِـذَاب
ثار فيكَ الحِجَى وتغنّى الشّبَاب
فــاذا بــالهـوى
رمـز هـذا الوجودْ
واذا بالـــــورى
فـي ضمير الخلودْ

* * *

عشتَ رَغْمَ العَدَمْ وأضَأتَ الظّلامْ
والذي ينهـدِمْ بصَيَاصِي الحِمَامْ
تستطيعُ بِنـاهُ
في جميل الصورْ
فالكونُ كلّ مُنَاهْ
على يَدَيْكَ « قَدَرْ »

الهادى نعمان

(*) انظر الفكر السنة 5 ـ ص 614 ٠

الجندي

شعر : مصطفى الحبيب بحري

يا (*) سلاحي يا سلاحي ـ لميادين الكفـاح
أنا ضمدت جراحي ـ وسأحيا يا سلاحي

* * *

أنا قد حطمت قيدي ـ أنا قد احييت مجدي
أنا حر .. أنا جندي ـ لبلادي يا سلاحي

* * *

سوف أحيا لبلادي ـ ذائدا عنها الاعادي
واذا نادى المنادي ـ ستراني يا سلاحي

* * *

باللظى أحمي حماها ـ بالدما اسقي ثراها
واذا مت فداها ـ فهي امي يا سلاحي

* * *

أنا جبار وثائر ـ أنا للطغيان قاهر
أنا في الهيجا مغامر ـ لا ابالي يا سلاحي

* * *

للجماهير القوية ـ صغت لحن الوطنية
مات عهد الملكية ـ في بلادي يا سلاحي

* * *

أرض اجدادي لشعبي ـ لا لشرق ، لا لغرب
أنا انسان وقلبي ـ عربي يا سلاحي

(*) انظر الفكر السنة 3 ـ ص 20 .